أحلام العبد لله

محمود السعدني

دار الهلال

كده ولا إيه؟

(4) عفوا سأتحدث مباشرة إلى السيد وزير الداخلية. ووزير الداخلية في بلدنا خصوصا شخصية أسطورية، فهو ليس وزير التموين أو وزير الثقافة أو وزير الإعلام أو وزير مجلس الشعب! فهؤلاء جميعا إذا عقدوا مؤتمرات صحفية أو أدلوا بأحاديث للجرائد، فنحن نفغر لهم عدم اهتمامهم بتقديم مستندات تؤيد كلامهم، لأنهم غالبا لا يملكون مثل هذه المستندات. أما السيد وزير الداخلية فهو رجل يملك في يده مقاليد السلطة بالفعل .. وتحت يده أجهزة وملفات وشرائط وصور ومستندات، ولذلك فهو إذا اتهم أحدا فلا بد أن يزن كلامه بميزان الذهب وليس بميزان الطوب والدبش! واللواء أحمد رشدي وزير الداخلية صرح في الأسبوع الماضي للصحفيين بأن بعض الكتاب في الخارج ضد مصر، وناشد الوزير هؤلاء الكتاب أن يتقوا الله في أمهم مصر .. حماها الله، حماها الله! وقال الوزير في أسف شديد .. أن على هؤلاء الكتاب الذين يهاجمون مصر في الخارج أن يتقوا الله في أمهم مصر، وعليهم أن يدركوا أن مصر أغلى من كل الدنانير والريالات والدولارات التي يقبضونها ثمنا لمقالاتهم التي يكتبونها خارج الحدود! ..

أحلام العبد لله

محمود السعدني

وأنا مع وزير الداخلية في أن مصر أغلى ألـف مـرة من كـل كنـوز الأرض. ومعه أيضـا في أن الهجـوم على مصـر خـارج الحـدود أو داخـل الحـدود أيضـا ليس جريمـة فقـط، ولكنـه خيانـة، ويلقى مرتكبهـا جـزاء الخائن وعلى الفور! ولكن كان على وزير الداخلية أن يقدم لنـا نموذجـا من الهجوم على مصـر، أو يقـدم لنـا اسـما واحـدا لكـاتب هـاجم مصر.

والعبد لله على يقين بأن الوزير لو فعل هذا لما احتـاج إلى القبض على هذا الكاتب أو محاكمتـه، وبالتأكيـد فـإن الجمـاهير كـانت سـتتولى معاقبة الكـاتب الـذي يهـاجم أمنـا مصـر .. وعلى الفـور!! ولكن السـيد الـوزير – حمـاه اللـه – اكتفى بـالكلام، وأطلـق التصـريحات دون مستندات، واتهم "بعض" الكتاب بأنهم يهاجمون مصر.

وكلام السيد وزير الداخلية ذكرني بأيام مضت وأرجو ألا تعود. أيام كبير العائلة المصرية والعيب وأخلاق القريـة. عنـدما كـان الهجـوم على السـيد المحافـظ (5) جريمـة، والمسـاس بالسـيد الـوزير جنايـة، ونقـد تصرفات السيد الرئيس خيانة عظمى باعتباره مصـر! وفي أيـام اللـواء النبوي إسماعيل أصبح الهجوم على وزير الداخلية خيانة، والهجـوم على السيد المحافظ جناية، والهجوم على السيد السكرتير العام خيانـة، أمـا المساس بالسيد رئيس الدولة فهو كفر ويستحق صـاحبه دخـول النـار! فهل يريد اللواء أحمد رشدي العودة بنا إلى تلك الأيام؟

مبلـغ علمي أن الـرئيس حسـني مبـارك ليس مثـل سـلفه .. اللـه يرحمـه! وفي البلـد الآن ديمقراطيـة وحريـة، وهي تفـرد جناحيهـا على الجميـع من أول ضـباط الشـرطة وإلى باعـة الجملـة في سـوق روض الفـرج. فكمـا أن من حـق ضـباط الشـرطة – في ظـل الديمقراطيـة، ضـرب المتهمين في أقسـام الشـرطة، فأيضـا من حـق تجـار الجملـة إخفاء السلع أو رفع سعرها فهكذا تفرض ديمقراطيتنا .. حماها الله!!

وأعتقد أن الكتاب من حقهم الاستمتاع بهذه الديمقراطية، ومن حقهم أن يهاجموا تصرفات الشرطة، أو تصريحات السيد الوزير. أو ممارسات السيد المحافظ، أو سلوك الحزب الحاكم! فهل حدث من بعض الكتاب شيء من هذا القبيل؟ وهل هذا هو الذي جعل السيد الوزير يتصور أن الكتاب يهاجمون مصر؟ وأنا – يعلم الله – غلبت وغلب حماري لكي أعرف مصر التي يقصدها بعض السادة المسئولين! إن مصر حكمها ألف ملك ورئيس ووال وسلطان ونائب سلطنة، وكلهم ذهبوا إلى رحاب الله وبقيت مصر! وتولى أمرها مائة ألف وزير ومحافظ وسكرتير عام وسكرتير مساعد وصول وشاويش ومخبر وخفير، ولكنهم ذهبوا إلى رحاب الله وبقيت مصر! ومصر اجتاحها ألف مستعمر وألف غاز وألف سفاح، وكلهم ذهبوا في ستين داهية .. وبقيت مصر! فهل هؤلاء الذين حكموها من الملوك والطغاة كانوا مصر؟ وهل كل الوزراء الذين تولوا أمرها على مرا السنين من أول الوزير قراقوش إلى الوزير أبو سحلى، هل هؤلاء جميعا هم مصر؟ وهل كل شاويش وكل مخبر وكل مرشد هو مصر؟ وهل إذا تجرأ الكاتب وانتقد تصرفات سعادة البيه المعاون .. أو سعادة البيه الملازم .. أو سعادة البيه البلوكامين، يكون قد هاجم مصر، وعندئذ يحق رجمه بالحجارة ودفنه بدون احتفال؟

هذه المسألة – صدقوني – ينبغي الوقوف عندها والتفكير فيها، قبل أن ينجح أحدهم في جرجرة البلاد والعباد إلى أيام كئيبة مضت .. وأرجو ألا تعود! وأقترح للوصول إلى هذه الغاية تكوين لجنة لتقصي الحقائق، لمعرفة وتحديد ما هي مصر على وجه التحديد، هل الملك هو مصر؟ إذا كان الأمر كذلك، فعلينا بمحاكمة كل من سمح ووافق على عرض جثة الملك توت عنخ آمنون في المعارض للحصول على العملة الصعبة بتهمة الاتجار بمصر!! هل مصر هي رئيس الوزراء إذا كان الأمر كذلك، فعلينا أن نحاكم كل من هاجم شاور وضرغام، وكلاهما كان (6)

رئيسا لوزراء مصر، وأحدهما أشعل النار في العاصمة بدعوى إبعاد الصليبيين عن أبوابها! هل مصر الخديوي؟ لقد حكم مصر عدد منهم كانوا – ولا مؤاخذة – أجهل من دابة، وأحدهم انضم إلى المستعمر ضد شعب مصر!

هل السيد الوزير هو مصر؟ إذا كان الوزير – في نظر السيد وزير الداخلية – هو مصر، فأنا أول من يعلم وقوفه ضد مصر. ويستطيع اللواء أحمد رشدي لكي يدرك خطأ هذه النظرية، أن يلقي نظرة على اللوحة المعلقة فوق رأسه وسيكتشف وجود أكثر من ثلاثين وزير داخلية جلسوا على مقعده من قبل. ولو كلف نفسه وعاد إلى الملفات القديمة، فسيكتشف أيضا أن بعض هؤلاء السادة الوزراء دخلوا السجن، وحكم على بعضهم بالإعدام، وعلى بعضهم بالسجن المؤبد. فهل يجوز في عرف السيد الوزير إعدام مصر أو سجن مصر؟

يا لها من نغمة نشاز، كما أنها قديمة ومعادة ومكررة، واستمعنا إليها من قبل، وكانت سببا في كوارث ومصائب أرجو أن لا تتكرر في تاريخ مصر. فنهاية الدول تبدأ عندما يتصور بعض الموظفين أنهم الأمة نفسها، وأن الزمان لن يجود بمثلهم، وأن على الكتاب الذين لم يتربوا كفاية ولم يتعلموا الأدب، أن يسبحوا بجهدهم ليل نهار، وان يمجدوا أسماءهم، وأن يعددوا مآثرهم، ولا بأس من الدعاء لهم بطول البقاء وواسع الرزق!

وليس لدى العبد لله مانع من الدعاء للسيد أحمد رشدي بطول البقاء وعلو الذكر. فقط .. أرجو وأتوسل إليه أن يضرب لنا مثلا واحدا على كاتب واحد هاجم مصر، أو خان مصر، أو باع مصر، اللهم إلا هذا كان أحدهم كان يملك قطعة أرض في "مصر" الجديدة، أو في "مصر" العتيقة .. وباعها للغير!

هل يستطيع وزير الداخلية أن يضرب لنا هذا المثل؟ إذا كان الوزير يستطيع فأنا أول من سيرجم الكاتب الذي تجرأ وهاجم مصر. أم أن الوزير قد أخذته الجلالة في عيد الشرطة ... فاتهم الكتاب بدون وجه حق .. فأنا أرجو أن يلجأ الكتاب الذين يكتبون خارج مصر إلى مقاضاة وزير الداخلية، لكي يزن كل مسئول كلامه في المستقبل فلا يتهم الناس بالباطل وبدون حق! لأنه إذا كان مطلوبا من الكتاب أن يتحسسوا كلماتهم قبل أن يتهموا المسئولين أو يهاجموهم، فأولى بالمسئولين أيضا أن يتحسسوا كلماتهم قبل أن يتهموا الكتاب أو يهاجموهم.

كده .. ولا إيه ..؟

أخشى أن يكون الرد .. ايه!

وعلى رأسه قنديلان!

(8) اذكروا هذا الاسم "مغدوشة" واحفظوه، وهي قرية عربية دخلت التاريخ من أوسع الأبواب، وهي دخلت من نفس الباب الذي دخلت منه ستالينجراد والعلمين وبرلين وجزيرة أبو جيما، وهي مفاتيح النصر في الحرب العالمية الأخيرة.

ولكن مغدوشة فاقت الجميع، وتقدمت على الجميع، فعلى أرضها دارت أعظم معركة ليس في القرن العشرين وليس في التاريخ، وليس

فيما قبل التاريخ ولكنها أعظم معركة حربية منذ الأزل وإلى الأبد، ولأنها معركة عربية وبجيوش عربية وأسلحة عربية لا شرقية ولا غربية، ولكنها منبثقة من أرضنا ومنتخعة من تراثنا ومنبعجة من ترابنا! والذين انتصروا فيها عرب، والذين انهزموا فيها عرب والذين جرحوا فيها عرب، والذين أسروا فيها عرب، كلهم عرب، وأمجاد يا عرب، وكله عند العرب بلوبيف!

والحمد لله الذي كتب لنا الحياة حتى عشنا عصر مغدوشة، الحمد لله لأن العرب مغدوشة في خير ما بعده خير، رايات النصر ترفرف فوقنا، وآيات العز تحوم حولنا، جانبنا مهاب، وكلمتنا مسموعة، وأسهمنا عالية، والدنيا كلها تنظر إلينا وتنصت لنا وتغبطنا على النعمة التي نرفل فيها، وتحسدنا على بحر السعادة الذي نسبح فيه!

ففي مغدوشة انتصرنا نحن العرب مرتين المرة الأولى حين استطاعت القوات الفلسطينية العربية تحرير القرية واستخلاصها من أيدي قوات الشيعة العرب، والمرة الثانية حين استطاعت قوات الشيعة العرب انتزاع قرية مغدوشة من أيدي الفلسطينيين العرب، ودار القتال داخل مغدوشة في المرتين من بيت إلى بيت ومن صالة إلى صالة ومن مطبخ إلى مطبخ وسقط في المعركتين وعلى الجانبين ألف قتيل تناثرت جثثهم في الشوارع، وجرى دمهم أنهارا في العطوف والحواري، ووقع في الأسر مائة شيعي عربي بينهم قائد كبير، ومائة فلسطيني عربي بينهم قائد كبير، ووصف الدوائر العسكرية الأجنبية معارك مغدوشة بأنها فتح جديد في التكتيك العسكري وأثنت على أداء جميع المتحاربين العرب، وأكدت بأن هذا الأداء الرائع جاء نتيجة تدريب شاق وجاد ورفيع المستوى، وأشادت الدوائر الأجنبية بدقة التصويت من الجانبين، فقد سقطت كل قذائف الفلسطينيين العرب على بيوت الشيعة، بينما كانت كل قذائف الشيعة العرب تتساقط على مخابئ

الفلسطينيين العرب وإذا كان الفلسطينيون العرب قد حققوا انتصارهم بـاحتلال (9) المـنزل رقم 13 بحـارة مسـلم ابن عقيـل، فـإن الشـيعة العرب قد حققوا انتصارهم باستعادة المنزل رقم 13 بحارة مسـلم ابن عقيل.

وهكذا سقطت قرية مغدوشة مـرتين في أيـدي العـرب، مـرة في أيدي الفلسـطينيين العـرب، ومـرة في أيـدي الشـيعة العـرب وتحققت على أيدينا معجزة عسكرية بكل المقـاييس، وهي أننـا نحن العـرب في بـرج عزنـا، وفي قمـة سـعدنا، فقـد نصـرنا اللـه في الأول وفي الآخـر ونصرنا في البداية وفي النهاية، مـرة على أيـدي الفلسـطينيين العـرب ومرة على أيدي الشـيعة العـرب، ليصـبح نصـرنا نصـرين وعزنـا عـزين وفخرنا فخرين! ويـا عـربي يـا نـور العين يـا بـو وردة على الخـدين، يـا محقـق الانتصـارين! وهكـذا .. وباعتبارنـا عربـا في عـرب، المنتصـرون عرب و المنهزمون عرب، والجرحى عرب والأسرى عـرب، نصـبح نحن أول أمة على ظهر الأرض تحقـق نصـرا على هـذا المسـتوى، ومن هـذا النوع النادر الفاخر الثمين!

نصر في الذهاب والإياب! نصر في الرايحة والجايـة! وأصـبحنا في الحرب كالمنشار طالع منصـور نـازل منصـور! وينبغي في حـالات مثـل هذه، وهي حالة لم يذكر لها التاريخ مثيلا ينبغي أن نحشـد كـل مؤلفينـا، وأن نسـتغفر كـل ملحنينـا، وأن نسـتعدي كـل مطربينـا، ليعـدوا لنـا مـا استطاعوا من أغاني النصـر، ويـا نصـر يـا نصـر من المسـا للعصـر، وم الكوخ للقصر! والحمد لله لا تزال المعارك مستمرة والقتال على ودنه، والتراشق بالصواريخ على ودنه، وأمجـاد يـا عـرب، أعـدتم إلى الأذهـان عصر هارون الرشيد، ورحمـة اللـه عليـه بلـغ ملكـه مـدى في الاتسـاع، جعلـه ينظـر إلى أي سـحابة صـايعة ويقـول لهـا في ثقـة لعيب كـورة محترف! أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك! ولكن عصـر السـحاب

انتهى، كان عصرا رومانسيا خياليا خرافيا ونحن الآن والحمد لله في عصر الواقع والكمبيوتر والقنبلة النووية، وتطورنا مع التطورات، وتغيرنا مع التغيرات، وأصبحنا ننظر إلى أي معركة تدور في أي بقعة من بلادنا ونقول لها، انته إلى إلي وضع، فنحن المنتصرون على كل حال. شيعة عرب، سنة عرب، أكراد عرب، موارنة عرب، فلسطينيون عرب، لبنانيون عرب كلنا عرب، أسرى عرب، جرحى عرب، قتلى عرب، وكله عند العرب بلوبيف!

والأكادة أن المعارك دائرة في مغدوشة على مرمى حجر من حدود إسرائيل، ولكن يبدو أن عقولنا أصيبت بخبل، وبنادقنا أصيبت بحول، فلم تعد تنطلق إلا نحونا، ولم تعد تنفجر إلا في صدورنا ولا تشرب إلا من دمنا، بينما إسرائيل تقف عن كثب تشاهد وتضحك، وتشاهد وتصفق، وتشاهد وتدعو للجانبين بالنصر المبين!

والحمد لله الذي أحيانا لنشهد عصر مغدوشة وهو عصر فاق كل عصور العرب السابقين، أين نحن من العرب الأشاوس؟ والعرب الأقحاح؟ والعرب العاربة؟ (11) والعرب المستعربة؟ أين منا عنتر العبسي ورجاله الشجعان؟ أين القعقاع وجيشه المقدام أين خالد وسيفه المسلول؟ وأين سعد بن أبي وقاص وحصانه الأشهب؟ وأين أبو عبيدة ابن الجراح ولثامه الأسود؟ أين موسى ابن نصير وخادمه طارق بن زياد؟ أين صلاح الدين وجنوده وبنوده؟ أين الظافر قظر والظاهر بيبرس؟ أين السيد البدوي وأتباعه؟ أين الكبير علي بيه وأين أبو الدهب محمد؟ أين محمد علي وابنه إبراهيم؟ وهل عرب اليوم هم حقا أحفاد عرب الأمس؟ وهل تحققت بالفعل بطلات الأمس؟ أم هي مجرد أساطير وحكايات؟

الحق أقول بعد معركة مغدوشة وما جرى فيها من انتصارات وفتوحات، أصبح من العسير إثبات أننا نحن عرب اليوم ورثة عرب

الأمس، فلم يحدث في التاريخ عمى حيسي من هذا النوع، أصبحت ظهورنا لإسرائيل، وفوهات مدافعنا مصوبة لصدورنا وعبقريتنا العسكرية لا تتألق إلا عندما تكون الحرب ضد أهلنا عرب يموتون، وعرب يجرحون، وعرب يؤسرون، ولكن وبرغم ذلك فالنصر لنا! لأننا أصبحنا بفضل الله كالمنشار طالع منصور نازل منصور، وإذا كانت الخيبة بالويبة في لبنان فالخيبة في حرب الخليج على أوسع، انكشفت اللعبة القذرة وإذا بأمريكا تغذي آلة الحرب على الجانبين، أمريكا تبيع السلاح لإيران، وإسرائيل تنقله ورغم انكشاف اللعبة وظهور اللعبة على المسرح ما زالت الصواريخ تفرقع في المدن الإسلامية على الجانبين، وما زالت الطائرات تدك بيوت المسلمين على الضفتين والاستنزاف على ودنه في الناحيتين، والخراب على أشده في الجانبين وإسرائيل تشاهد وتعترف، وتشاهد وتضحك، وتشاهد وتدعو للجانبين بالنصر المبين!

رواية ولا أسطورة، وحكاية ولا اللغز، ولن تنته الحرب حتى تكون قد أكلت أموال المسلمين والعرب وهدت قوى المسلمين والعرب ومسحت مدن المسلمين والعرب ولكن أيا كان الوضع الذي ستنتهي إليه حرب الخليج فالنصر سيكون حليفنا نحن المسلمين، فالمهم النتائج، والعبرة بالخواتيم والنصر ياهوه سيكون. والحمد لله من نصيب المسلمين، عرب، أو فرس مسلمين، ما الفرق؟ خصوصا ونصف العرب مع العرب، ونصف العرب مع الفرس؟ خصوصا جبهة الصمود والتصدي، وهي بدون فخر جبهة صمود أمام الغزاة العرب، وتصد للمعتدين العرب، أما إسرائيل وعساكر إسرائيل، فلا صمود أمامهم ولا تصدي لهم، باعتبار أن البيت له رب يحميه! والعبد لله من أشد المعجبين بجبهة الصمود والتصدي، وإن شئتم الدقة فالعبد لله من دراويش الصمود ومن مجاذيب التصدي، خصوصا وأنه صمود ضدنا، وتصد لنا! وسر حبي وإيماني بالجبهة، أنني رجل شعبي. والجبهة تبق

المثل الشعبي زيتنا في دقيقنا، وتطبق المنهج العربي، اللي يحتاجه البيت يحرم على الجامع! ثم إن التصدي للعرب أسهل، والصمود أمامهم أيسر! ومصيبتنا نحن العرب في الماضي القريب، أننا كنا مصابين بعقدة الخواجة، وجبهة الصمود والتصدي قامت لإزالة هذه الصفة (12) الرذيلة ومحو هذه الوصمة الثقيلة، فلا جبهة – الحمد لله – لا تتصدى لخواجات، ولا تصمد أمام أجانب! وأنا معهم من أجل هذا المعنى، وفي صفهم لتحقيق هذا الهدف! فصنف العرب نماريد وينبغي تأديبهم! والجبهة والحمد لله تؤدي هذه المهنة خير أداء، في لبنان، وفي حرب الخليج، ومستعدة لتوصيل الخدمات إلى المدن العربية، والشواطئ العربية، من طنجة وإلى صنعاء!

ولكني، وبالرغم من انحيازي لهم، وانتظامي في صفهم. أرجو أن أسأل سؤالا، وأرجو عدم المؤاخذة ولا ملام، لا نصمد أمام إسرائيل، موافق، لا نتصدى لعساكر إسرائيل، ماشي، نتقطقط "نتحول إلى قطط" أمام الخواجات، مافيش مانع، نستأسد أمام العرب، عظيم! ولكن نتحالف مع إسرائيل؟ ندخل في حلف مع إسرائيل؟ هذا هو الموقف الجديد. والسؤال لا مؤاخذة من صامد ومتصد حديث العهد بالمهنة، فلاح ولا مؤاخذة يصدق الشعارات والبيانات! والسؤال موجه للجماهيرية الشعبية الليبية التي قررت وصمتت وتوكلت على النظرية الثالثة للقضاء على أمريكا وإسرائيل.

والسؤال ولا مؤاخذة موجه أيضا إلى حزب البعث السوري الذي يؤمن بالوحدة اللي ما يغلبها غلاب، وأنا واقف عند الأهرام وقدامى بساتين الشام! والسؤال ولا مؤاخذة، ليس من باب الاستنكار أعوذ بالله، ولكن من باب الاستفسار والحمد لله. والسؤال هل جبهة الصمود والتصدي في حلف مع إسرائيل؟ إذا كان الجواب بالنفي، فكيف يتفق هذا النفي مع الحقائق التي ظهرت. والأسرار التي انكشفت، مع أمريكا

تزود إيران بالسلاح وإسرائيل تنقل السلاح إلى إيـران. والجبهـة حليفـة إيران وبالتالي فهي حليفة للولايات المتحدة وتابعها قفة!

أما إذا كان الجواب بالإيجاب فيا ألف مرحب، ويـا ألـف نهـار أبيض فهكذا يكون الجموح في الوضوح والتفنن في الطموح. وإصـابة الهـدف بكل شغف، وحصد الكلأ أمام الملأ، المهم الصمود ولو بأسلحة أمريكـا، والمهم التصدي ولـو بمسـاعدة إسـرائيل! ومـا دمنـا نضـرب في أهلنـا. ونطقطـق المـدافع داخـل بيوتنـا، فالانتصـار آت وأكيـد ولا ريب فيـه إذا انتصروا .. انتصرنا .. فكلنا عرب، وكلنا أحفاد عنترة وخالد والقعقاع!

ولكن الأحفـاد أثبتـوا لحسـن الحـظ أنهم أعظم من الأجـداد، فهم حققوا النصر البسيط، وحققنـا نحن النصـر المـركب، وكـانوا ينتصـرون مرة، وننتصر نحن مرتين، نصر طالع نصر نازل، تحولنـا إلى منشـار في ساحات المعارك، طالع منصور نـازل منصـور، والحمـد للـه لأن العـرب في خير ما بعده خير خصوصا هـذه الأيـام، الحمـد للـه، فرايـات النصـر ترفرف فوقنا، وآيات العز تحوم حولنا، جانبنا مهاب، وكلمتنا مسـموعة، وأسهمنا عالية والدنيا كلها تنظر إلينا وتستمع لنـا، وتغبطنـا على النعمـة التي نرفل فيها، وتحسدنا على بحرا لسعادة الذي نسبح فيه!

وأمجاد يا عرب أمجاد.

وحظنا المهبب أن شـيخنا دكتـور، ودكتورنـا عقيـد، وعقيـدنا عقيم، وعقيمنا سيدخل القـدس محـررا وعلى رأسـه قنـديل وقيـل قنـديلان .. والله أعلم.

العرب وجائزة شوجب

(14) ما حدث لمصنع الرابطة الليبي هو بالتأكيد من تـدبير أجهـزة المخابرات في الغـرب. وإذا كنـا لا نسـتطيع تحديـد الجهـة الـتي قـامت بالتـدبير، فإننـا وبالتأكيـد نسـتطيع تحديـد الجهـة صـاحبة المصـلحة في التدمير، وليس هناك غير إسـرائيل. وهـذا المصـنع بالـذات ثـارت حولـه ضجة منـذ فـترة في الـدوائر الغربيـة، وصـرحت مصـادر أمريكيـة بأنهـا ستضرب ليبيـا ضـرب غـرائب الإبـل إذا لم تسـارع ليبيـا إلى إغلاق هـذا المصنع الذي يمثل خطرا على السلام العالمي. يا سلام!!

المصنع الليبي وحده هو الذي يهدد سلام العالم!

طيب ومصـــنع القنابـــل الذريـــة في إســـرائيل؟ ومصـــنع الأســـلحة الكيماوية في أمريكا؟ ومصنع الأسـلحة الكيماويـة في روسـيا؟ ومصـنع الأسلحة الكيماوية في بلجيكا؟ كل هذه المصانع لنشر الرفاهيـة وتعميم الخـير على سـكان المعمـورة، ولكن المصـنع الليـبي وحـده هـو مصـنع الشيطان الـذي يجب تـدميره ونسـفه من الأسـاس! ليـه؟ لأن المصـنع الليبي مصنع عربي، وسـلاحه سـيكون سـلاحا في يـد العـرب، وممنـوع على العرب أن يكون لديهم سلاح رادع في معركتهم ضد إسرائيل.

هـذه هي اسـتراتيجية الغـرب تجـاه العـرب، وهم يطبقونهـا بحـزم صارم وبكفاءة عالية. ومنذ الخمسينات عندما بدأ العـــدوان الثلاثي على مصر، كانت أول خطوة للعـدوان هي تـدمير الطـائرات المصـرية. وفي أول السـتينات طـاردوا العلمـاء الألمـان في مصـر، وخطفـوا بعضـهم، ونسفوا بعضـهم بالخطابـات الملغومـة، ولم يهـدأ لهم بـال حـتى قضـوا تماما على صناعة الصواريخ المصرية.

وفي السبعينات أشيع أن العراق يقيم مفاعلا نوويـا لإنتـاج القنابـل الذرة. وصدرت تصريحات من هنـا وهنـاك، بعضـها ينصـح وبعضـها ينـذر

وبعضـها يهـدد، حـتى كـان اليـوم المشـئوم حين أغـارت الطـائرات الإسرائيلية على العراق، وحولت المفاعـل النـووي العـراقي إلى حفنـة من التراب. وكان مصنع الرابطة الليبي هو آخر محاولة للعـرب لحمايـة أنفسهم، ولكن المحاولة لم تتم واشتعلت النار في المصنع وتحـول في النهاية إلى حفنة (15) رماد. هـذه باختصـار هي قصـة الصـراع العـربي الإسرائيلي والتي انتهت كلها بانتصار حاسم للعدو وهزيمة كاملة للعرب الطيبين. وإذا كان الغرب قد سارع بنفي اشتراكه في أي عمل تخريـبي ضد المصنع الليبي، كما أن العرب سارعوا أيضا بشجب العدوان الغـادر فالعبـد للـه لن يشـجب ولن يحتج، ولكـني فقـط سـألطم على خـدي احتجاجا على خيبة العرب وعلى سذاجتهم.

أيام صناعة الصواريخ المصرية كانت حكومة مصر تعلم تمام العلم أن المصانع مستهدفة، وتعلم أيضا أن إسرائيل لن تترك العلماء الألمان حتى تقتلهم أو تخطفهم، وبالرغم من ذلك سمحنا لجاسوس إسـرائيلي يتخفى في زي ألماني بالإقامة في مصر وإدارة مزرعـة للخيـول وعقـد صلات طيبة مع العلماء الألمان أنفسـهم، ولم يخطـر على بـال أحـد أن هذا الألماني الأفاق قد يكون جاسوساً لإسرائيل، ولم يصـدق أحـد هـذه الحقيقة إلا عندما اعترف الألماني جاسوس إسـرائيل بالحقيقـة كاملـة، لكن هذ الاكتشاف جاء بعد فوات الأوان، وبعـد أن كـان الجاسـوس قـد تمكن من تحقيق أغراضـه ففقـأ عين أحـد الخـبراء، وقتـل آخـر وقطـع أطراف ثالث، وأرشد عن خط سير أحدهم وكان في رحلـة إلى ألمانيـا فخطفوه وقتلوه ولم يعثر على جثته حتى الآن.

بالنسـبة للمفاعـل النـووي العـراقي كـان الكـل يعلم أن المفاعـل مستهدف، والعلماء الذين يعملون فيه مستهدفون، وبذلنا أقصى الجهـد لحماية المفاعـل وحراسـة العلمـاء. فمـاذا كـانت النتيجـة؟ قتـل العـدو العالم المصري الدكتور المشد، ونسفت طائرات إسرائيل المفاعل من

الأساس. وماذا كان رد الفعل؟ شجبنا العدوان الغادر ودعونا إلى مؤتمر عالمي للاحتجاج على غدر العـدو اللـئيم، وكأنـه مفـروض في العـدو أن يكون طيبا ومؤدبا وابن ناس ومن أسرة كريمة لا تفعل العدو ولا تتنكــر لأخلاق القرية!

وبالرغم من التكـرار الـذي قيـل أنـه يعلم الحمـار، حـدثت مأسـاة المصنع الليبي. الكـل كـان متأكـدا أن المصـنع مسـتهدف. وقـد نصـحنا العدو في البداية ثم أنذرنا ثم هددنا. وتصـورنا نحن بـالطبع أن حراسـتنا مجيدة ويقظتنا شديدة حتى حدثت الوكسة واحترق المصنع الليــبي عن آخره. وهكذا أصبح العرب كالريفي الساذج الذي وقع في قبضة عصـابة لصوص في القاهرة سلبوه كل مـا معـه من النقـود. فحمـل قفتـه على رأسـه ومضـى في الشـارع يبكي وينتحب، فـاعترض طريقـه فـرد من العصابة وسأله عما به فحكى له قصته فطيب اللص خاطره، وقـال لـه لا تحـزن سـأذهب لـك إلى الشـرطة، وسأسـترد لـك النقـود على دايـر مليم، وطلب منه أن يهدأ وأن يمسح دموعه وأن يرفع رأسه، ثم أعطاه عشرة قروش لكي يشتري علبة سجائر من الـدكان وزيـادة في إكـرام الريفي الساذج حمل اللص القفة عن الفلاح. وبالطبع عندما عـاد الفلاح بعد أن اشترى علبة السجائر لم يجد القفـة ولا الأفنـدي الطيب. وسـار الفلاح في طريقه يلطم على وجهه من شدة الغيـظ. فـاعترض طريقـه عضو آخر في العصابة، طيب خاطره هو الآخر، وهـدأ من روعـه وأمـره بأن يسكت (17) ومسح دموعه، ووعده بأن يسترد له أمواله حتى آخــر مليم، وأن يعيد إليه القفة بما فيها من خيرات الريف، ونصحه بأن يخلـع جلبابه الصوف الوحيـد الـذي يملكـه، وأن يتهم العصـابة بأنهـا اسـتولت على نقوده وقفته وجلبابه، لكي يكون العقـاب شـديدا وصـارما ورادعـا أيضا. وطلب منه أن ينتظره عند بـاب أحـد الـبيوت لكي يضـع الجلبـاب في الشقة ثم يذهبان معا إلى قسم الشرطة، وانتظر الفلاح عند البـاب ولكن انتظاره طـال، واكتشـف في النهايـة أنـه سـرق مـرة ثالثـة، وأن

البيت الـذي وقـف عنـده لـه بابـان بـاب على الشـارع وبـاب في حـارة خلفية، وأن البيـه صـاحب القلب الـرحيم حـرامي هـو الآخـر ومن نفس العصابة وأنه أخذ الجلباب الصـوف واختفى في الزحـام! وعـاد الـريفي الساذج إلى مسقط الرأس يشجب اللصوص الغادرين!

هل هناك فرق بين العرب وهذا الفلاح الساذج البسيط؟

لقـد ضـرب الأعـداء الغـادرون صـناعة الصـواريخ في القـاهرة، ثم دمـروا المفاعـل النـووي في العـراق، ثم أحرقـوا المصـنع الليـبي في الرابطة. ولم نصنع شيئا سوى شجب العدوان الغـادرو وسـب المعتـدي الآثم. وبالتأكيد سـندعو بـإذن اللـه إلى مـؤتمر عـالمي حيث نشـيع فيـه شجباً واحتجاجاً على العدوان الغادر والمعتدي الأثيم. والعبد للـه يقـترح على الجامعة العربية، من أجل تسهيل عملية الشجب والاستنكار إنشاء وكالة عربية للشجب، تكون مهمتها تنظيم مـؤتمرات الشـجب بعـد كـل عدوان غادر، واختيار أفضل العناصر الشاجبة في أنحـاء العـالم لحضـور هذه المؤتمرات، وتخصيص جـائزة عالميـة لأحسـن شـاجب في العـالم العربي تكون على غـرار جـائزة نوبـل، ولا بـأس من تسـميتها بــ**جائزة شوجب**! فنحن بالتأكيد في حاجة إلى مثل هذه الإجـراءات، لأن العـدو الغــادر لن يتخلى عن غــدره، كمــا أننــا بالتأكيــد لن نتخلى غن خيبتنــا وسذاجتنا وقلة حيلتنـا وهواننـا على النـاس. وسـنظل كـذلك طالمـا أن مفهوم حماية الأمن القومي عند العرب، هـو القبض على أعضـاء خليـة شيوعية من ثلاثة أعضاء، لا يستطيعون تحريك شـعرة واحـدة في رأس أصلع. أو إعدام جاسوس التقط صوراً فوتوغرافية لشارع نصفه مهـدوم ونصفه الآخر دكاكين مغلقة بسبب الكساد والبوار!

إن حمايــة الأمن القــومي الحقيقي يــا ســادة هــو حمايــة منشــآتنا الحيويـة وحمايـة السـلاح الـرادع الـذي في أيـدينا. ولـو كـان لـدينا هـذا المفهــوم بمعنــاه الحقيقي لاحتفظنــا بصــناعة الصــواريخ المصــرية،

واحتفظنا بالمفاعل النووي العراقي، واحتفظنا بمصنع الرابطـة الليـبي. ولكننا لخيبتنـا نعتقـد أن حمايـة الأمن القـومي هـو حمايـة نظـام الحكم وحراسه المفكرين العظام الذين يؤمنـون بالنظريـة أو الـذين ينظـرون للوحدة العربية أو الذين يتولون المناصب الرفيعة في أجهزة الأمن!

حبـذا لـو بـدأنا العمـل من مصـنع الرابطـة الليـبي فأنزلنـا العقـاب الرادع بكل مسئول عن الأمن شغل نفسه بالهـايف من الأمـور والتافـه من المسائل ولم يفق إلى على (18) ألسنة اللهب الممتـدة من داخـل المصنع. وحبذا لو غيرنا مفهوم الأمن في بلادنا ووضعنا منشآتنا الحيويـة على رأس اهتمامنا الزمنية، بدلاً من الانشغال بتعقب معارض مشاكس أو تسـجيل مناقشـات مثقـف منـاوئ أو البحث عن منشـور تافـه كتبـه مناضل من إياهم، أو رصـد اجتمـاع لزعمـاء حـزب الكهربـاء، ومـا أكـثر أحزاب الكهرباء في بلادنا، لدرجة أن "مناضلا" مصريا من إيـاهم يـدعى "ربحي بهلول" سافر إلى بلد شقيق منذ فترة بعيدة وحمل معـه قائمـة بأسماء الوزراء الذين اختارهم لتشكيل الحكومة بعـد أن يصـبح سـيادته هو الرئيس المفدى. والغريب أن البلد الشقيق صدقه وأجرى تعديلا في القائمة وبعـد أن قبض "المناضـل" المعلـوم سـافر إلى أوروبـا ليناضـل بشدة في ملاهي "كان" وفي كازينوهات "نيس".

صدقوني نحن في حاجة إلى سياسة أمنية جديـدة، سياسـة يكـون هدفها الوحيد ليس شـجب العـدوان الغـادر، ولكن منـع العـدوان الغـادر والحيلولة دون وقوعه.

والعبـد للـه لا يقصـد بهـذا الكلام بلـدا معينـا أو نظامـا بعينـه ولكن أقصد الجميع ومن شواطئ طنجة وإلى غابات الصومال وجبال صـنعاء. وهذه هي الوسـيلة الوحيـدة لكي لا نصـبح مثـل الـريفي السـاذج الـذي سلبوه نقوده وحرمـوه من قفتـه وشـلحوه ثيابـه، ثم مضـى إلى قريتـه يلطم الخـدود حزنـا على مـا جـرى واحتجاجـا على العـدو الأثيم وشـجبا

للعدوان الغادر، مع أن الغادر الوحيد هو الساذج الذي أتاح للجميع فرصة نهبه وسلبه وتشليحه هدومه في الطريق العالم!

والمهم الآن أن نحدد من هو الساذج العربي الإسرائيلي، وإذا نجحتم في تحديده، فسامحونا على رأي زاهد مطر، أو اشجبونا!

وفي الصيف ضيعت النفط

(20) وإذا كان لسان حال العرب القدامى "الصيف ضيعت اللبن" فلسان حال العرب النشامى بتوع هذه الأيام "في الصيف ضيعت النفط"! ولا أعرف السبب الذي جعل الصيف بالذات هو مضيع العرب قديما وحديثا؟ ولماذا لا يحدث الضياع إلا لثروة العرب؟ اللبن الذي هو نفط العرب زمان، والنفط الذي هو لبن العرب هذه الأيام والأغرب أن جميع العرب اشتركوا في هذا التضييع، العرب "التقدميين" والعرب "الرجعيين" والعرب الذين هم "نص نص"! أو الذين "بين بين". وعلى رأي عمنا الدكتور طه حسين وبإلقاء نظرة على كشف حساب عائدات النفط خلال العشرين عاما الماضية وبميزان المكسب والخسارة. نرى أن الدول "الرجعية" كانت أسعد حظا من الدول التقدمية لأنها أنفقت العائدات على إنشاء مدن مزركشة وطرق طويلة .. ثم على أمور المتعة والمزاج ولكن الدول التقدمية أنفقت العائدات على إصدار مجلات لدعم "الموقف العربي" ومؤتمرات لمناقشة التأثير الفوقي للكتاب الأخضر المسخسخ في ثورة داهومي. وعلاقة الفاتح بنتائج

كـأس الأمم الإفريقيـة... كمـا ذهبت ملايين وملايين من براميـل النفـط لإنشـــاء مراكـــز ثقافيـــة ومجلات مباحثيـــة – من البحـــوث وليس من المباحث – وأحزاب للتنوير وأخرى لأعمال الكهرباء وكل نظـام تقـدمي وآخـر راهن بـآخر قـرش من قـروش النفـط على أنـه النظـام الأمثـل والأفضـل والمؤهـل لحكم العـالم وتبـارى الجميـع في شــراء الـذمم والأقلام.. وصــار الكتــاب هــو جــواري العصــر النفطي. فهــذا كــاتب بمذكرات، وهـذا كـاتب بأسـرار وهـذا أرزقي ولكنـه معـه أوراقـا سـرية ووثائق مستخبية، وانهالت الكتب المؤلفة عن صقر الصحراء .. و.. أسد البراري .. و .. رسول من عجما إلى آخر الكتب المزركشة المكشكشة التي غمرت الأسواق خلال عصر النفط. والمدهش أن أغلب كتاب هـذه "الموسوعات" كانوا في البدء مناضلين ثوريين قضـوا فـترة طويلـة في السجون قبل أن يفتحوا أمخاخهم ويهديهم الرزق إلى الموقـف الثـوري الصحيح.

وكما شارك النفط في إحياء حركة التـأليف والنشـر. سـاهم أيضـا في إحيـاء الشـعر العـربي بعـد ركـود وانحطـاط وعلى أبـواب الـدول الرجعية ... كان الأمر أسهل (21) على الشـعراء ومـا على الشـاعر إلا أن يتوكل على الذي لا ينـام ويخبـط قصـيدة عصـماء في مـدح الشـيخ الذي "وإن كان الأخير زمانه فلسوف يأتي بـالعجيب الأعجب". أمـا في الدول التقدمية فقد كان الأمر أكثر صعوبة وأشد دقة فليس هناك شـيخ ولكن هنـاك بطـل، ومـدح البطـل ليس مثـل مـدح الشـيخ، فالأبطـال يحتـاجون إلى بحـور أوسـع تفعيلـة مبتكـرة وإلى مـدح البطـل والثـورة والشهر الذي انبثقت فيـه الثـورة والشـعب الـذي اختـار البطـل ورفعـه فوق الأعناق.

ولذلك كثرت القصائد الشهرية نسبة إلى الشـهور. فهنـاك قصـيدة نيسـان وقصـيدة تشـرين وقصـيدة تمـوز وقصـيدة الفـاتح من سـبتمبر

والقافل من نوفمبر والطالع من أمشير والنازل من طوبة والفاحت من برمهات، ولأن برمهات هو شهر الخيرات وروح الغيط وهات. لذلك تهافت كل الشعراء الثوريين على شهر برمهات، و ..

يا أبرمهات .. يا شهر المعجزات

والبلح الأمهات

وخد وهات

والبطل اللي جاء

ليس كالبطل اللي مات

يا برمهات

يا شهر المعجزات والمنجزات

أبوك السقا مات!

وكما شارك النفط العربي في إحياء حركة التأليف والشعر .. شارك أيضا في البحوث والدراسات فنشأت داخل العالم العربي وخارجه عدة مراكز للبحوث وأخرى للدراسات وتولى أمرها أرزقية مدربون، وتولى عملية البحث فيه "دكاترة" أغلبهم حصل على الدكتوراه من السوق الحرة في مطارات الدول إياها والبحث حسب الطلب وحسب الأجر. فمثلا .. بحث عن الزعراب وأثره في ثورة الفاتح بعشرة آلاف دولار وبحث عن "المحمرة .. الفرخة والمدينة بسبعة آلاف دولار وبحث من حرب البسوس وشرب العرقسوس وهوية جبال فرطوس .. خمسة عشر ألف دولار". ولأن البحوث أصبحت أكثر من الهم على القلب. فكان لا بد من مؤتمرات عليمة وعقائدية ومرة في لندن ومرة في باريس ومرة في طنجة. المهم أن

يجمتع الشمل وتحتدم المناقشة. ومع المناقشة تبدأ المناغشة؟ وكل شيء بثمنه. شرط أن يكون البحث الرئيسي بذور الاشتراكية ومخاطر أكل الملوخية .. أو أسلاك الكهرباء وعواقب الانتماء .. وبعدها تتم عمليات المقايضة، وخد وهات. ويا بخت من نفع واستنفع. ومن أجل الأنفع والأرفع. أما التخين فرزقه على الذي يمهل ولا يهمل، وإذا كانت السجون والمنافي لم تستطع أن تزحزح مناضلا من مكانه .. فقد (23) استطاع النقد أن يزحزح أصلب المناضلين. ويغير مواقع أعند الثوريين .. ماركسي يتحول إلى قومي. وقومي يصبح من جماعة الإخوان المسلمين .. واشتراكي يدخل زمرة الكهربائيين. وشيوعي يضع نفسه في خدمة الانفتاحيين ..

والنفط هو العصا السحرية التي تحرك الجميع. وتغير المواقع، وتبدل الخنادق، وتجعل من الساحة السياسية على مستوى العالم العربي شيئا أشبه بساحة مولد سيدي عبد السميع.

وإذا كانت السياسة وشغل الثلاث ورقات في الثقافة قد ظفرت بنصيب الذئب من عائدات البترول فهناك أبواب أخرى ظفرت بنصيب الأسد. نوادي القمار التي انتشرت من لندن وحتى لاس فيجاس. وفي عام واحد هو عام 1979 وصلت أرباح نوادي القمار في لندن ثمانية مليارات جنيه إسترليني لاحظ أنها الأرباح فقط، أو بمعنى آخر .. أن هذا المبلغ هو الذي تبقى بعد مصاريف النوادي ومرتبات الموظفين والإيجارات والضرائب .. أي أن الدخل في نوادي لندن وصل على الأقل إلى ثلاثين مليار جنيه إسترليني. وهو مبلغ كفيل بحل كل مشاكل مصر .. من أول مشكلة المجاري إلى مشكلة الإسكان، وهو كفيل أيضا بأن يجعل من الصومال التي فتكت بها المجاعة بلدا أرقى من اليونان وأغنى من بلجيكا... وهو كفيل أيضا بأن يجعل من موريتانيا بلدا أجمل من النمسا وأصنع – أي أكثر صناعة – من تايوان!

فإذا علمنا أن مثل هذا المبلغ ضاع في كازينوهات أمريكا، ومثله تبدد على موائد كازينوهات فرنسا. ولن نقف طويلا عند المبالغ التي تبددت في كازينوهات إسبانيا وسويسرا ولبنان أي أن حوالي ستين ملياراً على الأقل ضاعت في القمار كل عام. أي ستمائة مليار في عشر سنين. وهو مبلغ كان كفيلا بتغيير العالم العربي إلى قوى كبرى ليصبح هو القوة العظمى الثالثة وكان من الممكن أن يكون للعرب أسطول أول في بحر العرب. وأسطول ثاني في البحر الأحمر وأسطول ثالث في البحر الأبيض. وأسطول رابع في البحر الأسود، وأسطول خامس في المحيط الهندي، أما الأسطول السادس العربي فبالطبع سيكون محله المختار في الخليج! وكان من الممكن أن يكون لدينا مفاعل نووي في فزان .. ومفاعل نووي آخر في نواكشوط، ومفاعل ثالث في رأس الخيمة! أما محطة إطلاق الصواريخ عابرة القارات فمكانها الطبيعي هو إمارة الشارقة. أما مركز أبحاث الفضاء فهو في أسوان، أما منصة إطلاق سفن الفضاء فهي في صنعاء. وكان من الممكن أيضا أن يكون لدينا ستة جيوش كبيرة جيش الشرق ويحمي الخليج والعراق. وجيش الجنوب ويحمي الصحراء الجنوبية والسودان وجيش الشمال ويحمي حوض البحر الأبيض المتوسط. والجيش النووي وهو مستعد لأي حرب في أي مكان وجيش سادس احتياطي لمواجهة كل الحالات.

ولو سرحنا في حكاية الممكن وما كان ينبغي أن يكون، فسنسرح في مزارع واسعة للاستهلاتك المحلي وللتصدير. وصناعات أشكال وألوان نغرق بها أسواق العالم. وصحف بكل اللغات موجهة إلى كل لسان على ظهر الأرض. وشركة طيران عربية (24) دولية تغطي الكرة الأرضية. ومائة شركة طيران داخلية تربط العرب بعضهم ببعض. وطرق برية من الدار البيضاء إلى الرياض ومن الخرطوم إلى بغداد. ومن الفيوم إلى الفالوجة..

ولكن ها هي الأيام مرت والأعوام كرت. وانفض مولد النفط وخرجنا نحن العرب من المولد بلا حمص.. وعدنا أو سنعود يا ربنا كما خلقتنا. لا نفطا أبقينا في بطن الأرض ولا فلوسا أبقينا في بطن البنك. وبالرغم من ذلك... رغم الوكسة والنكسة لا الكتب السميكة توقفت ولا مراكز الدارسات إياها أغلقت .. ولا شعراء برمهات اصابهم الوجل أو الخجل والنتيجة خسر العرب كل شيء إلا القصائد والمجلات والمؤتمرات ومراكز الدارسات وأحزاب الكهرباء.

ويا ميت ندامة على نفط العرب ضاع بين مزاج العرب الرجعيين ومذاهب العرب التقدميين، لم يستفد الشعب العربي منه شيئا. إنما الذي استفاد هو جماعة الأرزقية. زعماء أحزاب الكهرباء تجار السياسة وتجار الكلام وهؤلاء بالرغم من غناهم وبلهنية العيش التي يغرقون فيها حتى الآذان لا يزالون يتاجرون مع السياسة والمبادئ في الملابس القديمة والأحذية المستعملة ويسرحون بها في السوق مع .. الذمم الخربة والضمائر العفنة، ولا بأس من التجارة في كل شيء فقد بارك الله في التجارة والنجارة ويا شهر برمهات يا شهر المعجزات والبلح الأمهات وخد وهات والبطل اللي جاء ليس كالبطل اللي مات وآه يا برمهات يا شهر المعجزات والكهربات.

ألحان السماء

(26) الأستاذ الكبير محمد عبد الوهاب سميع قرآن ليس لـه مثيـل وأذنه كميزان الجواهرجي لا تخطئ الحساب عنـد وزن جـوهر الصـوت وتحفظ قيمته ولو كان واحدا على ألف في الجرام.

سـألت أسـتاذنا عبـد الوهـاب مناسـبة شـهر رمضـان المعظم عن المشـايخ مقـرئي القـرآن زمـان والفـرق بينهم وبين المشـايخ مقـرئي القرآن هذه الأيـام. وبالمناسـبة عبـد الوهـاب كـان صـديقا للشـيخ علي محمـود. وكـان محبـا للشـيخ مصـطفى إسـماعيل وهـو من المعجـبين بصوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد.

وفي رأي عبد الوهاب أن الشـيخ علي محمـود هـو أعظم من لحن التواشيح ووصل بها إلى ذرا مرتفعة وقمم شاهقة بالرغم من أنـه كـان يرتجل ألحانه حسـب حالتـه الصـحية والنفسـية واسـتعداد المسـتمعين. فمثلا سميعة حي الزمالك ليس لديهم الاستعداد كسـميعة حي المـدبح، وسميعة حي الحسين ليسوا كسميعة حي الروضة. ولذلك – هكذا يقول عبد الوهاب – كان الشيخ علي محمود يبدو عاديـا في الزمالـك ومحلقـا كالنسر في حي الحسين. ولم يستطع أحد من الذين أتـوا من بعـده أن يبلغ مرتبته أو يرتفـع إلى مسـتواه والشـيخ محمـد رفعت في رأي عبـد الوهاب ليس له نظير على مر الزمان. كان صوته صوتا ملائكيا سـماويا مشحونا بالتقوى وبالإيمان. أما مشـايخ هـذه الأيـام فهم جميعـا لا بـأس لهم، وإن كان ليس من بينهم العبقري الـذي يمكن أن يخلـد اسـمه بين العباقرة من المقرئين العظام.

سألت أسـتاذنا محمـد عبـد الوهـاب عن الطبلاوي بالتحديـد .. عن مكانة الطبلاوي بين المقرئين وعن رأي عبد الوهاب شخصيا في صوت الشيخ الطبلاوي. وقال عبد الوهاب: نبرات صـوت الطبلاوي لم أسـمع لها مثيلا من قبل، إنها نبرات نادرة وغريبة وتهـز النفـوس في الأعمـاق، وأنا استمعت إلى الشيخ الطبلاوي – هذا كلام عبـد الوهـاب – وشـعرت

بأنني أريد أن أصرخ أو أبكي أو أخرج من هـدومي وانطلـق هائمـا على وجهي في كـل اتجـاه فهـذه النـبرات العظيمـة أشـبه بكـنز من الـذهب الخام لا ينقصه إلا صائغ عبقري ليضعه الملوك فوق رؤوسهم.

(27) واتصلت تليفونيا – الكلام لعبد الوهاب أيضا – بمـنزل الشـيخ الطبلاوي ولسـوء الحـظ لم يكن الشـيخ الطبلاوي هنـاك فـتركت لهم اسمي ورقم تليفوني ورجـوتهم إذا عـاد أن يطلبـني في التليفـون بـأمر هام – كان ذلك منذ عام – الكلام لعبـد الوهـاب برضـه – ولكن يبـدو أن الشيخ الطبلاوي لشدة انشغاله وكثرة سفرياته لم يعد إلى المـنزل إلى الآن. انتهى كلام أستاذنا عبد الوهـاب .. ويبـدأ الآن كلام أخـوكم الفقـير إلى الله محمود السعدني.

فأنا يشهد الله من المعجبين بالشيخ الطبلاوي وأنا لم أشـهد بدايـة شـهرته في القـاهرة لأنـني كنت سـارحا في الخـارج كـالغراب النـوحي هاربا من بلد إلى بلد. وعندما استمعت إليـه في الإذاعـة المصـرية أول مرة وأنا في بغداد، بكيت فقد كان صوته أشبه بشلال من عصير أحزان الشعب المصري. وكنت أتسائل دائما لمـاذا لم يرتفـع الشـيخ الطبلاوي إلى الذورة الـتي كـان ينبعي أن يتبوأهـا؟ ولمـاذا لم يشـق طريقـه إلى المكانة التي يستحقها؟ لقد أجـاب الأسـتاذ عبـد الوهـاب على سـؤالي، اتصـل بالشـيخ الطبلاوي ليرشـده إلى الطريـق الصـحيح ولكن الشـيخ الطبلاوي لم يكلف نفسه عناء الاتصال بعبد الوهاب وأنـا لا أعـرف أحـد أكبر حجما على امتداد الوطن العربي من محمد عبـد الوهـاب، نعم هـو أكبر الفنانين حجما وأطولهم قامة وأكثرهم عطاء وأخلدهم على المدى القصير والطويل .. وهو بلا شك أخلـد من توفيـق الحكيم ومن الشـاعر مهدي الجواهري. وأثره أعمق من الروائي نجيب محفـوظ والسـبب أن هؤلاء الشعراء والكتاب والروائيين أثروا في جزء من الأمـة. هـو الجـزء الذي يعرف كيف يقرأ وكيف يكتب.

أما عبد الوهاب فقد وصل تأثره إلى الجميع، من أول ستي بهانة إلى خالتي أم عبد الحفيظ إلى جدي الشيخ خليل، الكل استمع إلى عبد الوهاب والكل تأثر به والجميع أحبوه، ولذلك لم تنتابني الدهشة عندما جلست أربع ساعات في خيمة أمير عربي مضروبة على مشارف الصحراء، ولم يكن معنا إلا مجموعة من البدو، وكان محور الحديث هو محمد عبد الوهاب. ولم أندهش أيضا حين سهرت ليلة بأكملها في قهوة بلدي بساحة المرجة بدمشق مع أديب سوري لامع هو أديب نحوي وعشرات من أبناء الشام الطيبين. وكان الحديث كله عن محمد عبد الوهاب، وحتى في جبال البرد وفي بدل **خنيفرة** في سفح جبال الأطلس سألني كل من التقيت بهم عن محمد عبد الوهاب، حتى في شمال العراق وفي قرية كردية اسمها **بامرني** كانت السهرة كلها حول عبد الوهاب.

ومن حسن حظي أنني تعرفت على عبد الوهاب في صدر شابي وكان كامل الشناوي هو قناتي إليه. وأذكر أنني كدت أجن في أول لقاء بمحمد عبد الوهاب. فقد وجدت نفسي فجأة أمام ولد مصري ابن بلد من أنباء باب الشعرية، ولا يزال رغم المجد والشهرة يتصرف كما كان يفعل أثناء إقامته في حارة سيدي الشعراني عليه رضوان الله، وأحببت محمد عبد الوهاب وأكبرته وتأكدت يومها من صحة المعادلة الفنية التي تقول أن العظمة هي البساطة والشموخ هو التواضع واكتشفت أيضا (28) أن عبد الوهاب لأنه فنان حقيقي فهو يحب فنه ويحب أيضا فن الآخرين. ومن أجل هذا اهتم عبد الوهاب بعد أن استمع إلى صوت الشيخ الطبلاوي فسارع بالاتصال به تليفونيا ولكن لسوء حظنا وحظ الشيخ الطبلاوي لم يكن الأخير موجودا بالبيت لحظة الاتصال. ولأن عبد الوهاب فنان طيب فقد ترك رقم تليفونه واسمه للشيخ الطبلاوي ولكن الشيخ الطبلاوي لم يعد للمنزل منذ عام، ويصبح حظنا سيئا فعلا لو ظل الشيخ الطبلاوي بعيدا عن بيته حتى نموت. وسألني عبد الوهاب:

تفتكر ليه ما تصلش بيه؟ وأجبته: لعله ظن أن لديك مأتما وتريده للقراءة هناك بالمجان! مسكين الشيخ الطبلاوي لم يستطع اغتنام الفرصة التي جاءت إليه وتركها تفلت من بين يديه، لو أنه كلف خاطره واتصل بمحمد عبد الوهاب، فربما كنا نعيش الآن عصر الطبلاوي ولكن يبدو أن الطبلاوي لفرط تواضعه ولعظيم ثقافته. آثر أن يعيش مثلنا في عصر محمد عبد الوهاب!

ولولا وجود الشيخ الطبلاوي في الوقت الحاضر، لقلنا أن دولة التلاوة صارت إلى زوال. فهو الوحيد من بين جميع المقرئين الذي لصوته سحنة خاصة وبصمة معروفة. فهو الموهوب الوحيد وغيره متشابهون. ولكن عيب الطبلاوي أنه عظيم الموهبة قليل الصنعة، كما أن صلته بالنغم محدودة، وهو لم يتعلم شيئا من فنون الألحان، ويبدو أن لن يتعلم لأنه لا يريد. ولعل هذا هو السبب في تراجع مستواه. ولكن هناك بين المقرئين من يتفوق في الصنعة رغم تواضعه مواهبه. من هؤلاء الشيخ السيسي والشيخ حصان – بتشديد الصاد – فهو فنان وإن كان صوته عاديا، والشيخ مصطفى غلوش والشيخ منصور والشيخ الصياد والشيخ عمران.

وهذا الكلام ليس من عندي، ولكنه أسطورة الأنغام والألحان في هذا القرن محمد عبد الوهاب، فهو سميع قرآن من الطراز الأول، ورأيه أن الموسيقى هي حرفة "الفقها" وأن سيد درويش وزكريا أحمد وعلي محمود ومحمد الفيومي وسلامة حجازي وأم كلثوم وعبد الوهاب نفسه أصلهم "فقها" جمع فقي. ويحذر عمنا الكبير محمد عبد الوهاب من خطر اندثار هذا الفن السماوي العظيم بسبب اختفاء المواهب، حتى أنه لم يعد في الساحة إلا صوت واحد، هو الآخر على وشك المغيب.

ويقول عبد الوهاب أن مهمة إذاعة القرآن الكريم هي البحث عن أصوات جديدة في ريف مصر وفي جمعيات المحافظة على القرآن

الكـريم، ويقـول عبـد الوهـاب أن هنـاك ظـاهرة خطـيرة وهي أن كـل الأصوات التي ظهرت في مصر خلال القرن العشرين سنة الأخيرة غير متميزة، والكل متشابهون حتى يمكن اعتبارها كلها صوت واحد. ومصـر كلها لديها في وقت مضى عشرة أصوات على الأقل متميزة لكـل منهـا لون فريد. من أول محمد رفعت إلى الشعشاعي إلى زاهـر إلى محمـد سلامة إلى علي محمود إلى مصـطفى إسـماعيل إلى سـليمان العـدني إلى السـنديوني إلى الشـامي (28) الـدمنهوري إلى الصـيفي إلى عبـد الباسط يرحمهم الله.

على أية حال، أعـود فـأقول أن دولـة التلاوة كغيرهـا، يوجـد هنـاك معجبون لكل لون، وفي حقل الغناء مثلا، سنجد من يعجب بـأم كلثـوم، وسنجد أيضا من يعجب بأم سحلول! وفي دنيا الشـعر سـتجد من يهـتز طربا بأشعار أحمد شوقي، وسـتجد من ينتشـي بقصـيدة أحمـد شـلبي. وفي الأدب .. هنــاك معجبــون بــأدب نجيب محفــوظ، كمــا أن هنــاك دراويش لأدب نجيب محروس!

وفي دنيا التلاوة، لا أظن أن هناك خلافا حول عبقرية صوت الشيخ محمـد رفعت، أو عظمـة صـوت الشـيخ مصـطفى إسـماعيل، أو حلاوة صوت الشـيخ عبـد الباسـط عبـد الصـمد. وكمـا أن الأصـوات مختلفـة، فالآذان أيضـا تختلـف. ذلـك لأن الحيـاة مختلفـة والاس والأذواق أيضـا. وفي الأرض قطع متجـاورات، صـنوان وغـير صـنوان، وأيضـا لأن الـدنيا حظوظ .. ومزاجات.

وضاعت فرصة العمر

(32) ويـــا ميت ندامـــة على اللي حب ولا طـــالش! على رأي المرحوم عمر الجيزاوي. وهو بالتأكيد "لا طالشي" لأنه أخطـا التـوقيت أو أخطأ التعبير، أو أخطأ الاثنين معا، ففاتته الفرصة ولا طالشي!

وفي الأسـبوع الماضـي شـعرت بـأنني في حجـة ماسـة إلى عمـر الجيزاوي ليعيد ترديد أغنيته المشهورة ولكن في موقـف آخـر لا علاقـة له بالحب، وإن كـانت النتيجـة واحـدة في الحـالتين .. لا طالشـي! لقـد فات العرب في الأيام الأخيرة فرصـة العمـر، على رأي محمـد لطيـف، عنـدما وقفـوا يتفرجـون على المعركـة الـتي دارت بين حسـني مبـارك والإدارة الأمريكية بعد إجبار الطائرة المدنية المصرية على الهبـوط في قاعدة حربية تابعة لحلف الأطلنطي. كان واضحا للعالم كله بأن غضـب حسني مبارك بلا حدود، وبدا واضحا أيضـا أنـه لم يكن يتوقـع مثـل هـذا الإجراء الصبياني من جانب أكبر دولـة على ظهـر الأرض، وضـاعف من غضبه أنه ربط بين وضع مصر الاقتصادي وبين تـرف أمريكـا العـدواني، واللامبـالي أيضـا. وفي هـذه اللحظـات بالـذات، لحظـة المواجهـة بين غضب مبارك لكرامة الشـعب المصـري واسـتهتار أمريكـا بكـل شـيء، حانت فرصة العمر أمام العرب ليثبتوا جميعا أنهم بالفعـل عـرب، وأنهم جميعـا مسـتهدفين، الأثريـاء منهم والفقـراء، الأقويـاء منهم والضـعفاء، المتطرفون منهم والمؤمنون الذين يمشون على الصراط.

ولا أدري لمـاذا تصـورت لحظـة رأيت مبـارك يغلي بالغضـب على شاشات التليفزيون بأن العرب سينتهزون فرصة العمر وسيبادرون إلى أداء واجبهم كما ينبغي للعرب أن يؤدوه؟ لا أدري لماذا تصورت؟ وربمـا تصـورت مـا تصـورته بسـبب جهلي أو غبـائي أو سـذاجتي أو للأسـباب

الثلاثة. أقول تصورت أن العرب سينتهزون فرصة العمر، وسيجتمع العرب كما اجتمعوا في مؤتمر بغداد وسيدفعون ثمن القمح الذي تستهلكه مصر لمدة عام، وسيفتحون لمصر اعتمادا سائلا في البنك بنصف مليار دولار، تتصرف فيه مصر حسب احتياجاتها وتبعا لظروفها والحسبة كلها لا تتعدى المليار دولار. ينفق أضعاف أضعفاها العرب الأثرياء في نوادي لندن، وينفقون أضعاف أضعفاها العرب النص النص في (33) حمامات كوريا وتايلاند وبلاد تركب الأفيال وآه لو اغتنم العرب الفرصة، آه لو فعل العرب هذا الذي تصورته، إذن لسندوا ظهر حسني مبارك وصلبوا قامة الشعب المصري.

وربما كانت هذه اللحظة هي بداية الطريق لعودة مصر للعرب وعودة العرب لمصر. ولكن الغريب أن الجميع عمل طناش! والكل اكتفى بكلمات الشجب كلهم بلا استثناء العرب أصحاب العقائد والعرب أصحاب المزاج! لم يخرج عن القاعدة إلا الجماهيرية العربية الوحدوية المهلبية فلم تدفع ولم تشجب، وربما شجبت مصر ومنظمة التحرير وأنباء عدنان أجمعين! والعبد لله والحمد لله مؤمن بالعروبة وبالعرب، ويعتقد أنه لا خلاص لنا إلا بوطن عربي واحد، أو بولايات عربية متحدة، أو على الأقل بتنسيق بين كل الأقطار في المسائل الاقتصادية والعسكرية فإذا لم نستطع فبتكامل أو بتكافل أو بتعاون أو بتضامن، إلى آخر هذه المسميات، فإذا لم تستطع بنا الشهامة أو النخوة إلى آخر هذه الصفات التي وردت في ديوان الحماسة وربما عن طريق الخطأ، وهذا أضعف الإيمان!

والعبد لله والحمد لله مع العرب بالقول وبالفعل وبالإشارة وبالقلم. والعبد لله والحمد لله لحظة الخلاف بين نظام السادات والعرب، اخترت جانب العرب. وكنت ولا زلت وسأظل مؤمنا بأن مصر

بالعرب تختلف كثيرا عن مصر بلا عرب، كما أن العرب بمصر يختلفون كثيرا عن العرب بلا مصر.

والعبد لله يؤمن أيضا بأن خطة الأعداء جميعا تتلخص في مواجهة مصر بدون عرب ومواجهة العرب بدون مصر. فما بالك إذا كانت الأمور انتهت إلى شيء لم يخطر على بال العدو ولم يفكر فيه أيضا لقد اكتشفت فجأة أنه يواجه مصر بلا عرب، ويواجه العرب بلا مصر. فقد تحول العرب إلى ألف عرب .. عرب النفط وعرب الماء وعرب تقدميون وعرب رجعيين .. عرب بكتب وعرب بنظريات وعرب أجياع وعرب بأحزاب وعرب بجماهير وعرب مع الأمريكان وعرب مع الفرس وعرب مع الروس وعرب ميليشيات وعرب يطلبون الستر!

وأعتقد أيضا أنني وقد ربطت مصيري بالعرب فلا بأس من توجيه العتاب للعرب، لأن فرصة العمر قد ضاعت من أيديهم عندما احتدم الخلاف بين حسني مبارك والإدارة الأمريكية، واعتمدت الإدارة الأمريكية في حساباتها على أن المحتاج لا يستطيع الاحتجاج وإذا احتج الصوت وإذا استطاع أن يصرخ فلن يتعدى حدود الصراخ ويبدو ان أمريكا تعلم عنا أكثر مما نعلم لأنني بجهلي أو لغبائي أو لسذاجتي أتصور أن العرب سيهرعون لمساعدة مصر، وسيسارعون لدعم مصر. إذا لم يكن من باب المصلحة الشخصية، فمن باب العروبة باعتبارنا جميعا من صلب عدنان، فإذا لم يكن من باب العروبة فمن باب الإسلام، باعتبار أن الرسول صلوات الله عليه أوصى على سابع جار! ومصر ليست هي الجار السابع، ولكنها جزء من الجسد العربي، وهي بالتحديد وبالتأكيد في موقع القلب. ولعلني لا أبالغ إذا قلت أن سبب كل المتاعب والمصائب التي حطت على رأس الأمة العربية سببها الحقيقي أن القلب يشعر بالإرهاق لأنه يثبت بالدليل القاطع وعلى مر التاريخ أن العرب في خير طالما أن مصر العربية في خير، وأن (34)

العــرب في انحســار طالمــا أن مصــر العربيــة تعــاني من المشــاكل والمصاعب وسوء الحال.

على أن مصر بكل صراحة وبدون تواضع هي الأخ الأكبر الذي قطع تعليمه واشتغل موظفا في أرشـيف وزارة الأوقـاف لكي يـرعى إخوتـه الصغار واكتفى ببدلة واحدة ووجبة واحدة وغرفة واحـدة، وظـل يـرعى إخوته حتى أكملوا تعليمهم وحصـلوا على شـهاداتهم ووصـلوا إلى أعلى المناصــب والــدرجات ثم حــدث بعــد هــذا العمــر الطويــل من الصــبر والتضـحيات أن جـاء الـدائن فخطـف طربـوش الأخ الأكـبر أمـام الأهـل والجيران، فهل يليق بالإخوة الذي فتح الله عليهم أن يلزموا الصمت!

أو يكتفوا ببرقيات الشجب والاحتجـاج صـدقوني أنـا في حـيرة من أمــري أكــاد ألطم خــدودي ببرطوشــة قديمــة من هــول مــا حــدث في الأســابيع القليلــة الماضــية. وحــيرتي ليس ســببها الموقــف الأمــريكي فأمريكا دولة قوية ومفترية وهي تعامل الآخرين باعتبارهم عســاكر في حرس السـلطان وهي ليسـت فريـدة في تصـرفاتها ولكن هكـذا كـانت الدول القوية المفترية على مر الزمان.

فليس في السياسة الدولية علاقات صداقة ومحبــة ولكن مصــلحة الدولة الأقوى أولا وثانيا وأخيرا، حـتى ولـو كـان الثمن عشـرات الـدول الصغيرة وملايين النـاس الطيـبين، ولكن حـيرتي وهمي وغمي وبؤسـي الشديد كـان موقـف الإخـوة العـرب جميعـا، أثريـاء وفقـراء متطـرفين وحكماء أصحاب نظريات وأصحاب مزاج! ولا أدري لمـاذا تـذكرت قـول الشاعر القديم ولعله عمنا الكبير المتنبي الذي قال:

وظلم ذوي القربى أشد على النفس من ضرب الحسام المهند

*(**الصحيح**: وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند)*

ولعل عمنا المتنبي قال هذا البيت لتصوير حالة مشابهة، ربما ذات يوم من تلك الأيام خطف الروم قافلة جمال لسيف الدولة ولم تسرع كتائب العرب النشامى لنجدة سيف الدولة! ربما كان هذا سبب حزن المتنبي. كما أنه سبب حزن العبد لله الذي من حقه الآن أن يحمل لقب **المتغبي** من الغباء والعياذ بالله!

ولا أعتقد أن هناك أكثر غباء مني حين تصورت أن العرب النشامى سيقومون بهجوم عزوم على البنك المركزي الدولي ليودعوا باسم مصر نصف مليار دولار ثمن قمح لمدة عام، ونصف مليار دولار مصروف يد لحكومة مصر لمدة عامين لكي يسندوا ظهر أخيهم مبارك ويشدوا من قامة شقيقتهم الكبرى مصر. وربما لو حدث هذا ما كنا في حاجة إلى لجان لتنقية الأجواء العربية. ولربما وجدت مصر نفسها خارج كامب ديفيد وخراج كامب ريجان ولن واأسفاه على أمة عدنان، اكتفت ببرقيات الشجب ومقالات الاستنكار!!

وضاعت فرصة العمر من أيدينا .. يا والده!!

مسألة فيها نظر!

(36) لم يظهر على وجه الأرض منذ دولة الملك "حنكوش" أقوى ولا أعظم ولا أغنى ولا أعتى من دولة الولايات المتحدة الأمريكية! ولم يحدث في تاريخ البشرية أن اجتمع لرجل واحد – وهو الرئيس الأمريكي – كل هذا الثراء القومي، والبأس الوطني، والمقام السامي على مستوى الكون! ولذلك فخطوات الولايات المتحدة لا بد وأن تكون محسوبة، وكلمات الرئيس الأمريكي ولا بد أن تكون موزونة! وهي

حكمة إلهية، لأن أي خطأ ترتكبه حكومة كوستاريكا، سيكون وبالا على كوستاريكا نفسها. أما الخطأ الأمريكي فيا داهية دقي على الدنيا وما فيها! وإذا كان الرئيس الأمريكي في عرف البروتوكول أنه شأن الرئيس الكوستاريكي، فكلاهما يلقب بصاحب الفخامة وكلاهما تفرش له السجاجيد الحمر، وكلاهما تعزف له موسيقات الجيش أناشيد الترحيب! ولن بعيدا عن البروتوكول وقيوده، فالرئيس الأمريكي يختلف تماما الاختلاف عن أي رئيس على ظهر الأرض. فهو رئيس أكبر دولة، ورئيس أقوى قوة وتحت يده مفاتيح السلام والحرب! وكلام الرئيس الأمريكي هو رئيس الكلام، وفرحه هو فرح الكل. وغضبه ينبغي أن يحسب له الجميع كل حساب!

ولولا رحمة الله، وانتشار المدنية والحضارة وبشائر القرن الواحد والعشرين، لكانت حدود دولة أمريكا تمتد من كاليفورنيا إلى كالدونيا، ومن نيفادا إلى كوم حمادة! لأنه إذا كانت دولة في حجم الكف مثل بريطانيا، استطاعت أن تحكم كل العالم، فما بالك بالولايات المتحدة، وبريطانيا بالنسبة لها، كما فريق مدعشقر بالنسبة لفريق البرازيل!

ولكن وبرغم انتشار الحضارة، وازدياد الوعي، ونسائم القرن الواحد والعشرين، فإن الرئيس الأمريكي يبقى له وضع خاص. فهو إذا تكلم .. فالكلام بميزان الذهب، وإذا تحرك .. فخطوته بحساب الكمبيوتر. وإذا ابتسم فهو خير للبشر وإذا ضحك فعلى الأرض السلام، وإذا ابتهج فبالناس المسرة! أما إذا حدث والعياذ بالله وغضب .. فيا داهية دقي، وإذا هدد فهو نهار أسود من الكحل، وإذا أرعد فيا خراب بيت كل دابة على هذه الأرض! ولذلك .. استمعت إلى خطابه الأخير الخطير بشغف عظيم وباهتمام أعظم. وسرني أن الرئيس الأمريكي رغم ضخامة مسئولياته، وعظيم مشغولياته، وبرغم المنصب (37) الخطير والوضع الحساس .. إلا أنه كان صريحا إلى أقصى حد ومباشرا

بشكل حـاد ومفتوحـا على نحـو واضـح .. وعلى بلاطـة. وسـمى الـدول الإرهابية التي تعشـش على ظهـر المعمـورة، ولأنـه رئيس أقـوى دولـة عرفها البشر، فقـد اختـار من – بـاب العـدل – دولـة في كـل قـارة من قـارات الـدول الغلبانـة. فاختـار إيـران من آسـيا، وليبيـا من أفريقيـا، ونيكاراجوا من أمريكا السمراء!

ولم يخف الرئيس الأمريكي شيئا، ولم يجامل أحـدا، وكيـف لـه أن يجامـل؟ وهـو الـرئيس الأقـوى والأكـبر والأعظم على ظهـر الأرض!! والحق أقول أنني مع الرئيس الأمريكي فيمـا ذهب إليـه. ومن حقـه أن يغضب وأن يثـور وأن يحتج! ومن حقـه أيضـا أن يهـاجم أوكـار الإرهـاب بالكلام، ولا بأس من الهجوم عليها بطوابير الدبابات وأسراب الطيارات وجحافل جنود المظلات. العيب الوحيـد في خطـاب الـرئيس الأمـريكي هـو اهتمامـه الشـديد بالإرهـاب البسـيط وتجاهلـه للإرهـاب المـركب وسقوط أسماء بعض الدول – سهوا – من خطابه التاريخي العظيم.

وهذا الخطأ يمكن تداركه إذا أعاد الرئيس الأمريكي قراءة خطابــه مـرة أخـرى على مهـل فسـيجد حتمـا أسـماء فـات عليـه ذكرهـا في الخطاب. أما إذا كان الخطاب لم يتعرض أصـلا لهـذه الـدول الإرهابيـة، فهي كارثة عظمى، ويكون الرئيس الأمـريكي في معـزل عن الحقـائق، وبعيدا عن متناول المعلومات وتكون الأجهزة الأمريكية متـآمرة وتـدس على الرئيس الأمريكي معلومات خاطئة، وتقـارير مكذوبـة، ومن شـأن خطأ مثل هذا تدمير كوكب الأرض، وإبادة كل أثر للحياة، وباعتباري من أنصـار الـرئيس الأمـريكي، ومعجب بـالنموذج الأمـريكي وحـريص على الحضور الأمـريكي لـذلك ... أقـول للـرئيس الأمـريكي حسـنا فعلت يـا سـيدي الـرئيس، فـإن خطـف طـائرة عمـل إرهـابي يسـتحق العقـاب، وتعـذيب الرهـائن عمــل رديء ودنيء يسـتحق مرتكبـه التعليــق على شجرة! ولكن ما رأيك – يا سيدي الـرئيس الأمـريكي – دام فضـلك في

حادث خطف وطن؟ وما رأيك في تعذيب شعب؟ وما هو عقاب من يرسل جيشه لغزو أراضي دولة لم تعلن الحرب؟ ولست لا سمح الله ضد توقيع العقاب على من يهدد الناس بمسدس، وتكريم من يهدد الناس بأساطيل سارحة، وجيوش قارصة، وقنابل نووية ماسحة، فهو إجراء لن يحقق أي عدل، ولن ينشر أي سلام. لأن تكريم إسرائيل بعد غزو لبنان، سيجعل لبنان يفكر في حماية نفسه بطريقته الخاصة. وخطف هضبة الجولان، سيجعل خطف طائرة يبدو .. كأضعف الإيمان! وتعذيب شعب فلسطين كله يهون إلى جانبه تعذيب مائة رهينة من ركاب الطائرات. واحتلال سفارة عمل هين إلى جانب احتلال أراضي الغير!

إنني يا سيدي الرئيس الأمريكي أتوسل إليك أن تحقق العدل بين الجميع، وأن تقف في وجه كل الإرهابيين وهناك دولة في آسيا تتحدى العالم كله وتتحدى الأمم المتحدة وتتحدى الولايات المتحدة نفسها، ومع ذلك لم تذكرها في خطابك التاريخي الهام يا سيدي الرئيس. وأنا أخشى أن تكون الأجهزة قد أخفت عنك (39) الحقيقة وأخاف أن تكون هذه الأجهزة على علاقة بدولة الإرهاب .. إسرائيل! وزيادة في المعلومات يا سيدي الرئيس، أقول لك أن هذه الدولة خطفت وطنا هو فلسطين وخطفت شعبا هو شعب فلسطين ولم تقنع بذلك. ولكنها خطفت هضبة الجولان من سوريا، وخطفت الجنوب من لبنان، وخطفت طابا من مصر، وخطفت ألوف من شعب لبنان، وسجنتهم في سجن **عتليت** وضربت المفاعل العراقي مع أنه للأغراض السلمية وقتلت كل عالم غربي اتصل بالعرب. ومع ذلك لم يغضب رئيس أمريكي واحد، ولم يحتج رسمي أمريكي واحد، وحتى خطابك التاريخي الأخير، سيدي الرئيس .. خلا من أي إشارة إلى دولة الإرهاب الكبرى .. إسرائيل!

وفي أفريقـا دولـة إرهابيـة أخـرى على نفس المسـتوى وبنفس القدر، وهي دولة جنوب أفريقيا. وهي ستخطف وطنا بشـعبه، وتحتفـظ بالجميع رهائن على مشهد من العالم كله وبدون حيـاء ولا خـوف! وهي تعربد ضد جيرانها، وتدمر كل ما حولها، وتغزو أراضي غيرها. ومـع ذلـك تمضي أعمالها الإرهابية بدون حساب أو عقاب.

ولقد توقعت يا سيدي الـرئيس أن أقـرأ اسـمها في كشـف الـدول الإرهابية، ولكني صدمت لأن الكشف خلا منها ومن دول غيرهـا. ولـذلك أخشى يا سيدي الرئيس أن يمر خطابك ولا يترك أثرا وأخاف أن تشـتد موجـة الإرهـاب إذا ثبت للبعض أن بعض الإرهـاب يمـر من وراء ظهـر الرئيس الأمريكي أو إذ تصور البعض أن هناك إرهابا مرفوضا، وإرهابا لا بأس عليه!

لقد كان موقفك الأخير يا سيدي الـرئيس فرصـة لكي نتخلص من الإرهاب كلـه مـرة واحـدة، وأخشـى إذا مـرت هـذه الفرصـة أن نغـرق جميعا في بحر الإرهاب! تعال يا سيدي الرئيس وسنمشي خلفك جميعا لندمر أوكار الإرهاب في كل مكـان. ولنبـدأ بـالأهم فـالمهم تعـال نـدمر أوكار الإرهاب في إسرائيل، وقواعد الإرهاب في جنوب أفريقيـا. وعنـد سنمشي خلفك لتدمير ما شئت في ليبيا وفي إيران.

أما الاحتجـاج على خطـف طـائرة والغضـب من تعـذيب رهـائن ثم السـكوت على خطـوف وطن وغض الطـرق عن تعـذيب شـعب، فهي مسألة مريبة واخشى أن تكـون سـببا في ازديـاد نـار الإرهـاب في كـل مكان. وهو أيضا موقف لا يليق بالرئيس الأمريكي، ويجعله في مستوى الرئيس الكوستاريكي تفرش له السجاديد الحمر، وتعزف له موسيقات الجيش أناشيد الترحيب!

وعفوا سيدي الرئيس الأمريكي إذا سولت لي نفسـي أن أخاطبـك مباشرة بهذه الكلمات وعرى أنني مواطن يؤمن بالعالم الحـر، وأعتقـد

حتى هذه اللحظة أنه عالم حر، لأن رئيس أكبر دولة فيه يسعى لتحقيق حرية الجميع. أما إذا كان للكلمة تفسير آخر، وأن تكون الأمور سائرة عن طريق الشاعر إياه الذي قال "قتل امرئ في غابة مسألة لا تغتفر، وقتل شعب كامل مسألة فيها نظر" إذا كانت المسائل تجري على هذا النحو، فقل على الأرض الدمار، وبالناس الحسرة، وعلى الجميع العفاء!..

الله عليك يا عمتي!

(42) عودة العبد لله إلى مصر المحروسة، بعد زيارة استغرقت ثلاثة أسابيع للعاصمة البريطانية لندن، قضيت أغلبها أمام جهاز التليفزيون، منذ عودة أخيكم العبد الفقير لله، وأنا حزين حزن غرائب الإبل، تعيس تعاسة الكسعي بعد أن تهور ورمى يمين الطلاق على زوجته نوار، هفتان كعيان من كفر شنشور خارج من مستشفى قصر العيني ومحتاج إلى فرخة تسند قلبه، أو هبرة لحمة تصلب عوده وتقيم ظهره! والسبب وراء هذه التعاسة وهذا الحزن والهفتان هو جهاز التليفزيون البريطاني اللعين، الذي أصابني بعقدة، ربما لا أستطيع ولا أمل في الشفاء منها على الإطلاق، فهذا التليفزيون البريطاني الجثة لم يستفد شيئا على الإطلاق من فلسقة، أو فلسفة الأخ العبقري صفوت الشريف، وهي خيبة طبعا بالعربية أن يعيش التليفزيون البريطاني في عصر صفوت الشريف ولا يتتلمذ عليه، ولا يتأثر بتعاليمه،

ولا يسـير على دربـه، وهـو درب طويـل أطـول من طـابور الجمعيـة، وعريض أعرض من السمك البلطي!

فمثلا .. بالرغم من جلوسي أمـام التليفزيـون البريطـاني كـل هـذا الوقت، لم أشاهد أي مسلسلة للمؤلف ثروت أباظـة، كمـا أن مباريـات الكـورة لا تـذاع مـع صـوت المعلـق عفت بتـاع يـا سـالام! والأكـادة أن البرامج الثقافية لا وجود فيها للست سميحة غـالب الـتي تصـر في كـل برنـامج، حـتى ولـو كـان عن جـوائز نوبـل في الأدب، على أن الشـعر العـامودي هـو الاسـتئثار الأكـبر من أجـل الشـعور بـالخطر في سـبيل الشنكحور عبده!!

والمصـيبة الأكـبر أن المتحـدثين في تليفزيـون لنـدن، وفي بـرامج الثقافــة بالــذات يتكلمــون على حــريتهم ويتناقشــون دون تــدخل من المـذيع، بينمـا المتكلم في برنـامج السـت سـميحة نهـار أبـوه أزرق لـو حاول فتح بقه، وواقعته سودة لو شرع في أي كلام. فـالكلام للمـذيع أو للمذيعة في تليفزيون القاهرة، أما الضيوف فهم مجرد ديكور لكي تأخذ المذيعة حظها في الكلام والانسجام، ولكن كـل هـذا كـوم ومـا لمسـته بنفسـي كـوم آخـر. تصـوروا .. القنـاة الأولى في تليفزيـون لنـدن قنـاة حكومية .. ولكن سوء التخطيط في قناة لنـدن الحكوميـة جعـل القنـاة سداح مداح، فأخبار الحكومة البريطانية تذاع في نهاية النشرة، وأحيانـا تنتهي النشرة ولا حس ولا خبر عن السيدة تاتشر، ورئيس حــزب (43) العمال المعارض يظهر كثيرا على هـذه القنـاة بالـذات، ويبـدو أن هـذه القناة بالذات يعمل فيهـا عـدد من أعضـاء الطـابور الخـامس، والـدليل على ذلك أنني لم أشاهد مرة واحدة السيد وزير العدل البريطاني وهــو يفتتح محكمة واتفورد الابتدائيـة، كمـا أنـني لم أشـاهد سـعادة محافـظ ليفربول وهو يوزع شهادات التقدير لمستأجري المساكن الشعبية، كمــا

أحلام العبد لله

محمود السعدني

تجاهـل التليفزيـون البريطـاني تمامـا جـولات الـدكتور وزيـر الزراعـة البريطاني، وهو يتفقد الصوبات الجديدة لإنتاج الفجل الورور!!

وليت الأمر توقف عند هذا الحـد ولكن تصـوروا، حـدث أن طـارت مدام تاتشر رئيسة الوزراء إلى أمريكا للاجتماع بـالرئيس ريجـان، ومـع أن اجتماع القمة تم في ظروف خطـيرة، إلا أن التليفزيـون البريطـاني التزم الصمت، وتصورت أن السـبب ربمـا يكـون تعليمـات صـدرت من السـيد وزيـر الإعلام البريطـاني باعتبـار أن اللقـاء بين العملاقين من أسـرار الدولـة، ولكـني اكتشـفت أن خيبـتي ليسـت على حـد، أولا لأن الخبر أذيع في ذيل نشرة المساء، وصورة الرئيسين في أثنـاء الاجتمـاع ظهـرت لعـدة ثـواني فقـط لا غـير، ثم اكتشـفت أيضـا – لخيبـتي – أن بريطانيا بجلالة قدرها ليس فيها وزير إعلام، وهو دليل جديـد على تـأخر هذه الدولة التي كـانت تحكم أغلب منـاطق العـالم حـتى عهـد قـريب! ولعل هذا السبب – غياب وزير الإعلام – هو الذي جعـل من التليفزيـون البريطاني شيئا أشبه بسوق الثلاثاء، فالجهاز يسـتقبل الجميـع، حكومـة ومعارضــين ونــاس على الحيــاد، وتشــتم المعارضــة الحكومــة ولكن الإرسال لا ينقطع والسبب أن الحكومة تـرى أن التليفزيـون هـو مكـان للهوهوة، أما ميدان النزال الحقيقي فهو صـناديق الانتخـاب، ومـا دامت الحكومة تهـزم المعارضـة في صـناديق الانتخـاب فلا بـأس ولا غبـار إذا هوهـوت المعارضـة في جهـاز التليفزيـون، وجلسـات مجلس العمـوم البريطاني ممنوع تصـويرها تليفزيونيـا، ولـذلك يكتفـون بإذاعـة فقـرات بأصوات بعض المتحدثين، آخر مرة أذاعـوا فقـرات من خطـاب رئيسـة الــوزراء بينمــا نــواب المعارضــة يغلوشــون عليهــا على طريــق طلاب المــدارس ومــع ذلــك لم يحتج أحــد ولم يغضــب أحــد ويبــدو أن هــذه الإمبراطورية المتهالكة لا تعرف العيب وليس لديها أخلاق قرية!

وثالثة الأثافي في تليفزيون لندن، أن لديهم قانونا يمنع أي عضو في هيئة الإشراف على الإذاعة، أو التليفزيون من التأليف لهذه الأجهزة طالما أنه عضو في هذه الهيئة حتى ولو كان العضو هو برنارد شو شخصيا، بينما عندنا، ولأننا نحترم الكفاءات، ونقدر المواهب، ما إن يصبح الواحد من دول عضوا في المجلس الأعلى أو المجلس الأوطى، إلا وهات يا تأليف مسلسلات أو سهرات، أو على الأقل أغنيات، ومن أقدر على التاليف من عضو المجلس الأعلى؟ وأحسن ما يؤلف واحد غريب، اللي نعرفه أحسن من اللي ما نعرفوش!! وتصوروا، بلغت بهم الهيافة في تليفزيون لندن، أنه إذا حدثت حادثة في أي بلد في العالم فالتليفزيون مقطوع لهذه الأحداث حتى يغطيه تماما، ويسمون هذا العمل "خدمة للمشاهد" وهم يذيعون على الهواء ومن موقع الأحداث وعلمت أن الخيبة في بريطانيا بلغت حدا كبيرا إلى (44) درجة أنه ليس لديهم وكالة أنباء رسمية، والمذيع لا يستأذن أحدا قبل إذاعة أي خبر، ما دامت وكالات الأنباء بعثت به إلى التليفزيون، وأحيانا يذيع التليفزيون أخبارا تلقاها المذيع بالتليفون أثناء قراءة النشرة، كما أنهم من خيبتهم يرسلون مندوبين عنهم فيالعواصم الكبرى من واشنطن وإلى دلهي، ويتولى هؤلاء المندوبون إذاعة الأخبار بأنفسهم، ومن هؤلاء المندوبين يختارون مذيعي المستقبل! واقول لكم الحق، لقد صدمني تليفزيون لندن بجهله وتأخره ولذلك انحنيت احتراما لتليفزيون القاهرة، خصوصا عندما جلست أشاهد برامجه في أول لحظة عدت فيها إلى أرض الوطن والحمد لله لأنهم كانوا يبشرون الناس بالمسلسلات الجديدة التي ستذاع عليهم، مستقبلا وكذلك أفلام التليفزيون التي أنتجوها من أجلهم، وعلى الأخص مسلسلة "المرأة اللي كلت دراع جوزها" وفيلم "اللحمة اللي اتكلت في الحلة". ولم ينس التليفزيون المصري أن يذكر أسماء كبار الكتاب الذين تعاقد منهم أمثال أحمد أبو شفطورة وسيد أبو دراع!

حبذا لو سافر الأخ العبقري صفوت الشريف فترة من الـوقت إلى لندن لتعليم الإنجليز الجهلة فن التلفاز، وكيف يكون، وليتـه يسـتمر في رحلته لتعليم بقية خلـق اللـه في أنحـاء الكـرة الأرضـية، وعلى العمـوم تحية له من القلب، وأغنيـة لـه من بتـوع وديـع الصـافي "واللـه يرضـى عليك يا عمي"!!

وهذا أضعف الإيمان!

(46) مـبروك على اتحـاد الكـرة انتهـاء موسـم الـدوري الممتـاز، ومسـابقة كـأس مصـر، ودورة شـطانوف المحطـة، وأولمبيـاد منـوف العسل! مبروك على اتحاد الكورة فقد أدى واجبه، وقطع قلوب الكباتن العظـام، وقسـم ظهـور المتفـرجين والمشـجعين، ولكن الغايـة تـبرر الوسيلة، ومن أجل تحقيق الأهداف العظيمة يدفع الإنسان قلبـه أحيانـا، ويدفع حياته أيضا إذا لزم الأمر!

وغاية الكورة في مصر هي الحصـول على النقطـة، وفـوز الأهلي على منتخب شبرا البلد! وانتصار الزمالك على اتحـاد مشـتول السـوق! أما الاشتراك في كأس العالم أو الحصول على مركز متقدم في الدورة الأولمبية، فهذه كلهـا تطلعـات برجوازيـة كرويـة، وانحرافـات فوتبوليـة، وخيانة للبروليتارية الشوارعية الحوارجية ماركة الكورة الشراب!

مبروك على اتحاد الكورة انتهاء جميع المواسم التي يشرف عليها، ومبروك لفريق الترسانة فوزه بكأس مصر، فهو بـالرغم من البوتيكـات والخلافات والحاجـات والمحتاجـات إلا أنـه لا يـزال نـادي عمـال مصـر. مبروك على الترسانة ولو أنني كنت أتمنى لو فاز نـادي المحلـة بكـأس

مصر، فهو نادي الفلاحين والعمال والناس اللي تحت، كما أنه مصنع كورة عالي الجودة ومتعهد توريد كباتن طويلة التيلة لمنتخب مصر، وهو أيضا نادي شرقي غريب الذي كان مفتاح الفوز بكأس أفريقيا حين ركن بمعلمة كرة حلوة في مرمى فريق ساحل العاج بعد خمس دقائق فقط من نزوله أرض الملعب، وكان هذا أول استفتاح في مشوار البطولة الذي انتهى بالنصر.

ولكن .. هكذا شاءت الأقدار وفاز نادي الترسانة بالكأس، ولا يعيب هذا الفوز إلا أن الكأس بقيت في العاصمة وهي محل الإقامة المختارة للكأس، إلا إذا حدثت كارثة أو حادثة أو صادفها سوء حظ .. وفي كل بلد في أنحاء العالم يلعب الناس كرة القدم وتناقسون على الكأس لا تستقر في مكان. في إنجلترا مثلا، الكاس مرة في لندن، ومرة في ليفربول، ومرة في بريستول، ومرة في مانشستر، ومرة في ليدز.

(47) وفي أسبانيا مثلا الكأس مرة في مدريد، ومرة في لشبونة، ومرة في توليدو، ومرة في الأندلس. وفي فرنسا مثلا، باريس لم تنل شرف الفوز بالكأس إلا في موسم العام الماضي، بعد غياب ربع قرن، غابت فيها الكأس فلم تدخل باريس خلالها مرة واحدة ولو في زيارة عابرة.

ولكن في مصر الأمور تختلف، الكأس للأهلي ثم للأهلي ثم للأهلي، وأحيانا للزمالك، فإذا لم يستطع الأهلي، وإذا فشل الزمالك فهو للترسانة، وهو من نوادي القاهرة. أما نوادي الأقاليم فهي للمشاركة فقط، وللفرجة فقط، وهي في النهاية كمالة عدد ليستقيم الحال فيصبح لدينا دوري عام، يتنافس فيه للحصول على الكأس الأهلي والزمالك فقط، فإذا اختلت قواعد اللعبة بسبب حادثة أو كارثة فلتذهب الكأس إلى الترسانة أو إلى القاهرة في واقع الأمر. وفي كل أنحاء العالم الفرصة متاحة أمام كل الأندية للحصول على الكأس،

والكورة مشاع بين الجميع، ولا فضل لكروي على كروي إلا بالموهبة والاستعداد والتدريب.

ولكن عاصمة مصر المحروسة هي أغرب عاصمة على وجه الأرض، كل شيء في القاهرة وكل شيء للقاهرة، إذا أردت أن تكون كاتبا مرموقا فاذهب إلى القاهرة، إذا كنت تحلم بأن تصبح نجما مشهورا فأسرع إلى القاهرة، إذا أردت أن تأكل في مطعم ممتاز عليك بالقاهرة، إذا كان في نيتك أن تسهر سهرة حمراء مسخسخة أو خضراء فسدقي فاهرع إلى القاهرة، إذا كنت تريد أن تنزل في فندق أو تركب قطارا أو تطير إلى الخارج، إذا كنت تريد أن تعمل أو تلعب أو تنشل أو تسرق أو تهبر.. فيمم وجهك شطر القاهرة .. حتى الكورة في القاهرة، عائدها في القاهرة ونتائجها للقاهرة وجوائزها في القاهرة وستبقى من نصيب القاهرة، وحتى منتخب مصر هو منتخب القاهرة! في بطولة أفريقيا الأخيرة اشترك في الفريق القومي لاعب واحد من الإسكندرية ولاعب واحد من المنيا وجميع اللاعبين كانوا من القاهرة .. ولم يفتح باب الفوز إلا شوقي غريب لاعب المحلة الذي اشترك بالصدفة في الشوط الثاني وفي المباراة الثانية، وبعد أن انتهت المباراة الأولى بالهزيمة، ثم جلس شوقي غريب بعد ذلك على الخط يتفرج على منتخب القاهرة القومي وهو يصارع منتخبات أفريقيا القومية المفترية، التي انتصرنا عليها بفضل الجماهير وببركة دعاء الوالدين!

ولذلك ..

ولأننا نلعب بمنتخب القاهرة ليس بمنتخب مصر، فلن نتمكن من تحقيق أي فوز على المستوى الدولي لأنه ليس معقولا ولا مقبولا أن تتولى الأقلية تمثيل بلد من البلاد، ثم تقف الأغلبية موقف المتفرج دون أن يكون لها حق المشاركة ولو بالرأي! إنها عملية مستحيلة بالطبع

ولكنها حدثت هنا في مصر وفي مجال كـرة القـدم. تصـوروا .. الصـعيد كلـه وسـيناء كلها والصـحراء الغربيـة كلهـا والـوادي (49) الجديـد كلـه غائبون في مجال الكورة. والـدوري العـام المصـري أو برلمـان الكـورة المصرية، للقاهرة خمسة مقاعد، ولمنطقـة القنـاة ثلاثـة مقاعـد دائمـة ومقعد رابع حسب التساهيل، والإسكندرية بجلالة قدرها لها مقعد واحد، وللدلتا مقعد وقيل مقعدان، والصـعيد كـان لـه مقعـد واحـد، ولكنهم لم يحتملوا وجود ممثل للصعايدة في برلمان الكورة فتآمروا عليه وأطاحوا به وشطبوا المنيا من خريطة الدوري العـام، ولم يقـف الأمـر عنـد هـذا الحد، ولكنهم "شـلحوا" فريـق المنيـا على رأي – أبنـاء الشـام – أعظم لاعبيه وضموهم إلى نوادي القـاهرة، ولكي يضـمنوا عـدم عـودة المنيـا مرة أخرى إلى الدوري العام!

فهل هذا دوري عام؟ إنه بـالقطع ليس "دوري عـام"، لأن الـدوري العام هو دوري عموم أبناء مصر، وهذا الدوري الذي لـدينا ليس لعمـوم أبناء مصر ولكنه دوري خاص لبعض المصريين، أما أغلبية المصريين فلا ناقة لهم ولا جمل في هذا الدوري العام! وقـد يقـوم مشـجع من إيـاهم أن الكورة الأفضـل هي الـتي تفـرض نفسـها على الـدوري العـام، وهـو قول حق يـراد بـه باطـل، والسـبب أن الـدوري المصـري غـير الـدوري الإنجليزي مثلا. ففي إنجلترا الفرصة متاحة للجميع، وإشارة المرور إلى الـدوري الممتـاز مفتوحـة أمـام الكـل، لأن الكـورة في إنجلـترا حرفـة وتجـارة. والنـادي الأغـنى يسـتأجر أعظم اللاعـبين ويسـتخدم أعظم المـدربين ويشـترك بهم في معركـة المصـير. ولأن الكـورة تجـارة في إنجلترا .. فكل ناد وله مسـتثمرون، وهم يوظفـون أمـوالهم في مجـال الكورة، كما يوظف غيرهم أموالهم في مجال الصناعة.

ولكن الكورة عنـدنا نشـاط رياضـي يخضـع للسـيد الـوزير والسـيد المحافـظ، والسـيد مـدير الشـئون الاجتماعيـة، والسـيد مـدير التنظيم،

والسيد مدير البلديـة، والسـيد مـدير مكافحـة المخـدرات .. باعتبـار أن حشيش الملاعب يدخل ضمن اختصاص البيه المدير! في وضع مثل هذا لا يكون هناك أمل في أن يصبح نادي منوف ضمن أندية الـدوري العـام ولا يمكن أن يحمل فريق السويس ببطولـة الـدوري الممتـاز، ولا يمكن أيضا أن يطمع نادي المحلـة أو نـادي الترسـانة في كـأس مصـر، إلا إذا حدثت للمسابقة حادثة أو كارثة أو صادفها سوء حظ.

تمامـا كمـا حـدث هـذا العـام. فـالأهلي اعتـذر عن الاشـتراك في المسابقة، والزمالك أطاح به النـادي المصـري عـديم المسـتوى الـذي يهزم نادي الزمالك مرة، وينهزم من نادي بلمشط عدة مـرات. وبـذلك خلا الجو لأول مـرة منـذ عشـرين عامـا أمـام نـوادي العمـال والفلاحين والناس اللي تحت. وهكذا فـاز الترسـانة بالكـأس (50) ومـبروك عليـه بالرغم من أنني كنت أتمنى أن تكون الكـأس من نصـيب نـادي المحلـة لكي تخرج الكأس من زمام مدينة القـاهرة، وأيضـا لأن نـادي الترسـانة اشتغل هو الآخر بالبوتيكات والأنتيكات، وصار من رجـال الأعمـال ولكن على طريقــة رجــل "الأعمــال" توفيــق عبــد الحي، باعتبــار أن الغش والنصب وكافة شيء يغضب الرحمن يندرج أيضا تحت وصف الأعمال!

هؤلاء المحتالون وأمراضهم المدهشة

(52) منـذ بدايـة الانفتـاح التهليـبي وقبـل صـيحة حسـني مبـارك بضــرورة الاتجــاه إلى الانفتــاح الإنتــاجي، لاحظت ظــاهرة غريبــة عن المجتمع المصري لاحت أول بشائرها في صـحف الخليج .. خطـاب من

مصري أو مصرية غالبا من مريض أو مريضة، ودائما المرض خطير ورهيب، يبدأ من سرطان في المثانة أو سرطان في الثدي وينتهي بسرطان في المخ .. وصاحب الخطاب يطلب من المحسنين الكرام أن يعاونوه في محنته أو يساهموا في تكاليف علاجه حيث أنه صاحب سبعة من العيال ووالده مشلول شللي كلي وأمه عاجزة نظر ومريضة بالسكر ومصابة بصداع مزمن منذ مائة عام!

بعض أصحاب هذه الخطابات كان يحرص على ذكر رقم حسابه في البنك حتى يتمكن السادة الراغبون في حجز جناح في الجنة من إرسال تبرعاتهم قبل فوات الأوان .. بالطبع .. لم يكن كل أصحاب الخطابات من طبقة النصابين المحتالين، ولكن كانت هناك نسبة كبيرة من هؤلاء بين أصحاب الخطابات وكانت النتيجة أن النصابين قضوا على أمل المرضى الحقيقيين في الحصول على طريق للنجاة .. والنصابون لا يهمهم ما يحدث عادة للآخرين المهم أن يحصلوا على ما يريدون بأي طريقة ومن أي سبيل ...

زمان كان لدينا في الجيزة موظف كحيتي مرتبه على قده ... وكان صاحب مزاج يقضي الليل وسط سحابة من الدخان الأزرق المعطر، ولأن العين كانت بصيرة واليد كانت قصيرة، فكان يضطر كل مساء إلى فرد منديل في يده والطواف على أصحاب الدكاكين، كل يوم في شارع مختلف، يحثهم على التبرع لغريب مسافر إلى بلده، مرة إلى أسيوط ومرة إلى المنصورة ومرة إلى الخرطوم .. وبحصيلة التبرعات التي كان يحصل عليها، كان يسهر سهرة حافلة يدخن المزاج ويأكل الكباب ويختم السهرة بصينية بقلاوة من صواني الحاج صبحي أشهر حلواني في ذلك الزمان .. وأذكر ذات صباح في عام 1968 أن شابا باكيا جاءني في منزلي زاعما أنه كان عاملا في مؤسسة روزاليوسف ولكنهم فصلوه لسبب تافه وأن (53) المرحوم والده كان

يعمل في روزاليوسف أيضا .. وأن الوالد توفي وهو يدعو الله أن يمتع العبد لله بالصحة وأن يمد فيعمره وأن يبارك الله له في أمواله وعياله، ولأنني كما قال الابن العاطل كنت شديد العطف على الوالد وكنت السبب في إيجاد مسكن لهم في المساكن الشعبية على هضبة المقطم بجوار مشرحة زينهم .. وتصورت أن الولد الباكي يطمع في العودة إلى عمله في روزاليوسف ولكني اكتشفت أنه لم يحضر لهذا السبب، وإنما حضوره كان لأمر رهيب وخطير لو صح لوجب إقالة وزير الصحة وسجن جميع وكلاء الوزارة واعتقال جميع أطباء الصحة من الإسكندرية إلى أسوان فالولد الباكي له ابن وحيد في الخامسة من عمره ولكنه فجأة مرض مرضا خطيرا لا يعرف سره فحمله وذهب به إلى مستشفى أم المصريين بالجيزة، ولكن الولد مات في اليوم التالي .. ولما كان الموت حق وعلى رؤوس العباد فقد ذهب الوالد – الذي يبكي أمامي – إلى المستشفى لاستلام جثة ابنه المتوفى ولكن المستشقى رفض تسليم الوالد جثة ولده قبل أن يدفع مائة جنيه نقدا وعدا وإلا فلن يكون للولد قبر وسيبقى مدفونا في ثلاجة المستسشفى إلى آخر الدهر .. وغلا الدم في عروقي وأنا استمع إلى قصة الوالد الباكي وقد تحول من باكي إلى لاطم وبطريقة تفوق لطم الإيرانيات في يوم ذكرى استشهاد الإمام الحسين .. ورفعت سماعة التليفون واتصلت بمدير مستشفى أم المصريين في بيته، لأن اليوم كان يوم جمعة والمدير في إجازة، ورجوته أن ينتظرني في المستشفى بعد نصف ساعة.

وذهبت بالوالد إلى المستشفى ومعنا الحاج إبراهيم نافع وبذلت جهدا كبيرا في السيطرة على أعصابي حتى لا أترك ليدي مهمة التحاور مع الدكتور المدير بدلا من لساني .. إذ كيف يحجز على جثة ولد ميت في مستشفى حكومي مقابل أي مبلغ من المال؟ وهل نحن في دولة عربية؟ وهل هذا إسلام؟ لو أن هذا الولد مات في مستشفى في تل

أبيب أو مستشـفى في بلغاريـا تحت ظـل حيفكـوف، لـو أنـه مـات في بوروندي أو أوروندي أو بوركينا فاسـو، هـل كـانوا يحجزونـه وهـو رهين المـوت رهنـا لمائـة جنيـه؟ وقلت للمـدير وأنـا أكبت ثـورة عنيقـة في داخلي: كيف تحجزون طفلا ميتا عندكم في المشرحة لأنـه لم يـدفع مـا عليـه من نقـود؟ ورد المـدير على السـؤال؟ .. ومـتى دخـل الطفـل المستشـفى؟ وأجـاب الوالـد البـاكي اللاطم الصـارخ في البريـة: منـذ خمسة أيام وأجاب المدير لم يدخل المشرحة طفـل منـذ شـهرين على وجه التحديد وسأل المدير عن اسم الطفل .. فذكر الوالد اسم الطفـل واسم أبيـه وطلب الـدكتور دفـتر المشـرحة ودفـتر المستشـفى .. ولم نعثر على أي أثر لاسم الطفل في الدفترين .. واستدعى المـدير أطبـاء المستشـفى واسـتدعى الكتبـة واسـتدعى الممرضـين واسـتدعى بعض المرضى وأجمع الكل على أن المستشفى لم يسـتقبل طفلا مريضـا أو مصابا أو ميتا ولم يسمع أحد بهذه القصة على الإطلاق ..

وألقيت نظرة على الوالد فإذا به جالسا على الأرض مسندا ظهره إلى الحائط ورأسـه بين يديـه وهـات يـا بكـاء على الطفـل المزعـوم .. وكدت أدفعه بقدمي أو أصـافح قفـاه (54) بكفي ولكن الحـاج إبـراهيم سـحبني من يـدي إلى الخـارج .. وتركنـاه في المستشـفى يبكي كمـا الخنساء تبكي أخاها صخرا.

إلى هذا الحـد وصـلت ألاعيب المحتـالين يسـتخدمون كـل الأوراق لتحقيق نصبهم ويفبركون أية أكاذيب من أجل الوصول إلى غايتهم.

إلا هذا ..

ولكن كله كوم وما حدث في الأسابيع الأخـيرة كـوم آخـر .. فـذات صـباح تلقيت مكالمـة هاتفيـة "ترنـك" من الصـعيد الجـواني وكـانت المتحدثة سيدة صوتها خفيض ولهجتهـا صـعيدية .. وقـالت أنهـا مريضـة بسرطان المخ وأنها أم لخمسة أطفـال وزوجهـا موظـف بسـيط مرتبـه

مائة جنيه في الشهر وأنها في حاجة إلى رعاية بعد أن ضاقت الدنيا في وجهها .. ,لم يعد أمامها إلي حل إلا الانتحار .. وزعمت أنها تحدثني من بيت جارة لها وأن في استطاعتي أن أطلبها في أي وقت، وتوسلت للعبد لله أن انشر مأساتها في عمودي الاسبوعي "أما بعد" لعل وعسى أن يكرمها الله عن طريقي فيتحقق لها العلاج والشفاء ويضمن العبد لله لنفسه قصرا في الجنة .. ولأنني قليل الثقة في أحاديث التلفونات فقد طلبت منها مشكورة أن ترسل للعبد لله خطابا على أخبار اليوم تشرح فيه حالتها المرضية بالتفصيل ليكون في يدي وثيقة استند عليها .. وبالفعل وصلني الخطاب في اليوم التالي .. شرحت فيها حالتها الصحية وعنوانها ورقم التليفون الذي يمكنني الاتصال بها عن طريقه ونشرت قصتها على الناس وطلبت من وزير الصحة أن يسرع بعلاج هذه السيدة المريضة بأي مستشفى حكومي .. بشرط أن تتولى الوزارة الإنفاق على العلاج والدواء

اختفاء

وبعد صدور أخبار اليوم بساعات اتصل السيد الدكتور وزير الصحة بالعبد لله وأبدى استعداده لعلاجها في أي مكان في مصر أو في الخارج، طالبا الإسراع بتقديم تقرير طبي عن حالة السيدة لكي يصدر أوامره بعلاجها في المكان الذي يحقق لها العلاج والشفاء .. وختم الوزير حديثه قائلا: سنعالجها ولو في أمريكا .. فالمبالغ المرصودة لعلاج المواطنين على حساب الدولة هي من حق الفقراء أولا وقبل أي أحد آخر .. وشكرت الوزير ووعدته بالاتصال بالسيدة المريضة. وبعد ساعة واحدة دق جرس التليفون في منزلي، وكان المتحدث صديق من الرياض وقال الرجل الطيب: لقد قرأت مأساة السيدة وأنا في المطار في طريقي إلى الرياض، وأنا على استعداد لعلاجها في أي مكان على ظهر الأرض، وعلى استعداد أيضا لرعاية أسرتها .. ليس هذا فقط لقد

أبلغني الرجـل الفاضـل أنـه قـد أصـدر أوامـره إلى طبيبـه الخـاص في القاهرة ليقوم بإجراء التحاليل والأشعات (55) اللازمـة تمهيـدا لعلاجهـا في المكـان الـذي يتـوافر فيـه العلاج .. وبعـد الظهـر اتصـلت السـيدة المريضة تليفونيا ولم أكن موجودا لسوء الحظ، وقالت لابنتي هالة إنهـا تـرفض العلاج في مستشـفى حكـومي وأنهـا كـانت تطمـع في العلاج بمستشفى خاص .. وحاولت الاتصال بالسيدة لأشرح لها الأمـر، ولكنهم أبلغوني أنها سافرت لأبيهـا وأبلغـوني في المـرة الثانيـة أنهـا مريضـة لا تقوى على الرد .. ولكني لاحظت في المرات الثلاث أن الصـوت الـذي يرد علي هو صوت السيدة نفسها التي شكت لي مأساتها وأن التليفون ليس تليفـون جارتهـا كمـا زعمت ولكنـه تليفونهـا وأن العمليـة وراءهـا سـر .. وأردت أن أقطـع الشـك بـاليقين، فنشـرت في الأسـبوع الثـاني وقـائع مـا جـرى بيـني وبين الـوزير وبيـني وبين الرجـل الطيب في الريـاض .. وبعـد سـاعات من صـدور أخبـار اليـوم، عـادت السـيدة إلى الاتصـال بالعبـد للـه .. شـكرتني طبعـا في البدايـة ودعت لي بطـول العمـر، ثم طلبت مـني أن أعطي عنوانهـا للرجـل الطيب الـذي تحـدث معي من الريـاض .. ولكن طلبت منهـا قبـل اتخـاذ أي خطـوة في هـذا الشأن إرسال التقارير الطبية التي تؤكد أنهـا مصـابة بسـرطان المخ .. وبعـد مناقشـة طويلـة وعريضـة بيـني وبين السـيدة "المريضـة" قـالت السيدة أنها ستحاول الحصـول على هـذه التقـارير وبالفعـل تلقيت بعـد ثلاثة أيام خطابا من السيدة ومع الخطاب روشتة من الـدكتور "ف. ف. ي." مدون عليها عبارة رئيس قسم الأشعة المقطعية كلية طب جامعـة أسيوط ..

بعد التحية

هكذا فقط ولا شيء آخر .. والطبيب طبعا بريء لأن أي مخلوق يشعر بصداع رهيب بالرأس أو بمغص قاتل في البطن .. سيعطيه الطبيب ورقة إلى قسم الأشعة لتصوير العضو المعطوب ... المهم أن الروشتة بتاريخ 28 يناير 1990 أي بعد أول حديث لها معي بعدة أيام..

والمطيباتية

الغريب أنني تلقيت خطابا من آخر من قارئ طيب يشكرني فيه على نشر مشكلة السيدة المريضة ثم يقول "ألا ترى أنك ظلمتها عندما قبلت عرض وزير الصحة ورفضت عرض الصديق الكريم الذي اتصل بك من الرياض" ثم يقول القارئ الطيب أن المسكينة ستدوخ السبع دوخات ما بين القومسيون ومكتب الوزير والميزانية لا تسمح، أما الصديق الذي في الرياض فهو جاهز خصوصا وأنه اتصل بطبيبه الخاص بالقاهرة لإجراء اللازم .." انتهى خطاب القارئ الطبيب وحبذا لو أعرف رأيه الآن بعد قراءة هذا المقال ..

(56)

ماذا جرى؟

أقول لكم الحق لقد أصابني نوع من الغثيان بعد هذه الواقعة وأنا الخبير في أمور النصب والاحتيال وصاحب تجربة طويلة .. منذ تجربتي مع أول شحات أعمى كان يطوف حارتنا في زمن الحرب العالمية الثانية يتسول بصوت مسرسع مسلوخ "عشا الغلابة عليك يا كريم". وذات مساء في شهر رمضان وقفت على باب غير بيتنا ومعي قرص جلة ودعوت المتسول الأعمى ليأخذ نصيبه مني وهو يقترب مني وعصاه في يده تتحسس له الطريق وناولته قرص الجلة، فرفعه إلى فمه ليقبله باعتباره نعمة من الله ينبغي تقبيلها حتى لا تزول .. وعندما دخلت رائحة القرص إلى خياشيمه واكتشف أنه ملعوب من ولد شقي

لا يعرف العيب ولايتمسك بأخلاق الحارة .. طوح العصا ناحيتي فشتمته وأخذت ذيلي في أسناني وهات يا فكيك وانخلع قلبي عندما اكتشفت أنه يجري خلفي على نحو أسرع من بن جونسون الذي جردون من ميدالياته وقلشوه من البطولة بسبب تناوله المنشطات في دورة سول .. ولكن لأني كنت وقتئذ كالغزال في الرمح وكالأرنب في المناورة فقد تمكنت من الإفلات من قبضة الشحات الذي لم يتركني إلا عندما وصلت إلى قرية المنيب على بعد ثلاثة كيلومترات من المكان الذي جرت فيه الحادثة .. ولكنني تعلمت درسا خلاصته أن المظاهر كدابة، وأنه ليس كل الشحاتين عميان أو مكسحين .. وأن ألاعيب أصحاب الحيل بحرها واسع وعميق .. ولا أعرف لماذا تذكرت هذا المتسول الأعمى الذي رمح خلفي منذ خمسين عاما كأنه حصان مشترك في سباق الدربي وعلى موعد مع الجائزة الأولى في السباق التاريخي الكبير ..!

والغريب أنني تلقيت بعد حادث السيدة المريضة في الصعيد مائة خطاب من مرضى في كل مكان لدرجة خيل إلي فيها أن مصر تحولت إلى مستشفى كبير. وحتى لا نأخذ البريء بالمسيء، ولكي لا نقع في حبائل المحتالين والنصابين، فقد اتفقت مع الدكتور إسماعيل سلام طبيب القلب المشهور بتحويل كل هذه الخطابات إليه .. حيث أنه استطاع الجهود الذاتية أن يرصد مبلغا كبيرا لعلاج الفقراء، وهذا المبلغ يكفي لعلاج عدة ألوف من المواطنين .. والدكتور إسماعيل سلام بالمناسبة طبيب أصلا ومشتغل بالسياسة ويذكرني بالمرحوم أنور المفتي وأستاذنا الدكتور يسن عبد الغفار وبعمنا الكبير الدكتور علي عبد العال وبغيرهم من النماذج العظيمة الشامخة في تاريخنا الطبي الحديث.

أما السيدة الصعيدية فلن أفضح سرها بشرط ألا تعود إلى عمليات النصب من جديد لأن رقم تليفونها معي وعنوانها أيضا ولكن المسامح كريم..

ويبقى في النهاية سؤال ماذا جرى للمصريين وماذا جرى بهم؟ وما هي الحكاية؟ ولماذا هذا التدهور وهذا التفكك؟ وإلى أين المصير؟ اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه!!

يا رب احمني من "أعلائي"

(58) العبد لله .. يعلم الله .. يشتغل بالصحافة منذ أكثر من أربعين عاما. وبعض أعمالي منشورة في مجلات صدرت في العام 1944 .. واشتركت في إصدار مجلات كنا نطبعها ونبيع نسخها بالأقة فلم تكن مصر قد عرفت الكيلو بعد!

والعبد لله اشتغل في الصحافة الحزبية أيام العهد الملكي... واخترت جرائد الوفد. فقد كان هو الحزب الوحيد الذي اختار جانب الجماهير ضد أعداء الشعب.

وكانت جرائد الوفد الوطنية تدفع شهرا وتصهيني عدة شهور، وكان الصحفي "الشاطر" هو الذي يشتغل في أكثر من صحيفة، خصوصا إذا كان صاحب عيا أو صاحب عيال! وبعض الصحفيين الذين انتقلوا إلى رحمة الله كان يشتغل في جريدة وفدية وفي جريدة أخرى سعدية ولا يجد حرجا في ذلك، فقد كانت الصحافة وقتئذ – مجرد مهنة – وأحسن من كافة شيء يغضب الرحمن! وعندما تفجرت ثورة 23 يوليو المجيدة أصدرت وفي وقت واحد جريدتين.

الجمهورية لسان حال الثورة، والقـاهرة وكـانت سياسـية مسـتقلة ففضلت العمـل في القـاهرة إلى أن تحـولت من صـباحية إلى مسـائية وعنـدما عرضـوا علينـا الاسـتمرار في العمـل مقابـل تخفيض رواتبنـا .. رفضت ففصلوني ورفضت استلام المكافأة وأقمت دعوى أمام القضاء، ولكنني خسرت القضية لأن المحامي الهمام الذي وكلته عـني لم يظهـر مرة أخرى أمام المحكمة، وبالطبع لم أظهر أمامها أنا الآخر، فقـد كنت أنا والمحامي صديقين، وكنا نسهر حتى الصباح، ونستيقظ بعـد الظهـر، ولم نعرف بأننا خسرنا القضية، وحكمت المحكمة ضـدنا ونحن أصـحاب الحق .. بدفع مصاريف التقاضي وأتعاب المحاماة ..

وتـركت القـاهرة واشـتغلت في مجلـة التحريـر، محـررا ثم مـديرا للتحرير، ثم نقلت إلى الجمهورية محررا ثم رئيسا للشئون العربيــة، ثم مشرفا على الصفحة (59) الأخـيرة، ثم مفصـولا في العـام 1958 مـع دفعة بيرم التونسي وعبد الـرحمن الخميسـي وألفريـد فـرج وعشـرات من الكتاب والصحفيين. ولكنني اشـتغلت بعـد أسـبوع واحـد من فصـلي في مجلــة روزاليوســف وســكرتيرا للتحريــر. ولم تكن الصــحافة قــد أمممت بعد!

وبعد عام واحد من العمـل في روزاليوسـف تم اعتقـالي وقضـيت ثمانيـة عشـر شـهرا وتمتعت خلالهـا بـالطواف في رحلـة سـياحية مـع الإقامة الكاملـة في سـجون القلعـة والفيـوم وبـني سـويف والواحـات. وعندما خرجت من سجني واجهتني مشـكلة أنـني مفصـول من الاتحـاد القومي مع أنني لم أكن عضوا فيه، وأن الاشتغال بالصحافة حرام على العبد لله باعتباري لست اتحاديا ولا قوميا ولا يحزنون!

وتعجبت لنقل ملكية روزاليوسف إلى الاتحـاد القـومي، وخيـل إلي أن الاتحاد القومي إياه ربما كان أخا غير شقيق لإحسان عبد القــدوس. ولم أكن أنا الوحيد المعزول من جنة المالـك الجديـد، ولكن كـان هنـاك

مائة كاتب وصحفي من بينهم الدكتور لويس عوض ولطفي الخولي ومحمد عودة وآخرون. ثم شملتنا رحمة الاتحاد القومي بفضل مساع بذلها الدكتور لويس عوض مع محمد حسنين هيكل، وانتهت بحل سعيد، أن نستمر في العمل الصحفي دون أن نتشرف بالدخول في الاتحاد القومي المجيد.

وعندما جاء الاتحاد الاشتراكي فوجئت بأنني أيضا معزول وممنوع من العمل الصحفي لأنني لست اتحاديا بما فيه الكفاية ولا اشتراكيا كما ينبغي!! المهم أن جميع الصحفيين الذين كانوا في الاتحاد القومي أصبحوا على الفور أعضاء في الاتحاد الاشتراكي باعتبار أن القومي هو اشتراكي في الاصل، أما صفتهم كاتحاديين فهي مسألة لا تحتمل أي شك. ولكني ضحكت ضحك غرائب الإبل عندما قرأت اسم إحسان عبد القدوس في كشف المعزولين وكذلك اسم محمد عودة ولويس عوض! ثم فتح الله علينا فأصبحنا أعضاء في الاتحاد الاشتراكي وصحفيين أيضا. وإن كنت لم أضع قدمي في الاتحاد الاشتراكي المبني إلا في العام 1968! وفي العام 1971 دخلت السجن وخرجت بعد سنتين معزولا ومفصولا وممنوعا من الكتابة بأجر وبدون، والأكادة أن جميع الزملاء الذين كانوا في الاتحاد القومي ثم في الاتحاد الاشتراكي، أصبحوا جزءا من مجتمع العائلة المصرية الواحدة وكبيرها الذي لا يخطئ ولا يغفل ولا يظلم العبيد!

وخرجت من مصر وعدت بعد مائة شهر بالتمام والكمال لاكتشف أن مصر صارت ديمقراطية وحزبية، وأن الصحافة صارت من أملاك المجلس الأعلى للصحافة، وحكمة الله أن الزملاء الذين كانوا في الاتحاد القومي ثم في الاتحاد الاشتراكي ثم في مجتمع العيب وأخلاق القرية، هم أنفسهم الذين يتصدرون العمل الصحفي في المجتمع الوطني الديمقراطي المتعدد الأحزاب! واكتشفت (61) أيضا أنني

معزول من العمل السياسي وانني مسموح لي بالعمل الصحفي باعتبار "الباب اللي يجيلك منه الريح سده واستريح"!!

ومـع أنـني من أملاك هـذا المجلس الأعلى للصـحافة، إلا أنـني لم أقابله مرة واحدة وهو يبدو للأسف الشديد أنه مجلس عال وأعلى ممـا نتصـور، لأنـني لم أصـادفه في مقهى، ولم ألتـق بـه في حفلـة، ولم أشاهده في مسرح، ولم تقع عيني عليه في أي زمان أو مكان. والحـق أقول أنني تأكدت بعد التجارب والمصايب أن العمل الصـحفي بالنيـات، وأن الزملاء الذين دخلوا القومي والاشتراكي والتنظيم السياسي ومصر الوطـني الـديمقراطي، لا بـد وان يكونـو من أصـحاب النوايـا الحسـنة، ولذلك فسكتهم سالكة، وطريقهم مفتوح، ورواتبهم متضخمة وأحـوالهم ميسرة، ولهم حراسة وتليفون، وبطاقة تموين حمراء، مع أن العبد للـه ليسله أي بطاقـة، ويبـدو أنهم عزلـوني من التمـوين، كمـا عزلـوني من السياسـة، باعتبـار أن الأمن الغـذائيي والأمن المركـزي يتبعـان قيـادة واحدة، ويسيران على الخط القومي الاشتراكي الوطني الـديمقراطي، ويعلم الله ما هي الأسماء التي ستضـاف على هـذه اليافطـة في قـادم السنين؟ المهم أن العبد لله كان يريد لو التقى بـالمجلس الأعلى مالـك الصحافة، الجديد لكي أشكو له حالي أبث له شـكوكي وشـكوكو أيضـا، غير أني صرفت النظر عن هذا الأمر بعـد أن قـرأت في الصـحف الـتي يملكهـا المجلس بـأن هنـاك اقتراحـا بمنـع كتـاب الصـحف القوميـة من الكتابة في الصـحف الحزبيـة والصـحف العربيـة أيضـا. وهنـا قـررت أن أكتب في الصحف الحزبية بالرغم من أنني لم أفكر في هـذا الأمـر من قبل.

ولكنه نوع من التحدي فقط ورغبة مني في العراك .. وبالرغم من أنه في لحظة الاختيار سأختار الصحف الحزبية والحصف العربيـة بـدون أي شـك، وأعتقـد أن أغلب كتـاب مصـر المقـروئين سيسـلكون نفس

الطريق ... لأن الكتابة في الصحف العربية ليس بالواسطة ولا بـالنفوذ. ولكنهم يستكتبون صاحب الكلمة المقروءة والنابضة بالحياة، والعبد لله – والحمـد للـه – لم يكن اخـتراع الحكومـة أو صـنيعة نظـام .. ولكنـني كاتب حفرت الصـحف بأظـافر يـدي، وفرضـت نفسـي كـاتب ليس في مصر وحدها، ولكن في العـالم العـربي، الواسـع العـريض. ومـا ينطبـق على العبد لله، ينطبق على أحمـد حمـروش، وعلى كـل كـاتب مصـري يكتب في الصحف العربية من أول محمد حسنين هيكـل وإحسـان عبـد القدوس وإلى العبد لله وآخرين!

وبـــالرغم من ذلـــك أريـــد أن أهمس في أذن المجلس الأعلى أن وجود كاتب مصري في جريدة عربيـة هـو مكسـب لمصـر .. وأن هنـاك نظما عربية من إياها على استعداد لـدفع الملايين بشـرط اختفـاء القلم المصري وإحلال أقلام من إياها والـتي تشـبه إلى (62) حـد كبـير أقلام بعض السـادة المتصـدرين ..!! إنهـا مجـرد نصـيحة أهمس بهـا في أذن المجلس الأعلى، فـإن أخـذ بهـا كـان بهـا وإلا فسـيكون شـأنه شـأن المجلس البلـدي الـذي تفـرغ بـيرم التونسـي فـترة طويلـة من حياتـه للهجوم عليه.

وليعلم المجلس الأعلى أن مصــر ليســت بــالمجلس الأعلى ولا بالمجلس الأوطى ولا بالمجلس الذي هو بين بين، ولكن مصـر بفنانينهـا وكتابهـا وعلمائهـا ومهندسـيها وأطبائهـا ونجومهـا في كـل فن وفي كـل مجال.

ويا رب ... احمني من "أعلائي" جمـع أعلى، أمـا أعـدائي فأنـا بهم كفيل!؟

الأعلى والأوطى والنص نص!

(64) الله يرحمه ويحسن إليه، أبلـغ وأنبـغ من أنجبت أمـة محمـد، عمنا أبو الطيب المتنبي زعيم الأغلبية في شعب الناطقين بالضاد، عـبر كل العصور ومنذ مولده وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. الله يرحمـه ويحسن إليه عبقري بني قحطان وبني غطفان وبني سـليم، وقـد شـهد له الجميع بالرغم من عدم فوزه بجائزة الدولة التقديرية أو التشـجيعية، وبالرغم من عدم تكريمه بحفله أو تسفيره في رحلة.

وبالرغم من أنه لم يكن عضوا في المجالس القومية المتخصصـة، ولم يكن وكيلا لوزارة الثقافة ولا حـتى مـديرا بـوزارة الإعلام والأغـرب والأعجب أنه عـاش مطـاردا من النظم العربيـة، ملاحقـا من الشـرطة العربية، مكروها من النقاد العرب، محسودا من شعارير العرب، ومـات في النهاية مقتولا بأيد عربيـة بـالقرب من قريـة النعمانيـة على طريـق بغداد. قتلوه وقتلوا ولده محسد وخادمه العجوز وسرقوا أموالـه ونهبـوا كتبه، وباعوا جماله في سوق الثلاثاء ثم فروا هاربين. انتقـل إلى مكـان الحادث مأمور القرية ورئيس مباحث المركـز ونـائب مـدير أمن بغـداد، ووكيـل وزارة الداخليـة، وبعـد أن ألقـوا على مسـرح الجريمـة وعـاينوا الجثث، أغلقوا المحضر وقيدوا الحادث ضد مجهول! ومـع ذلـك لم يبـق من عصره كله إلا هو.

ولم يبــق من الأدب في كــل العصــور إلا أدبــه. لأن الخلــود ليس بالجوائز، وليس باللجـان، وليس بـالمجلس الأعلى أو المجلس الأوطى، ولكن يعيش الأديب بالتفرد والأصالة والعبقرية والنبـوغ. وإذا كـان عمنـا أبو الطيب المتنبي قـد قتلـوه قتلا حقيقيـا بالسـكاكين والمطـاوي قـرن الغزال على طريـق بغـداد، فقـد قتلـوا بعـد ذلـك عشـرات ومئـات من العباقرة والموهـوبين، ودون أن يسـتخدم القتلـة آلات حـادة أو أطعمـة

مسمومة، وسقط على مـر العصـور عبـاقرة قتلى الإهمـال والتجاهـل، سقطوا واحـدا تلـو الآخـر، مـرة على طريـق بغـداد ومـرة على طريـق دمشق، ومرة على طريق بـيروت، ومـرة على طريـق القـاهرة، ومـرة على طريق بني غازي ومـرة على طريـق الكـويت، ومـرة على طريـق الريـاض، ومـرة على طريـق الـدار البيضـاء، ومـرة على (65) طريـق وهــران، ومــرة على طريــق تــونس الخضــراء، ومــرة على طريــق نواكشوط، ومرة على طريق صنعاء، ومرة على طريق حضرموت!

في مصر مثلا مات الشـاعر عبـد الحميـد الـديب دون كلمـة رثـاء، وكتب كامل الشناوي بعد موته في جريدة الأهرام (اليـوم مـات شـاعر تعرى واكتست الأضرحة، وجـاع وشـبعت الكلاب) وحـتى شـعره دفنـوه معه فحرموا نشره، وحرموا طبعه، ومع ذلك عاش الـديب عنـد الأدبـاء، وعاش شعره في ذاكرة الـذين يقـدرون معـنى الكلمـات. ومـات شـعر الشيخ عبد المطلب شاعر وزارة المعارف. لأن الشـعر الحي هـو الـذي يبقى في ذاكرة الزمن، أما الشـعر الميت فهـو الـذي يقـرر على طلبـة المــدارس، وتحتفــظ بــه الدولــة في أرشــيف وزارة الثقافــة ووزارة الإعلام .. ومات الشاعر الكبير كامل الشـناوي دون تكـريم من الدولـة، ودون جوائز من المجلس الأعلى أو المجلس الأوطى أو المجلس النص نص، وليت الأمـر توقـف عنـد حـد الإهمـال أو عـدم التكـريم، ولكن زاد الطين بلة، أنهم نشروا اسمه في كشف المصـاريف السـرية في بدايـة الثورة، وعاش الخمسة عشر عاما الأخيرة من حياتـه مهـزوزا مـذعورا، يتلفت حولـه بـالعين أحيانـا وبـالقلب أحيانـا، ومـع ذلـك عـاش كامـل الشناوي بعد موته وسيعيش طويلا في تلاميذه وما أكثرهم، وفي شعره وما أعذبه وفي فنه وما أرفعه. ولو أنصفت الدولـة لمنحت اسـم كامـل الشناوي جائزة الدولة التقديرية تكريما لفنه، وتقديرا لعينه النفاذة التي كشفت وجذبت كل موهبـة غاليـة ونفيسـة عرفهـا وقتنـا الحـالي الـذي نشهده ونعيش فيه. وأكاد أزعم – واللـه على مـا أقولـه شـهيد – أنـه لا

توجد موهبة حقيقية وأصيلة في هذا الزمان، إلا وساهم كامل الشناوي في ظهورها ودفعها إلى الأمام، أنيس منصور، يوسف إدريس، كمال الطويل، فتحي غانم، بليغ حمدي، أحمد عبد المعطي حجازي، صلاح حافظ، عبد الحليم حافظ، وصلاح عبد الصبور. حتى إحسان عبد القدوس وحتى محمد حسنين هيكل وحتى مأمون الشناوي. وعشرات من النابغين الذين ملأوا حياتنا نورا وزهورا وضياء وأنغاما على امتداد خمسين عاما من هذا القرن العشرين! ومات أيضا شريدا وحيدا، غلبان زمانه ومسكين أوانه عمنا زكريا الحجاوي خادم الكلمة الصادقة والفن الرفيع، بعد أن عاش حياته موظفا بالمكافأة، وبعد أن انهدم بيته ولم يجد مسكنا يأويه فهاجر إلى الخليج، ودخل مستوظفا في خدمة الحكومة، وعندما أصبح له مكتب وتليفون وأصبح يذهب في مواعيد ويتكلم بحساب، وتحيط به المكائد والدسائس وألاعيب الموظفين، عندئذ توقف قلبه ومات زكريا الحجاوي وعاد إلى مصر في صندوق، ودفن في صحراء العباسية، وهو الذي كان يخاف الوحدة والظلام والسكون! لم يحتل زكريا الحجاوي الفنان حياته الجديدة في الخليج، حياة الروتين والنظام والكلام بحساب والحضور بمواعيد، والانصراف بعد التوقيع في دفتر المستوظفين. ولو أنصف المجلس الأعلى للفنون والآداب (67) لمنح اسم زكريا الحجاوي جائزة الدولة التقديرية في الفنون التي حجبوها هذا العام. فقد أثرى زكريا الحجاوي حياتنا بالنغم وبالكلمة وبالنبش في طين مصر عن النوابغ وكان آخرها الريس متقال، بالإضافة إلى السنارة التي كانت في عينه النفاذة والحساسة، والتي اصطاد بها عشرات من الموهوبين الأفذاذ، وكان أحدهم صلاح جاهين الفنان الشامل الذي شغل الناس والحياة، وسيظل يشغل الناس والحياة وإلى زمن بعيد يعلمه باسط الأرض ورافع السماء. ومنذ عام واحد على وجه التحديد رحل عن دنيانا فنان مر على أرض البشر كما يمر الأولياء وأصحاب الطريق، كان خافض الصوت خافت الطموح،

شديد التأثير على من حوله، وعكف في صمت وفي صبر الرهبان في تشكيل عقول جديدة ومواهب واعدة، وأكاد أقول أنه لا يوجد في مصر الآن فنان تشكيلي واحد من الخامسة والعشرين إلى سن الأربعين إلا واشترك الفنان حسن فؤاد في صنعه وفي وضعه على الطريق الصحيح. وقضى حسن فؤاد حياته كطائر السنونو يقطع من كبده قطعا صغيرة ليطعم أفراخه، وكطائر السنونو أيضا مات حسن فؤاد قبل الأوان، ولكن بعد أن شبت أفراخه عن الطوق وحلقت في العلالي بريش قوي اشترك حسن فؤاد في تثبيته وفي إنباته وتزويقه بأحلى وأجمل الألوان. ونفس الكلام الذي ينطبق على كامل الشناوي وزكريا الحجاوي وحسن فؤاد، ينطبق أيضا وربما بشكل أكبر على الفنان الراحل صلاح جاهين. وكان يمكن للمجلس الأعلى وللمجلس الأوطى وللمجلس النص نص، أن يمنح جائزة الدولة لروح الفنان صلاح جاهين، في الأدب ممكن، في الفنون ماشي، في العلوم لا بأس، في الهموم لا مانع. ولكنه حجب الجائزة الثالثة في الفنون، ووزع جوائز الأدب على وكيل وزارة الثقافة ووزير أوقاف السابق، ولا أدري لماذا لم يمنحوها أيضا لوزير التموين ومدير التليفونات ورئيس هيئة مترو الأنفاق ومدير الأمن العام، فكلهم ساهموا بشكل أو بآخر، في تنشيط عقل مصر وتجديد روحها، وهم لا يستحقون فقط جائزة الدولة التقديرية، وإنما هم يستحقون ما هو أكبر من ذلك، مكافآت تشجيعية وحوافز وتماثيل تنصب لهم أمام الجمعيات الاستهلاكية ومحطة السكة الحديد وسجن التخشيبة بالقلعة!

وإذا كان هؤلاء الفنانون العظام من أول كامل الشناوي إلى صلاح جاهين – حكمة الله – يشتركون في صفة واحدة، هي عدم حصولهم على جائزة الدولة التقديرية أو التشجيعية أو التي بسعر السوق السوداء! فقد كانت تجمعهم – حكمة الله – صفة واحدة. وهي الصياغة والوقوف على باب الله وليس على باب السلطان. كانوا جميعا طرازا

من الصـياع العظـام الـذين أحبـوا الليـل والنـاس والفن العظيم من أي اتجاه. كان كامل الشناوي يشـم رائحـة المـواهب على بعـد ألـف ميـل، وكان خبيرا في انتقائها وصقلها وتقديمها للناس. وكان زكريـا الحجـاوي يسرح في (68) شوارع مصر وخلفه مجموعة من الصبيان الموهـوبين صاروا جميعا أعلاما فيما بعد، وكان حسن فؤاد مفتونا بالشـباب وراعي قطيع المواهب الجديدة، وكان صلاح جاهين يحب كل جديـد وأي جديـد. ولكن يبدو أن هـذا الصـنف من الفنـانين الـذين يحبـون الحيـاة لا تحبهم دواوين الحكومـة ولا أنظمـة المجلس الأعلى والمجلس الأوطي والنص نص. وإذا كنا قد قصرنا حديثنا على الموتى من الفنـانين العظـام. فمن بين الفنانين الأحيـاء من لم يحصـل على جـائزة الدولـة التقديريـة وهـو أكبر منها. ولكن الجوائز ضلت طريقها إليهم، لأنهم عرفوا الطريـق إلى الفن، وضـلوا الطريـق إلى دواوين الحكومـة. على رأس هـؤلاء شـيخ الفنانين القصاصـين محمـود البـدري، ورافـع لـواء الحب إحسـان عبـد القدوس.

وصـاحب القلم الأنيـق الرشـيق أنيس منصـور، والكـاتب الـذي اعتزلالناس وعكف في مجـده الـدكتور مصـطفى محمـود، وشـيخ نقـاد الأمة لويس عوض، والفنان المسرحي نعمان عاشور والكاتب القصاص يوسـف إدريس، كلهم يسـتحقون الجـائزة، وكلهم أكـبر من الجـائزة، ولكنهم جميعـا لم ينالوهـا، مـع أن محمـود البـدوي تعـدى الثمـانين من عمـره المديـد، ونعمـان عاشـور يزحـف الآن نحـو السـبعين، والبـاقون جميعا وصلوا السـتين أو تجاوزوهـا بقليـل. ولا أدري مـتى نعطي هـؤلاء جائزة الدولة التقديرية؟ ولا أدري أيضا إمتى الزمـان يسـمح يـا جميـل، وتأخد جائزة الدولة التقديرية ومع الشكر الجزيل؟ ولكن عزاء الأمـوات من الفنانين العظام وعزاء الذين ما زالوا على قيـد الحيـاة، أنهم مـاتوا في فراشهم، أو سيموتون في فراشـهم، ولن يلقـوا مصـير أبـو الطيب المتنبي، أبلغ وأنبغ من أنجبت أمة محمد، وفنان عصـره وكـل العصـور،

قتلة فارس من بني خيبان – مع الاعتذار لمسرحية سمير غانم – وفي قرية النعمانية على طريق بغداد وقتلوا ولده وخادمه، وسرقوا أمواله ونهبوا كتبه وباعوا جماله في سوق الثلاثاء ثم فروا هاربين، وانتقل إلى مكان الحادث مأمور القرية ورئيس مباحث المركز ونائب مدير أمن بغداد ووكيل وزارة الداخلية، وبعد أن ألقوا نظرة على مسرح الجريمة وعاينوا الجثث، أغلقوا المحضر وقيدوا الحادث ضد مجهول! ومع ذلك لم يبق من عصره كله إلا هو، ولم يبق من الأدب في كل العصور إلا أدبه، لأن الخلود ليس بالجوائز، وليس باللجان وليس بالمجلس الأعلى والمجلس الأوطى، ولكن يعيش الأديب بالتفرد والأصالة والعبقرية والنبوغ!

على الأبطال دوار!

(70) هل سمعتم عن الكابتن "كعبلها" من قبل، لقد كان يشغل مركز قلب الدفاع في فريق شطانوف المحطة الذي كان يلعب في دوري الدرجة الثالثة. ومع أنه كان يلعب في مركز الظهير، ومهمته بالتحديد هي منع الأهداف من دخول مرماه، ومنع المهاجمين من دخول الصندوق، إلا أنه بالرغم من ذلك ظهر اسمه ذات عام في كشف الهدافين! ولم يكن هذا على سبيل النكتة، ولكنها كانت حقيقة واقعة. لأن الكابتن كعبلها سجل خلال ذلك العام 8 أهداف في مرماه! ويبدو أن الكابتن كعبلها اكتشف فجأة أن تسجيل الأهداف في مرمى الخصم

عسير وصعب المنال، فما المانع من تسجيل الأهـداف في مرمـاه؟ مـا دامت الكرة – على رأي الكابتن لطيف – أهداف!

وأسأل حضراتكم: هل رأيتم ما حدث في دورة أفريقيـا؟ لقـد لعب فريقنا ثلاث مباريات. واختلف أداء الفريق من مبـاراة إلى أخـرى. ففي مباراة الكاميرون لعب الفريق تبعنا ولا فريق البرازيل ولكنه لم يسـجل شيئا وفي مباراة كينيا لعب فريقينا ولا فريق البراجيل ولكنه سجل ثلاثة أهــداف. وفي مبــاراة نيجيريــا لم يلعب ولم يســجل، وخــرج الفريــق "البطــل" من دورة أفريقيــا غــير مأســوف عليــه. ولكن على من تقــع المســئولية الآن؟ على الخواجــة ســميث؟ العبــد للــه يعــرف أن حملــة شعواء من بعض السادة إياهم تنتظر الخواجة سميث باعتباره هو الـذي أفسد الكرة المصرية. وهـو الـذي تسـبب في انحـدارها. وكـأن الفريـق تبعنا كان زينة مسابقات كأس العالم، وبعبع كأس أوروبـا، ووردة كـأس أفريقيا، وكان مصدرا للعملة الصعبة، ومن أسباب تشجيع السـياحة في مصر!!

والحق أقول أن الخواجة سـميث مظلـوم وبـريء وصـاحب فضـل على الفريق القومي. بدليل أن فريقنا بشهادة الجميع لعب أحلى كـورة في البطولة، ونجح الخواجة سميث في أن يصنع من الفسـيخ شـربات. ولكن جريمة سميث التي لا تغتفر هي أنه لم يـنزل إلى الملعب ليحـرز الأهداف بنفسه ... عندما عجز الكابتن إياهم عن إحراز هـدف يـتيم في مــرمى فريــق نيجيريــا كــان كفيلا بوضــع فريقنــا على (71) رأس المجموعة، وبالقطع كان الفريق المصري هو الفريـق المرشـح ليقابـل المغـرب في نهـائي الكـأس! ولكن الخواجـة سـميث جلس على دكـة المدربين ولم يشترك مع اللعيبة، وهي جريمـة كـبرى تسـتوجب إحالتـه إلى محكمة العدل الكروية وتنفيذ عقوبة الإعدام فيه!

هل هي مسئولية أحمد رفعت؟

العبد لله يعتقد أن جزءا من المسئولية يقع على رأسه. لأنه أولا كمدرب لا يرقى إلى مستوى الفريق القومي. وثانيا لأنه زملكاوي الهوى استعان بالكابتن طارق يحيى مع أنه كان بعيدا عن المنتخب في عصر شحتة. ولم يكن شحتة متحيزا عندما صرف النظر عن الكابتن طارق يحيى لأننا جميعا نعلم أن طارق يحيى مجرد لعيب محلي ولا يصلح لمباريات على هذا المستوى الرفيع!

طيب ... هل المسئولية تقع على عاتق اللعيبة؟

الحق أقول أن اللعيبة أدوا واجبهم في حدود مواهبهم ولكن هناك بعض الملاحظات التي ينبغي تسجيلها حول هذا الموضوع. منها مثلا أن الكابتن ربيع يسن هبط مستوى أدائه بشكل خطير. ليس هذا ربيع يسن الذي نعرفه. هل هي الشيخوخة؟ هل هو الإرهاق؟ هل هو الإحباط؟ هناك سر ما في هبوط مستوى هذا اللاعب الذي كان في الملعب مثل النحلة، وفي الشوط على الأجوال **كان مثل مدفع رمضان** .. والكابتن حسام حسن تفرغ لمناقشة الحكام باعتباره عضو مجلس الكابتن في برلمان الكورة. وحاول في مباراة الكاميرون منع حكم المباراة من إطلاق صفارة النهاية. وكأنه يلعب في أرض ماتوسيان بالجيزة، وكأن الحكم هو المعلم قطب الذي يقوم التحكيم بين الفرق لقاء علبة سجاير!

الكابتن شوبير أدى واجبه على أكمل وجه، وحمى مرماه من أخطار جسيمة، ولو وصل فريقنا إلى النهاية لحصل شوبير على لقب أحسن حارس مرمى في أفريقيا. الكابتن شوقي غريب بعد الإصابة غيره قبل الإصابة. وهو معذور بالطبع لأنه لم يفرض نفسه على الجهاز الفني ولكنه اختاروه على اساس "**عد غنمك يا جحا**". الكابتن طارق يحيى لم ينجح في اختراق الدفاع أو تخطي الظهير وفشل في توقيف الكورة وفي تمريرها، وتهيأت له الكورة أمام المرمى فطمع وتحفز

وشاط الكـورة في الظهـير النيجـيري. ومـع ذلـك تركـه المـدرب يلعب الشـوط الأول في مبـاراة نيجيريـا، وسـمح لـه بـاللعب أغلب الشـوط الثاني، ومع أنه كان في كـل الـوقت مشـاهدا إلا أنهم لم يسـحبوه من الملعب باعتباره أحد خبراء الكـورة في قـارة أفريقيـا، ويبـدو أنـه كـان مكلفا بكتابة تقرير عن سير المباراة!!

التغيير الذي حدث في الشوط الثاني كان خطأ جسيما. لأنه أشرك رمضان فقط، وكان ينبغي إشراك عماد سليمان أيضا باعتبار أن مباراة نيجيريا كانت مباراة حياة أو موت، ويا طابت يا اتنين عور!!

(72) على العمـوم لا داعي للحـزن، ولا وقت للعتـاب، وفي دنيـا الكورة حظوظ كما في دنيـا البـني آدمين، والعبـد للـه ليس من أنصـار إعطـاء الكـورة حجمـا أكـبر ممـا تسـتحق كمـا يفعـل بعض السـادة المعلقين. فـيربطون الفـوز بالحضـارة، ويعتـبرون الهزيمـة ضـربا من ضروب العار، والتعادل رجس من عمل الشيطان. مع أن الكورة مجـرد لعبة، ينهزم فيها القوي أحيانا، وينتصر فيها الضـعيف أحيانـا، كمـا حـدث عندما هزمت الجزائر ألمانيـا الغربيـة، وكمـا هـزمت البرتغـال إنجلـترا، وكما أخرجت بلجيكا الاتحاد السوفييتي من كأس العـالم، كمـا أن أغـنى وأقوى دولة على ظهر الأرض وهي الولايات المتحدة الأمريكية ليس لها في كرة القـدم إلا الفريـق الأوليمـبي، وهـو يلعب الكـورة كمـا الخـالق الناطق فريق بلبيس!

بقيت نقطة أخيرة هي مسألة الكـابتن كعبلهـا، والسـبب الـذي من أجله ذكرناها في بداية الحديث. السبب أيها السادة أننا خرجنا من دورة أفريقيـا بسـبب الهـدف الفطيس الـذي دخـل مرمانـا في مبـاراة الكاميرون، والذي سـجله العجـوز "ميلا" في حراسـة اثـنين من خفـراء مرمى مصر الدولي وقفا يشاهدان الكورة وهي تتهادى داخل المـرمى، ويأسفان لعدم وجود كـاميرا معهمـا لتسـجيل هـذه المناسـبة السـعيدة

التي ترشحها للحصول على جائزة الكابتن "كعبلها" الدولية، ولولا هذا الهدف اللعين، فمن يدري؟ ربما لعبنا في الدور قبل النهائي، وربما في الدور النهائي، وربما عدنا في حوزتنا كأس حنين بدلا من العودة بصندل حنين، باعتبار أن حنين الكروي ليس له "خف" ولكن له جزمة "كلارك" من النوع الثمين.

على العموم "هاردلك" للفريق المصري فقد أدى واجبه في حدود إمكانياته وأعطى في حدود طاقاته، وفعل المستحيل من أجل النصر والفشل في دورة الدار البيضاء ليس نهاية الحياة. وكم من دورات قادمة سنواجه فيها الفشل، وكم من دورات قادمة سنحقق فيها النجاح. لأن المهم في هذه الدورات هو التواجد وليس الفوز، والمنافسة وليس النصر، وضياع الكأس مسألة طبيعية للغاية، لأنها لو دامت لغيرنا ما اتصلت إلينا. وأيضا لأن الكأس – في الكرة كما في المنايا – على الأبطال دوار!

مرحبا أيها السجن

تصوروا .. منذ نحو 60 عاما، كتب الكاتب الساخر عمنا الكبير الشيخ عبد العزيز البشري مقالا اتهم فيه رئيس الوزراء وقتئذ، حضرة صاحب الدولة أحمد زيور باشا، اتهمه بالخيانة، وبأنه باع مصر للأعداء. وسخر الشيخ عبد العزيز البشري من رئيس الوزراء قائلا: وبالرغم من خيانة رئيس الوزراء فإنني أعترض على محاكمته، لأن في هذا ظلم لرئيس الوزراء، لأنه ليس شخصا واحدا ولكنه عدة أشخاص. ولا يجوز محاسبة كتفه بما جناه رأسه. ولا يمكن محاكمة (73) بطنه على جرم ارتكبه فخذه .. إلى آخر ما جاء في المقال.

وبالرغم من ذلك حكمت محكمة جنايات مصر برياسة عبد العزيز باشا فهمي ببراءة الشيخ عبد العزيز البشري. وجاء في حيثيات الحكم: أن الرجل العام وعلى الأخص الذي يتولى مسئولية عامة يكون عرضة للنقد وبالأسلوب الذي يراه الكاتب مناسبا كذلك!

ومنذ نحو 60 عاما أيضا كتب المرحوم بيرم التونسي وبالخط العريض على صدر صحيفة المسلة – التي هي لا جريدة ولا مجلة – ملعون أبو المحافظ! وتحت العنوان كتب يقول: بينما كنت أمشي في شارع الأزهر إذ احتك بي نشال ولهف المحفظة من جيبي، فلما اكتشفت السرقة هتفت من أعماقي ملعون أبو المحافظ. والسبب أنني كنت قبل ذلك أضع نقودي في جيبي، ولكن أحد أصدقائي نصحني باقتناء محفظة لحفظ النقود، فإذا بالنشال اللعين ينشل النقود والمحفظة، وهذا هو السبب الذي جعلني أصرخ ملعون أبو المحافظ!

وقضت محكمة جنايات مصر ببراءة بيرم التونسي من تهمة سب المحافظ، لأنه لم يقصد سب محافظ القاهرة، ولكنه كان يسب المحافظ – جمع محفظة – التي سرقها النشال ومعها نقوده!

ومنذ 40 عاما على وجه التحديد كتب العبد لله مقالا عن الفريق محمد حيدر باشا في مجلة "كلمة ونص"، والتي كان يرأس تحريرها الأستاذ مأمون الشناوي، وبعد أن هاجمت حيدر باشا هجوما شديدا، ختمت المقال قائلا: ويعتبره الخبراء العسكريون واحدا من ألمع جنرالات الحرب في العالم، وعلى رأسهم جنرال إليكتريك وجنرال موتورز. ومع ذلك حكمت المحكمة ببراءة العبد لله من تهمة القذف في حق القائد العام محمد حيدر باشا.

حدث هذا منذ 60 عاما وحدث مثله منذ 40 عاما فما الذي يجري في مصر هذه الأيام؟ هل تدهورت الأحوال بصحافة مصر فأصبحت أقل حرية في الثمانينات مما كانت عليه في العشرينات وفي الأربعينات؟

الحقيقة أن قضاء مصر الشامخ لا يزال عند موقفه في قضايا النشر، بالرغم من مساعي البعض في وضع السدود أمامها والقيود في معصميها، وهي مسألة يجب أن يتوقف عندها الصحفيون جميعا ونقابتهم على وجه الخصوص.

أذكر أنني منذ 15 عاما كنت مقدما لمحكمة الجنايات في قضية ضد رئيس مجلس إدارة مؤسسة السينما. وكنت قد اتهمت القائمين على المؤسسة بسرقة أموال الدولة وتهليبها. وكان على رأس المؤسسة رجل يدعى تركي انتقل إلى رحمة الله، وتساءلت في المقال: "هل هو تركي فعلا؟ أم أنه مجرد اسم مثل بقلظ (74) وبقلظ، وباعتبار أنها مجرد أسامي .. والأسامي ببلاش". وقلت أيضا في معرض الحديث عن الفساد الذي يضرب جذوره في المؤسسة: "ولقد شد الضاني السحار إلى الإذاعة، فشدة السحار إلى السينما، ومن شدك تشده ولو بعد حين"! وكان العبد لله وقت نظر القضية يقضي عقوبة مدتها عامان في سجن القناطر في القضية المعروفة باسم مراكز القوى.

وبالرغم من ظروفي التعيسة إلا أن المستشار أبو هيف أصر على منحي الفرصة كاملة في الحصول على المستندات التي تثبت فساد المؤسسة وتبديدها لأموال الدولة. ولم يعجب ذلك القائمين على أمر المؤسسة فسعوا بشدة لنقل القضية إلى دائرة أخرى، ونجح مسعاهم في النهاية فأحيلت القضية إلى دائرة المستشار زكريا حذيفة. وربما اختاروا المستشار زكريا حذيفة بالذات، لأنه كان من ضحايا من يسمى بمذبحة القضاء، ولأنني من مراكز القوى، ولكن لأن القضاء المصري عادل وقضاة مصر فوق مستوى الشبهات، لذلك صدر الحكم في النهاية ببراءة العبد لله، وجاء في الحيثيات: "حيث أن المؤسسة كانت فاسدة فإن القائمين عليها بالضرورة كانوا فاسدين". وأثبت المستشار

العظيم في حكمه التاريخي ضياع 8 ملايين جنيه من أمـوال المؤسسـة بطرق مشبوهة ولعلاقات مريبة.

والجدير بالذكر الآن هو ما قاله شيخ المحامين المصـريين وعمـدة خبراء قضايا النشـر، قـال عمنـا الـدكتور محمـد عبـد اللـه: "إنـه شـيء مؤسف للغاية أن يكتب كـاتب سـاخر في العشـرينات هـو الشـيخ عبـد العزيز البشري يتهم رئيس وزراء مصر بالخيانة ويحكم عليـه بـالبراءة"، وأن يسخر كاتب ساخر آخر في السبعينات من رئيس مؤسسة السينما فنحكم بحبسه مع الحرايمة واللصوص وتجار المخدرات". وتساءل شيخ المحامين المصريين: "إلى أين نحن ذاهبو ن يـا حضـرات المستشـارين العظام؟ وما هو المصير الذي ينتظرنا جميعا إذا تعقبنا كل صـاحب قلم، وكل صاحب رأي، ودفعنا بهم إلى السجون؟" وأغرب شيء أن الـدكتور محمـد عبـد اللـه لم يكن مـوكلا للـدفاع عن العبـد للـه، ولكنـه حضـر كمشاهد للقضية، وهو الذي طلب الكلمة، ورحبت به المحكمة، باعتباره هو الحجة في هذا المجال.

وأذكر أنه قال في مستهل مرافعته، أنني سعيد أيها السـادة لأنـني أحضر هذه القضية أمام محكمة الجنايـات، فمنـذ عهـد طويـل لم تنظـر محاكم الجنايات عنـدنا إلا قضـايا المخـدرات والقتـل والسـطو المسـلح والاغتصاب. وهذه أول مرة منذ ربع قـرن تنظـر فيـه محكمـة الجنايـات قضية من قضايا النشر، بعد أن خيل إلينا أن مثل هـذه القضـايا صـارت جزءا من متحف التـاريخ، وأن وصـول مثلهـا إلى محكمـة الجنايـات هـو ضرب من المستحيل، كالغول والعنقاء والخـل الـوفي، ولـذلك حضـرت لكي أشاهد بعيني وأستمع بأذني إلى مـا يـدور في هـذه القاعـة، ولكي أرى بنفسي صحفيا يجلس في قفص الاتهام خلف القضبان.

(75) وبعد مرافعة الدكتور محمد عبد الله لم تجد هيئة الـدفاع مـا يدعوها إلى المرافعة أمـام المحكمـة، وكـانت هيئـة الـدفاع مكونـة من

الأساتذة عبد الـرؤوف علي وصـبري مبـدي وعبـاس الأسـواني وعـدب الحميد قطامش. وأذكر أن جميع الصـحف رفضـت يومهـا نشـر الحكم حـتى كـإعلان. ولم تنشـره إلا مجلـة صـباح الخـير لأنهـا كـانت صـاحبة مصلحة في النشر، لأنها هي التي نشرت المقال ونشـرته أيضـا جريـدة الأخبار، وهو موقف أذكره لها ولا أنساه.

ويبقى بعد ذلك إن التعديل الـذي تم إدخالـه منـذ ثلاثين عامـا على المادة 123 من قانون الإجراءات كان يهدف إلى حماية الموظف العام الذي يشترك أو يتواطأ مع لصوص المجتمع الكبـار، الـذين تمكنـوا خلال فترة طويلة من الزمان من نزح كنوز مصر والفرار بها إلى خارج البلاد. ولكن .. وبالرغم من ذلك تمكنت الصحافة المصرية من ضبط عشرات النصابين والقبض على عشرات اللصوص، وكانت صاحب الفضـل الأول والأخير في كشف رشاد عثمان وعصمت السادات والحاج محمد لطفي والمرأة الفولاذية. ولولا الصحافة لظل هؤلاء يمارسـون عمليـات النهب والسلب حتى الآن.

وبعد .. لقد قدم العبد للـه إلى محكمـة الجنايـات ثلاث مـرات في قضايا نشر، وأكثر من عشـر مـرات أمـام محـاكم الجنح مـع غشاشـين اللبن وحراميــة طاســات الســيارات، وكــان الحكم بــالبراءة في كــل الأحوال. وعلى العموم .. العبد لله دخل السجن ثلاث مرات في قضــايا سياســية ملفقــة، فمــا المــانع من دخــول الســجن في قضــية نشــر، وسأوصي أبنائي بأن يكتبوا على قبري بعد موتي .. هنا رجل عــاش من أجل الكلمـة وسـجن بسـببها، ومـات حزينـا .. لأن المـوت سـيمنعه من مطاردة اللصوص والنصابين والأدعياء.

المهلباتي والمهلباتكو!

(78) كلنا نسمع عن التهليب والمهلباتي. ولكن هل تعرف من هو المهلباتي؟ بعض الناس تعتقد أن المهلباتي هو الحرامي أو الأونطجي أو النصاب. ولكن الحقيقة عكس ذلك على طول الخط.

فالتهليب مهنة محترمة يزاولها بعض الناس، ويحصلون على رخصة من الحكومة للتهليب! وبعد حصول المهلباتي على الرخصة، يصبح عضوا محترما في الهيئة الاجتماعية، وقد يصادفه الحظ فيصبح مليونيرا وبنكيرا، وقد يصادفه النحس فيشيب شعر رأسه ويصاب بالشيخوخة، وقد يلقى حتفه قبل الأوان! ولذلك أقلعت عن وصف حرامية البنوك ولصوص المال العام بالمهلباتية.

فحرامي البنوك ليس من طبقة المهلباتي، ولكن يمكن وصفه بالمهلباتكو، وعلى وزن الشركات التي يؤسسها جماعة أهل الخير، ومن عينة شركات عزيزكو وعبد العاطكو وهيدكو وزمزمكو وعطوتكو إلى آخر هذا النوع من الشركات التي ابتلانا بها الزمان.

أما مهنة التهليب الحقيقية فهي مهنة بسيطة وإن كان رزقها واسعا. وهي تحتاج إلى خبرة وتحتاج إلى رأسمال وأيضا إلى حظ. ولكن رأسمالها بسيط بساطة المهنة نفسها. وهو لا يزيد عن قارب بخاري سريع ومساعد نشيط، وهلب من الذي تستعمله المراكب، وسلك طويل من الصلب.

ويبدأ المهلباتي يومه بمسح منطقة الميناء، فإذا كان المهلباتي من بورسعيد أو من السويس، فهو يمسح منطقة الميناء أولا، ثم ينطلق بعد ذلك وعلى طول القناة، ساحبا هلبه خلفه، وكل مهلباتي ونصيبه،

وكـل مهلبـاتي ورزقـه، الهلب يشـبك في صـندوق، يشـبك في حقيبـة، يشبك في شوال، المهم أن المهلباتي عندما يشـعر بـأن الهلب، شـبك، يقول بسحب الهلب على الفور، وينتشل الرزق الذي أرسله البحــر إلى السـيد المهلبـاتي! أحيانـا يكـون الصـيد صـندوق ويسـكي، أو شـوال بطـاطس، أو (79) صـندوق شـاي، أو صـندوق جـواهر، وكـل واحـد ورزقه .. ويرزق من يشاء بغير حساب!

ولكن يا داهيـة دقي إذا جـاءت الريـاح بمـا لا يشـتهي الهلب. مـرة سحب المهلباتي صندوقا كبيرا من البحـر، فـإذا بـه صـندوق متفجـرات، وهكذا فقد المهلباتي عينيه وإحدى ذراعيه، وكاد – لولا لطـف اللـه – أن يفقد حياته. ومرة اكتشف المهلباتي إن الهلب اصطاد جثـة مشـوهة ثم تبين بعد ذلك إنها لجندي إسرائيلي من قتلى حـرب أكتـوبر، وأن نصـف الجثـة لم يـذهب عبثـا، وإنمـا ذهب طعامـا للأسـماك وهكـذا تـرى أن التهليب مهنة محترمة، والمهلباتي مـواطن شـريف يعتمـد على الخـبرة ويعتمد أيضـا على الحـظ، كمـا أنـه مـواطن صـالح ومغـامر وعلى بـاب الكريم. وقد يصبح مليونيرا في تهليبة، وقد تقضي عليه تهليبة.

ولذلك توقفت، وينبغي أن نتوقف جميعا عن إطلاق اسم المهلباتية على حرامية البنوك ولصوص المال العام. لأن المهلباتي بالشكل الـذي شرحناه، هو مواطن شريف ووجود ضروري لتطهـير الممـرات البحريـة من مخلفـات السـفن العـابرة. أمـا لصـوص البنـوك، فهم أحقـر أنـواع المجرمين الذين عرفتهم مصر في تاريخها، وهم أخطر أنواع الإرهـابيين على الإطلاق. ولكنـا للأسـف الشـديد نطبـق قـانون الطـوارئ على الإرهابيين الذين يطلقـون النـار على خصـومهم السياسـيين، ولا نطبـق القانون ذاته على الذين يقتلون الوطن نفسـه، ويزهقـون روح الشـعب كله، مئات وألوف من الحرامية والمحتالين كنسوا البنوك ونهبـوا المـال العام. واكتفينا بسجن الواحد منهم عدة أشهر ومصـادرة مـا تبقى لديـه

من أموال وممتلكات. وهي في الغالب لا تكون أكثر من بضعة قروش في بنك، وبيت حكر في حارة الشطوشي، ودبلة زواج من أيام الفقر! ويدعى الحرامي من دول أن الفلوس ضاعت في السوق.

وتسأل: أي سوق؟ فلا تجد جوابا على الإطلاق. لأن السوق بريء من أموال النصاب براءة الذئب من دم ابن يعقوب. ويغادر الحرامي من دول سجنه ليهاجر بعد ذلك إلى أستراليا أو أمريكا أو أوروبا ليصبح فيما بعد صاحب شركات أو صاحب أعمال، أو يتبجح أكثر كما فعل توفيق عبد الحي فيصبح صاحب جريدة، ويناضل على صفحاتها ضد الأوضاع الخاطئة في مصر!! والعبد لله لا يعرف لمن يكون قانون الطوارئ إذا لم يكن لهؤلاء. لقد طبقنا قانون الطوارئ على التنظيمات السياسية التي تستخدم المدافع في الحوار وهذا عدل، وطبقناه على تجار المخدرات وعلى تجار العملة في السوق السوداء .. وهذا أيضا عدل. ولكن هل تجار المخدرات أشد خطرا من لصوص البنوك؟!

هل تجار العملة الصعبة في السوق السوداء أكثر إجراما من حرامية المال العام؟ إن سيدة حلوة ليس لها سابق عهد بأعمال التجارة ولا بأشغال المقاولات استطاعت أن تقيم في مصر إمبراطورية، ولهفت ملايين الجنيهات، لهفتها (81) بالرشاوي وبالهدايا وبالإكراميات، وأطلقت على نفسها اسم المرأة الحديدية، والمرأة الشيطانية، والمرأة العجمية، واستطاعت بفلوسها أن تفرض اسمها ورسمها على كل صحف مصر القومية والقطرية أيضا!

ومن أخبار هذا الأسبوع أن المستشار محمد الجندي النائب العام أصدر قرارا بمنع ثلاثة أشقاء أصحاب شركات نسيج وتريكو من السفر والتحفظ على أموالهم وأموال أولادهم، ليه؟ لأنهم استولوا على 8,5 مليون جنيه من أموال البنوك. 8,5 مليون جنيه يا كفرة؟ طيب لو ذهب العبد لله أو أي مواطن مصري إلى أي بنك وطلب سلفة 8,5 جنيه

فقـط من غـير المليـون ولا أي حاجـة، فهـل يعطيـه البنـك هـذا المبلـغ المتواضـع الـذي يحتـاج إليـه؟ النتيجـة سـتكون الـرفض ولا شـيء غـير الـرفض. ولكن عنـدما يطلب ثلاثـة أشـقاء من عائلـة واحـدة ليس لهـا شـهرة تجاريـة، ولا سـابق اشـتغال بأيـة أعمـال، إلا إذا كـانت الصـياعة تدخل في باب الأعمال، عنـدما يطلب هـؤلاء 8,5 مليـون جنيـه كقـرض حسن وإلى حين ميسرة، فالموافقة تتم في الحال، ليه؟

فهـل صـحيح كمـا يشـاع أن هنـاك رش ضـخمة حـدثت بين الـذي أقرض والذي اقترض؟ لأن عائلة اسمها الثقفي أو الصيرفي أو الصردي لا يمكن أن تكون موضع ثقـة إلي الدرجـة الـتي تهـبر فيهـا 8,5 مليـون جنيه بدون أي ضـمانات. ولا بـد أنهم اقترضـوا المبلـغ بأسـلوب شـيلني وأشــيلك، ويــا بخت من نفــع واســتنفع، وأطعم الفم تســتحي العين، وتراعيني مليون أراعيك اتنين!

وهذه البنـوك الـتي أقرضـت 8,5 مليـون جنيـه لعائلـة عريقـة من عائلات حوش بردق ليست من عينة بنك حـبيب أو بنـك زليخـة، ولكنهـا بنوك محترمة من بينها بعض البنوك الإسـلامية، ولا عتـاب ولا ملام على البنــوك الإســلامية، باعتبــار أن في أمــوالهم حــق معلــوم للســائل والمحروم، ويبدو أنهم بعد أن بحثوا وتقصـوا اكتشـفوا أن العائلـة إياهـا غلبانة يا عيني وكبدها ناشف من قلة الزاد، وإنها من النوع الذي ينــدرج تحت بند السائل والمحروم! ثم إيه يعني 8,5 مليون جنيه! في بنك ربنا أكرمه يابا، وجعل الناشفة في إيده خضرة، بسبب رضا الوالدين وبركـة دعاء المستثمرين!!

ولكن الذي يكاد يقتلني غما هو موقف بنوك القطـاع العـام. وعلى رأي المثل عد غنمك يا جحا، قـال واحـدة واقفـة وواحـدة نايمـة! كيـف سـمحت هـذه البنـوك لنفسـها وهي بنـوك دولـة مدينـة؟ أن تمنح 8,5 مليـون جنيـه لعائلـة مضـروبة تـدير شـركات نصـب من عينـة عزيزكـو

وصـادفكو دون أيـة ضـمانات حقيقيـة. ابحثـوا الأمـر أيهـا السـادة، فستكتشفون أن هذه العائلـة لم تحصـل إلا على 4 ملايين جنيـه فقـط، والباقي أخذ الباقي إلى جيوب آخرين اطمـأنوا إلى أن صـاحب القـرض مسنود وظهره جامد وجيبه عامر بفضل الله ولقـد كـان من الممكن أن نغفر لهذه البنوك لو (82) أنها منحت القروض لعائلات من نـوع طلعت حرب أو اللوزي أو فرغلي، باعتبار أنها عائلات اقتصادية، ويمكن لها لـو توافر عندها فائض أموال ورغبـة في العمـل أن تحقـق شـيئا لـه قيمـة، ولكن أن نعطي أموالنا لعائلات حكشة وبـرعي وأبـو الليـف وسمسـون أرضي، ولشركات من نوع حافظكو وحارسكو، فهي مسـألة تحتـاج إلى وقفة مع العدو قبل الصديق، وإلى ضرورة فرض قانون الطـوارئ على كل الذين نهبوا أمـوال مصـر في الفـترة الماضـية وتسـببوا في خـراب مصر، ولم يفعل ذلك في تاريخ مصـر من قبـل إلا نبوخـذ نصـر البـابلي وبن عثمـان الـتركي وبن ديـان اليهـودي، عنـدما دخـل سـيناء وشـفط بترولها وسرق آثارها ونهب حتى قضبان السكة الحديد!

صدقوني أيها السادة حين أقول لكم إن الذي حدث في مصـر في مرحلـة الانفشـاخ التهليـبي لم يحـدث من قبـل في بلـدنا إلا في عصـر قناصل الدول الأجنبية، ولكن عذر الذين نهبوا مصر في الأيام الخـوالي، أنهم كانوا جميعا من صـنف الأجـانب، قبارصـة على أروام على طلاينـة على صياع من مالطة على خواجات من فرنسـا ومن بلاد نهـر التـايمز. أمـا الـذين نهبـوا مصـر في تلـك الفـترة القريبـة فهم كلهم من مصـر، وأغلبهم من طبقة الصياع، وأسماؤهم تنم عن البيئة الـتي نشـأوا فيهـا، والأزقة التي ترعرعـوا في سـراديبها، زينهم وعبـد الحي وعبـد الحافـظ وعباد وعبده والسكاسنجي، وهؤلاء بـرغم انحطـاطهم وجهلهم، عـاملوا مصر كمستعمرة، وربما باشد مما فعل بها المستعمر المحتل! لم يتقوا الله، ولم يخشوا عذاب يوم عظيم.

والسؤال الآن: أين ذهبت هذه المليارات التي نهبها هـؤلاء السـادة الذين يدعون الآن أنها ضاعت في السوق؟ الأكيد أن هـذه الأمـوال في الخارج، وهي أموال تستطيع سداد ديون مصر فضـلا عن إنعـاش مصـر ووضـعها على أول طريـق الرخـاء والسـلام الاجتمـاعي. ولقـد قـال لي الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل في الأسبوع الماضي إنه قرأ تقريـرا اقتصـاديا عالميـا صـدر في الفـترة الأخـيرة، وأن التقريـر قـال بصـريح العبارة أن السـادة الهـابرين يملكـون في بنـوك أوروبـا وأمريكـا وجـزر البهامز، 69 مليار دولار بالتمام والكمال!

ونستطيع إعادة هذه الأموال لو طبقنا قانون الطوارئ، ولـو أخـذنا جميع الهابرين بربطة المعلم وحبسناهم في معتقل الواحـات الخارجـة، لا يخرج منه أحد على الإطلاق، إذا إذا أعاد إلى مصر ما هلبه من البنـك وهربه خارج البلاد! جربوا هذه الوصفة، وصدقوني .. ستكون هذه بداية طيبة لإنعاش البلاد والعباد.

*****

الوزير أحمد سلامة رجل طيب القلب حسن النية، فقد أعلن أمـام مجلس الشعب في الأسـبوع الماضـي أن ميـاه الشـرب نظيفـة ونقيـة ومثل زوجة قيصر فوق مستوى الشبهات! وأعلن أيضا أنه لا توجه حالة تسمم واحدة نتيجة مياه الشـرب وأن (83) المستشـفيات لم تبلـغ عن حـوادث من هـذا النـوع لا في الأسـبوع ولا في هـذا الشـهر ولا في أي وقت على الإطلاق.

طيب مـا رأي السـيد الـوزير أن العبـد للـه أصـابه التسـمم في الأسبوع الماضي بعـد أن شـربت كـوب ميـاه واحـدا من ميـاه الحنفيـة. والغريب أن ابني أكرم وهو شاب وصحفي وعاقل ورشيد أيضـا نبهـني قبل أن أشرب أن المياه لها رائحة تشبه رائحـة .. ولا مؤاخـذة! ولكـني لأني من جيل الوزير أحمد سلامة، ولأني أيضا طيب القلب وحسن النية

فقد نهرت ابني أكرم باعتباره من الجيل الجديد الـذي لا يعجبـه العجب ولا الصيام في رجب. وبعـد هـذا الكـوب من المـاء رأيت المـوت وجهـا لوجه وتعرفت عليه شخصيا، انتابتني حالة مثل حالة المصاب بـالكوليرا وأشد.

والحق أقول أنني لم أذهب إلى مستشفى، ولكن اتصـلت تليفونيـا بالطبيب الدكتور عبد المعز وشرحت لـه الحالـة فطمـأنني بـأن الحالـة ليست خطيرة، وأمرني بالكف عن الشرب من مياه الحنفية، وقال إنهـا تسـبب حـالات من هـذا النـوع وإنهـا منتشـرة هـذه الأيـام وأنهـا تحمـل ميكروبـا لا يعيش إلا في المجـاري، وهـو ميكـروب اسـمه سـلامونيا أو سلاميا أو شيء من هذا القبيل. وقـال إن هـذه الحالـة منتشـرة بشـدة وإنه عالج منها هذا الأسبوع أكثر من عشر حالات!

هـل لا يـزال الـدكتور أحمـد سـلامة مصـرا على أن ميـاه الشـرب نظيفة ونقية ومثل زوجة قيصر فوق مستوى الشبهات؟ إذا كان لا يزال مصرا، فق ذكرني بحكاية ظريفة رواها لي صديقي الحاج إبـراهيم نـافع وهو مزارع وصاحب عزبة في المنصورية. فقد ذهب مرة لشراء سـماد طبيعي من مخلفات البشر. لزوم تسميد أرضه الزراعية، وسأل الحاجة صاحبة الشيء إياه عن سعر المـتر فقـالت الحاجـة: مائـة جنيـه للمـتر، وقال الحاج إبـراهيم للحاجـة صـاحبة الشـيء إيـاه: مش السـعر غـالي شوية يا حاجة؟ ووضعت الحاجة يدها تحت خدها في هـدوء وقـالت في صوت خافت: "خش اتفـرج بنفسـك، احنـا بضـاعتنا نضـيفة". وإذا كـان الـوزير يقصـد أن بضـاعة الحنفيـة نضـيفة بهـذا الشـكل، فأنـا موافـق ومسرور ومسموم ...

أفندم !!

على قهوة إنديانا!

(86) خلال رحلة الحياة الطويلة وعلى طريق صاحبة الجلالة الصحافة تعرفت على عتدد كبير من الملوك والزعماء والرؤساء والقادة. كان أول الملوك الذين التقيت بهم هو الملك محمد الخامس ملك المغرب بعد عودته مباشرة من منفاه .. واكتشفت خلال اللقاء أن الملك العربي كان يحلم – بداية – بوحدة من طنجة إلى طبرق، أو بوحدة الكسكسي والجلاب على حد تعبيره ... والكسكسي هو الطعام الشعبي للمغرب العربي كله، والجلاب هو الزي القومي.

واكتشفت أيضا أن بيني وبين الملك هواية مشتركة هي الاستماع إلى صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد. وطفت تونس كلها مع الزعيم بورقيبة عقب خلع الباي وإعلان الجمهورية ورأيت على الطبيعة كيف يكون الزعيم شعبيا. فهي فطرة لا يمكن لأحد أن يصنعها لأحد أن يصنعها أو يصطنعها.

كانت فطرة في سعد زغلول وفي مصطفى النحاس وفي جمال عبد الناصر، وعرفت شكري القوتلي وهو رئيس سوريا، وأحببته وصادقته أيضا. ونهاني بشدة عن إطلاق لفظ الكاميرا على آلة التصوير. ونبهني إلى ضرورة استخدام الاسم العربي الصحيح. وسألته: وما هو الاسم الصحيح للكاميرا؟ قال: اسمها العكس. ليه؟ لأنه تعكس صورتك على الورق الحساس.

وتعرفت على الرئيس بومدين خلال اشتعال الثورة في جبال الجزائر، وقضيت معه ليلة كاملة في معسكر العربي بن مهيدي على الحدود المغربية الجزائرية، وكان يحلم بجزائر جديدة وقوية وعربية!

وجلست على الأرض مع الرجل العربي البسيط الشيخ زايد، عندما لم يكن في أبو ظلي سوى السماء والأرض، وكان يحلم هو الآخر بدولة عامرة وفتية ومتحدة وممتدة من البحرين وإلى كالباء!

وتعرفت على أكرم الحوراني عندما كان الحاكم الحقيقي في دمشق، وأعجبني ذكاؤه وحماسه، ومن شدة إعجابي به أطلقت اسمه على اسم ابني الوحيد .. أكرم.

(87) وكان هو الآخر يحلم بدولة قوية وعفية ومقتدرة ولايات عربية متحدة ومتماسكة .. من مراكش وإلى صنعاء ..

وعشرات غير هؤلاء تعرفت عليهم خلال رحلة الحياة الطويلة .. الملك فهد بتواضعه وبساطته وأمين الحافظ رئيس سوريا الأسبق باستقامته وشجاعته. ونكروما بأحلامه وأحزانه وإسماعيل الأزهري بطيبته وسماحته وأمير البحرين بروحه المرحة وذكائه الوقادة ومعمر القذافي بحيرته وقلقه. ومحمد أحمد محجوب بفنه وثقافته ..

صدام حسين

وفي بيت السفير المصري عبد العزيز إسحق في القاهرة تعرفت على معظم زعماء أفريقيا الذين نجحوا والذين فشلوا، والذين ماتوا قبل أن يحققوا الحلم والذين أفنوا العمر في سبيل تحقيقه، ثم عندما تحقق الحلم كان العمر قد ولى! ورأيت جيفارا في منزل صديق بالقاهرة، واندهشت عندما رأيته لقد كان يبدو فنانا أكثر منه قائدا للثورة .. وتعرفت في بيت الفنان طوغان على رجل غريب من بلاد بعيدة كان يعيش في القاهرة. رجل يدعى شيدي جاجان. وكان يكافح على بعد ألوف الأميال لتحرير بلاده .. جامايكا .. وبالرغم من بعد المسافة وسوء الظروف والأحوال، فقد نجح الرجل في النهاية وعاد

حاكما لبلاده ولكنـه لم يلبث طـويلا في كرسـي الحكم .. فسـرعان مـا انقضوا عليه وقضوا على نظامه.

وما أكثر الرجـال المشـاهير الـذين التقيت بهم خلال رحلـة الحيـاة الطويلة ولكنأغربهم كان شابا صغيرا يجلس صـامتا على مقهى في حي الدقي هو مقهى إنديانا. كان اسـمه صـدام حسـين، ولكن الظـروف لم تتح لي أن أتعرف عليه بما فيه الكفاية. فقد كان شـاردا ومشـغولا على الدوام وكان هو نفسه الذي ذكرني بتلك الأيـام البعيـدة وعنـدما سـألته عن سبب صمته وشروده في تلك الأيام. قال: لأنني كنت أحلم. وبمــاذا تحلم يا عم صدام؟ بأمة عربية قويـة وعزيـزة وكريمـة ومقتـدرة – لقـد حدث عكسه تماما كما يحدث دائما للأحلام – يتـذكر الآن حلمـه القـديم وهو قـابع في مخبئـه تحت الأرض هـا هي النـار والنـار من فوقـه تأكـل الكويت وتكاد تقضي على العراق وتمزق العالم العربي وتبعـثره أشـلاء في الهواء!! وأمجاد يا عرب أمجاد! ولكنها الحياة، صعود وهبوط، وتلال ووديان وقمم وسفوح وتمضي الأيام والناس أيضـا، ولا يبقى إلا الكلمـة الطيبة والعمل الصالح!

ليالي المنصورية

لا أعرف أي سبب مقنع لتأجيل الجـزء الرابـع من مسلسـل ليـالي الحلمية، وعرض مسلسل آخر بدلا منـه في رمضـان القـادم .. وأعتقـد أنــه مسلسـل ليـالي الإسـكندرية (88) أو ليـالي المنصـورية، أو ليـالي الطرمسية، نسبة إلى كفر طرمس.

يقــول البعض أن المسلسـل حسـاس، لأنــه سـيتعرض للمرحلـة الحاليـة من مصـر، ويتنـاول فـترة الانفتـاح ومـا صـاحبها من انفشـاخ، ويتعقب الذي عبر والذي هبر، والذي خرج من المولد .. يـا مولايـا كمـا خلقتني! وأسـأل بـدوري حضـرات السـادة المسـئولين عن مسلسـلات التليفزيون .. وما له؟ لنفرض أنه سـيتعرض لكـل هـذه الأشـياء ... فمـا

المانع؟ وما الضرر؟ ومهما كانت نبرة المسلسل فستكون شهادة حق لهذا النظام الذي نعيش في ظله الآن .. والسبب أن هذا النظام الذي يحكم مصر هذه الأيام هو الذي وضع رشاد عثمان خلف القضبان، وهو الذي قدم عصمت السادات لمحكمة القيم وهو الذي حبس دم محمد لطفي وطارد المرأة الفولاذية وقصم ظهر الفساد، وأطاح بالهبيشة والخطافة، والذي في أيديهم كلابات لزوم التقليب والتهليب.

لا بأس إذن من عرض صور الفساد ولا جناح على من يتناول حياة الفاسدين حتى ولو كان بعضهم من كبار الموظفين أو صغارهم. لأنه لا يوجد على ظهر الأرض دولة واحدة كل الموظفين فيها من أولياء الله الصالحين.

وسر نجاح مسلسل ليالي الحلمية أنها تناولت بالنقد والتجريح والتشريح شخصيات لها وجود في حياتنا. الست الهانم الملعب، والباشا الهجاص، والعمدة الثعلب، والفدائي الحقيقي والفدائي النصاب، واستعراض المسلسل نماذج بشرية شتى، بعضها تدحرج من فوق وبعضها تشعلق من تحت. وهذا هو سبب انتشار المسلسل وتعلق الجماهير به ومن تصاريف القدر أن أغلب مسلسلات التليفزيون وقصص الأفلام أيضا تتناول حياة بشر لا نعرفهم وشخصيات لم نقابلها من قبل، وليس هناك احتمال بأننا سنقابلهم في أي وقت، وشخصيات هبلاء، إذا أحبت تحب على طريقة قيس وليلى، وإذا قاتلت تقاتل كما عنترة وكما أبو زيد الهلالي سلامة، وتجد شخصا يقع في دباديب واحدة ست معصعصة، شفايفها في حجم شفايف رتيبة حنفي. ولا تسألني عن من تكون رتيبة حنفي لأنني لا أعرفها، ولا أعتقد أن هناك أحدا يعرفها في أي مكان. المهم أنه يفضل يحب ويواصل الحب ويستأنف الحب،

ويموت في الحب، وحتى ينتهي المسلسل أو الفيلم دون أن تعرف .. ليه .. أو ايه!

فتش عن الرقيب

والعبد لله يعتقد أن السبب المباشر لهذا الهرش مخ الدولي الذي نغص علينا حياتنا ونكد علينا عيشتنا هو إدارة تعيش في عصر الخديوي عبد السميع وهي تعتقد أن كل مستوظف حكومة مقدس (89) وكل صاحب مهنة محترمة هو آية من آيات الله. وهي تعترض على أي عمل فني يتعرض لرجل الشرطة – اللهم إلا عسكري الدرك – باعتبار أن الشرطة في خدمة الشعب. وممنوع على أي عمل فني أن يتعرض لمحام. ليه؟ لأن المحامي هو نصير العدالة وخادم القانون. وإذا تناول العمل الفني أحد رجال الصحافة، هاجت الصحف وماجت وتدخل الرقيب على الفور .. لماذا؟ لأن الصحافة هي السلطة الرابعة، وهي صاحبة الجلالة، وكل العاملين في بلاطها في طيبة أبي موسى الأشعرب وفي ورع علي بن أبي طالب، وفي نزاهة عمر بن الخطاب.

أما إذا تناول العمل الفني وزيرا أو وكيلا أو مديرا عاما فيا داهية دقي .. ليه؟ لأن هؤلاء جميعا مثل زوجة فرعون لها قصر في الجنة، ومثل زوجة قيصر فوق مستوى الشبهات.

ولذلك تدور أعمالنا الفنية في مجالات ضيقة، وهي لا تتناول بالنقد والتجريح إلا فئات معينة وهي غالبا مقهورة ومكسورة الجناح دائما .. مدرس غلبان، موظف كحيتي، ممرضة كحيانة، ساعي بريد تعبان، ومن هنا يأتي التكرار ويصيبنا الملل، لأن الشخصيات في كل الأعمال الفنية واحدة ولا تتغير!

ولكن في البلاد إياها مفتوح على البهلي والكل عرضة للنقد وعرضة للتشريح .. لأنه ما دام الإنسان قد تولى عملا عاما، واتخذ

لنفسه مكانا تحت الضوء وأمام الجميع، فمن حق هؤلاء الـذين تصـدى، لخدمتهم أن يتصدوا لنقده. حـتى ولـو كـان النقـد جارحـا أو قادحـا أو لا يتفق مع أخلاق القرية.

وفي المسلسـلات التليفزيونيـة في البلاد إياهـا شـاهدت أعمـالا أبطالهـا رجـل شـرطة وأعضـاء في المجـالس النيابـة ووزراء وقضـاة ومحافظين ورجال دين. لأنه في تلك البلاد لا أحد له حضانة أمـام الفن، حتى القضاء والحكومة والشرطة!

والآن .. هل أجد عند أحد من السادة العارفين ببواطن الأمور سببا واحدا يقنعني بتأجيل مسلسل ليالي الحلمية؟ خصوصا وأن هذا النظـام الذي نعيش في ظله لم يكن السبب في الفساد الذي نعيش فيـه، كمـا أنـه لم يتـورع عن مطـاردة الفسـاد وضـربه، ثم مـاذا يمكن أن يقولـه المسلسل أكثر مما قـالت الحكومـة؟ وهي الـتي قـدمت إلى محاكمـة الجنايـات محافظـا وأكـثر من رئيس وأكـثر من وكيـل وزارة وأكـثر من رئيس حي.

يـا بتـوع المسلسـلات في تليفزيـون مصـر، أفرجـوا عن ليـالي الحلمية، لعل الله يرحمكم يوم الموقف العظيم .. قولوا إنشا الله ..

آك سوري أكواني!

(92) وآك سوري إكـواني على رأي أخواننـا في جنـوب السـودان. وسوف أشرح لحضراتكم معنى العبارة حـتى تتفهمـوا أبعادهـا وتـدركوا مغزاها وتتحسسوا مرماها وهو مرمى منيع من الشبكة بالنسبة لكبـاتن النادي الإسماعيلي.

فآك بمعنى أخ في لغتنا الدارجة، وهي تعني الأسف مع الحسرة مع الندم مع الغم وأقول الغم ولا أقول الهم لأن الغم – بعيد عن القراء – هو الإحساس بوكسة الماضي والبكاء على شيء حدث من قبل أما الهم فهو شعور أرقى من الغم لأنه شعور بالقلق على المستقبل، والخوف من هاجس يحيط بالآتي.

وسوري هي كلمة Sorry "آسف" بلغة الإنجليز وأبناء العم سام وسكان أستراليا وأكواني هي نفسها إخواني بالبلدي الفصيح لولا أن جماعتنا في جنوب السودان يقلبون الخاء كافا لغرض في نفس يعقوب.

ولغرض في نفس يعقوب وإسحق وإبراهيم أيضا، أزفر أنا الآخر بهذه العبارة ليس حزنا ولا غما على الماضي فقط، ولكن حزنا وهما على الحاضر والمستقبل أيضا .. فنحن العرب حكمة الله برعنا في عملية الشجب يحسدنا عليها أهل الأرض جميعا كلما رزعتنا إسرائيل المزعومة علقة سخنة شجبنا العدوان الغادر، وهناك عدوان غادر وعدوان طيب وعدوان لطيف وعدوان ابن ناس، وعندما ذهب السادات إلى القدس انهالت تصريحات الشجب من كل صوت وحدب، وأقبلت قوافل الشجوب – جمع شجب – من كل فج عميق! وقتئذ كان العبد لله يقيم في بغداد، وكانت بغداد هي التي استنفرت العرب للوقوف في وجه المبادرة الساداتية وضمني تلك الليلة مجلس حضره أعضاء من الوفد السوري والوفد الأردني والوفد الجزائري وبعض الإخوة العراقيين وأنا – حكمة الله – صريح كما أهبل في زفة، صافي النية كما عبيط في قرية. ولما كان الحديث كله عن ضرورة حشد الأمة العربية لشجب المبادرة الساداتية. وحشد الأمة المصرية للإطاحة بأنور السادات، فقد انسحبت من لساني وقلت للحاضرين أن شجب الدنيا كلها لن يفيد في مواجهة هذا الأمر. وعندما سألوني عن البديل في

رأي العبد لله، قلت ليس (93) هناك سوى بديل واحد، هو أن تحتشد جيوش جبهو الصمود والتصدي وتهجم على دولة إسرائيل المزعومة، وليس هناك سوى احتمالين ولهما نتيجة واحدة أن تهزم جيوش "الصمود والتصدي" دولة إسرائيل المزعومة أو تنهزم جيوش "الصمود والتصدي"، وتنتصر دولة إسرائيل المزعومة.

وفي الحالة الأولى ستسقط دولة إسرائيل وتذهب مبادرة السادات في الكازوزة .. وفي الحالة الثانية ستنقلب الأحوال داخل مصر، لأن جيش مصر البطل لن يقف مكتوف اليدين وجيوش العرب تقاتل معركة المصير ضد العدو وأقول الحق لحضراتكم. صوت الجميع نحوي نظرات غريبة، ترجمت بعضها على أنني أبله، وبعضها على أنني حقير، وبعضها على أنني ولد صغير لم يدرك حقائق الحياة بعد.

ولم أنزعج على كل حال لهذه النظرات فقد أكون بالفعل تافه أو أبله أو طفل صغير لم أدرك حقيقة الحياة بعد ... ولكن نظرة من هذه النظرات أزعجتني بشدة وجعلتني أتقلب في فراشي كالمحموم طول الليل نظرة رمقني بها كادر حزبي يبدأ كلامه دائما بكلمة واحدة لا تتغير هي كلمة "الواقع وفي الواقع فإن الانسلاخ من جسم الموضوع من أجل الحصول على تمايز طبقي هو في الأصل وفي الواقع فإن الشواشي العليا للبرجوازية تهدف أولا .. وفي الواقع فإن الحنجوري على قفا الشفق من أجل...

وفي الواقع إلى آخر هذا الكلام الهرش مخ والذي حتما ولا بد يبدأ دائما بكلمة "في الواقع" كانت نظرة الأخ الحزبي إياه تعني بصريح العبارة أنني جاسوس! وبالرغم من أنني أهبل وتافه وعبيط وطفل ولا أدرك حقائق الحياة بعد فقد كان تفسيري لنظرة الأخ إياه صوابا في صواب وهو نفسه الذي تولى تفسير الأمر للعبد لله بعد تلك الليلة بعام

كامل فالدعوة إلى حشد جيوش العرب من أجل معركـة ضـد إسـرائيل هي في الواقع دعوة لصالح إسرائيل إليه؟

لأن دول الصـمود والتصـدي مهمتهـا الصـمود فقـط داخـل أرضـها والتصدي فقط للعرب الذين يتصلون بإسـرائيل المزعومـة أمـا الـدعوة للحـرب في غـير الـوقت المناسـب وفي غـير المكـان المناسـب، فهي مؤامرة لتحطيم قوة العرب وتسـليم رقـاب العـرب لإسـرائيل ولـذلك، فمن واجب "الثوريين" العرب أن يحتشـدوا للشـجب، وعليهم مواصـلة الشجب، والإصرار على الشـجب حـتى يصـبح الـوقت مناسـبا للمعركـة والمكان أيضا، مع التأكيد على أن المعركة لن تنشب إلا بمصـر وبجيش مصر لأنه لا معركة بغيرها ولا حرب وجيش مصر بعيد عن الميدان، بعد هذه الجلسة بأيـام حضـرت نـدوة للسـيد عبـد الحليم خـدام في لنـدن، وكان وقتئذ يشغل منصب وزير الخارجية السورية، وكان يحضـر النـدوة معنا زعيم حزب الكهربـاء وهـو أحـد خـدم الـزعيم الراحـل جمـال عبـد الناصر وعندما مات الزعيم كان الخادم إياه لا يملك سوى (95) مرتبه. ولكنه بعد رحلة "كفاح" خارج مصر .. وبعد تأسيس حزب الكهرباء صار من مليونيرات هذا الزمان. وهو يعيش الآن خارج مصر وبالكفاح أمتلـك شقة ثمنها مليون دولار في لندن، ويمتلك شركة لمـد أسـلاك الكهربـاء في بلد عربي ويقود حزبا لتحرير الأمة العربية من الخليج إلى المحيط. في أثناء الندوة قلت للسـيد عبـد الحليم خـدام: "إننـا نعتمـد عليكم في إحراج نظام السادات بشن الحرب ضد إسرائيل"، وابتسـم عبـد الحليم خدام وأشار إلى رئيس حزب الكهرباء وقـال "ونحن نعتمـد على رئيس حزب الكهرباء للإطاحة بالنظام السـاداتي" ولم يكن عبـد الحليم خـدام يجهل حقيقة الزعيم الكهربائي أو حزبه، ولكنها كانت فرصة لإلقاء تبعـة تحريـر مصـر على عـاتق الـزعيم الكهربـائي باعتبـار أن خـدام ونظامـه الطيب ليس من طبعه التدخل في شئون الآخرين! وصـرت ثوريـا على الطـراز العـربي أشـجب كلمـا سـنحت فرصـة، وأحيانـا أشـجب بـدون

مناسبة وأحيانا أخرى أشجب على روحي من شدة إيماني بالشجب! شجبت غزو إسرائيل لبيروت، وشجبت غارة إسرائيل على تونس، وشجبت خطف الطائرة المصرية، وشجبت خطف الطائرة الليبية، وشجبت الغارة الأمريكية على ليبيا، وشجبت استخدام الفيتو الأمريكي لصالح إسرائيل.

وشجبت اضطهاد الفرق العربية في كأس الأمم الإفريقية ولكن الذي يغيظني بشدة هو أنني كلما شجبت اكتشفت أنني لا أزال مجرد تلميذ في مدرسة الشجب العربية. فبعض زعماء العرب – قواهم الله – يستخدمون عقاقير لتقوية الشجب، وبعضهم متعه الله بالصحة – يشجب ثلاث مرات على الأقل في الليلة الواحدة، وبعضهم قادر على الشجب المتواصل حتى الصباح وصار الشجب هو أعظم بضاعة تنتجها أمة العرب. والحمد لله لأن إسرائيل المزعومة حفيت قدماها من أجل استيراد شحنة واحدة ولكنها فشلت حتى الآن، وأعتقد أن يقظتنا ووحدتنا اللي ما يغلبها غلاب قادرة على إفشال المسعى الإسرائيلي للسيطرة على أسواق الشجب! والدليل على أننا ملوك الشجب هو ما حدث أخيرا لعد لقاء بيريز والملك الحسن فقد شجب العقيد القذافي هذا اللقاء بشدة وأخذ يشجب ثم يشجب لدرجة أن الرئيس حافظ الاسد لم يجد ما يشجب له فقطع العلاقات وشجب بشدة أيضا منظمة أمل وعلى دربها سارت منظمة حنان ومنظمة سعاد ومنظمة أشجان وغرق العالم العربي في معزوفة شجب من مقام البياتي والصبا والنهاوند. وسارع العقيد القذافي الذي هو في وحدة مع المغرب إلى عرض الوحدة الاندماجية مع الجزائر، ثم عرضها على الجمهورية الصحراوية "البوليساريو" ثم شجب العرب جميعا وعرض الوحدة على دولة "بوركينافاسو" باعتبار أن دولة فاسو هي الوحيدة التي تحرص على مقررات قمة فاس! وشجب اللقاء أيضا الزعيم أبو نضال، وبعد أن شجب ثم شجب ثم شجب بالثلاثة أقسم برأس سيدي

المشجوب أنه سيقتل كل من له علاقة بهذا اللقاء حتى الذين يشجبونه لأن شجب اللقاء كاستحسانه .. وهو دليل على الاعتراف به، وهي (96) جريمة يستحق مرتكبها الإعدام، وشجب أيضا كل الآباء الطيبين، أبو مطوة وأبو مدفع وأبو ميزر وأبو طيارة وأبو غواصة وأبو دبابة وأبو قضية وأبو نكبة وأبو كوارث وأبو رجل مسلوخة وأبو شجبان! وبالطبع ستنتهي زوبعة الشجوب بالفصحى والشجوبات بالبلدي؟ وينفض المولد في انتظار مناسبة أخرى لاستعراض المشجوبات العربية، خصوصا أن هناك أصنافا جديدة من الشجب وارد بلاد بره، وهي المعدل والمحسن كما أن هناك شجب خنزيرة وشجب تمساحة وشجب حلوفة وهي آخر صيحة في صناعة الشجبات!! وأغرب شيء أنني عدت إلى لسان العرب المحيط لعمنا ابن منظور لأعرف معنى الشجب بالتحديد واكتشفت عجبا، فالشجب يشجب فهو شاجب، وشجب بمعنى حزن، وهلك، شجبه الله أي أهلكه. وفي الحديث الناس ثلاثة: شاجب وغانم وسالم، فالشاجب الذي يتكلم بالرديء، وقيل الناطق بالخنا، والمعين على الظلم، والغانم الذي يتكلم بالخير والسالم. الساكت! وفي التهذيب قال أبو عبيد: الشاجب هو الهالك الآثم، وامرأة شجوب أي امرأة ذات هم، والشجب العنت يصيب الإنسان من مرض أو قتال. وشجب الغراب نعق بالبين، والمشجب هو الشماعة، وبنو الشجب قبيلة من بني كلاب!! وأتساءل الآن كيف وصل بني شجب الجدد إلى هذا المعنى الجديد للشجب؟ حتى لغتكم يا أبناء الشجب أصبح لها معنى آخر غير الذي قصده الأجداد. ويبدو أننا في حاجة إلى مراجعة للغة المستعملة الآن لنصل إلى سبب الوجيعة وسر الخيبة التي نعاني منها هذه الأيام نقول الصمود ونعني الصموت "جمع صمت" نقول التصدي ونمارس التردي في واقع الحال. نعلن اللاءات في المؤتمرات وفي الرسالة تتحول اللاءات إلى نعمات، أو نعامات ونكتفي بإخفاء رؤوسنا في الرمال! نرفع شعار "أمة واحدة ذات رسالة خالدة"، ثم

نتحالف مع الغريب ضد جـزء من الأمـة الـتي هي واحـدة وذات رسـالة خالدة!! نقسم على التحرير من النهر إلى البحر!! ثم نشرب من النهـر مرة ومن البحر مرة ونعكف على التحرير في جرائـد مـأجورة وصـحف معروضة صفحاتها في المزاد!! نرفع شعار البندقية وغصن الزيتـون، ثم نجعـل غصـن الزيتـون من نصـيب العـدو والبندقيـة نصـوبها إلى قلب الصحفي يكتب رأيه أو سياسي يبذل جهده في مجال الممكن والمتـاح! ونبـتز الـدول الغنيـة من أجـل المعركـة، ثم نكتشـف أن المعركـة في بيروت وليست في تل أبيب! وليس هناك تفسير لهذا كله إلا أننا نجهـل لغتنا العربية ولا ندرك بالضبط معنى الكلمـات ... ومـا أحوجنـا الآن إلى منظمـة جديـدة وليكن اسـمها سـيبويه وقائـد من خـريجي كليـة اللغـة العربية وليكن اسمه الحركي "أبو قاموس" وما كان أغنانا عن هذا كله، لو هجمت جيوش سوريا ومعها فيالق أبو نضال وأبو الزعيم وأبو الغيـط على إسرائيل! ومـا كـان أغنانـا عن هـذا الموقـف المـتردي لـو أغـارت أسراب الجـو الليبيـة على الأرض الإسـرائيلية وحطمت طـائرات العـدو وهي جاثمـة على الأرض، وقطعت خطـوط مواصـلاته ودمـرت منشـآته الاقتصادية وما كان أغنانـا (97) عن هـذا الموقـف العصـيب لـو أن أبـو نضال أو أبو كفاح أو أبو قتال صوب مدفعه الرشـاش إلى قلب شـامير أو شارون بدلا من قتل سليم اللوزي ورياض طـه ومحاولـة قتـل أحمـد الجار الله لو حدث هذا أو شيء من هذا لما كان هناك مبـادرة ولا كـان هنـاك اجتمـاع قمـة بين مسـئول عـربي ورئيس وزراء العـدو! لأنـه في العلاقات بين الدول بعضها وبعض، أما أن تجارب عدوك وأمـا أن تحـاور عدوك، ولم يذكر التاريخ لنا مثالا واحدا عن حروب الشجب! ولكن يبدو أن السادة الأفاضل قادة جيوش الشجب يفهمون لغـة العـرب أثـر ممـا يفهمها العبد لله وهو على حق باعتبار أن بني يشجب هي قبيلة من بني كلب، وما الشجب إلا مجرد "هوهوة" في وجه العدو .. وهـو إمـا يخـاف ويهرب وإما يضرب بني كلب علقة سـخنة كلمـا سـنحت فرصـة فنعـود

إلى "هوهوة" أشد! وختاما استنكر كل حرف جاء في هذا المقال حتى لا يتعقبني بني كلاب وحتى لا يفرغ رصاص مدفعه في قلبي الرفيق أبو زلومة أو الرفيق أبو قردان!!

يا عمال العالم "باي باي"

(100) كان الله في عون الرفاق الأوروبيين فقد طلع نقبهم على شونة، وانتهت أحلامهم إلى كوابيس وما تصوروه بأنها الجنة اتضح بأنه شيء عادي مثل كل شيء على ظهر الأرض، وأنه طريق آخر من طرق المعايش يمكن أن يؤدي إلى سلامة أو الندامة أو إلى حيث اللي يروح ما يرجعش!

والعبد لله يعلم أنني بهذا الموضوع الشائك سأجر على نفسي المشاكل وسأتهم من الرفاق المتطرفين بأني عميل إمبريالي، أما المعتدلين منهم فسيجزمون بأنني مخبر نشيط في المخابرات المركزية الأمريكية، أما الطيبين منهم فسيقولون هذا مجرد برجوازي صغير لم يستطع الصمود فاستسلم. ولكي أسهل الأمر على الجميع أعترف لكم بأنني عميل إمبريالي كومبرادوري، وأنني مخبر مركزي ومربوط على درجة شاويش، وأنني برجوازي صغير وحقير أيضا، وكل ما أرجوه أن يجيب الرفاق المصريين والعرب على سؤال واحد بسيط مع احترامي لهم واعترافي بأنهم من أكثر الرفاق تضحية ومن أشدهم إخلاصا، ما رأيكم أيها الرفاق دام فضلكم فيما يجري الآن في أنحاء الكتلة الشرقية؟ ولماذا يهرب الناس من هناك كما يهرب المسجون من زنزانته؟ والأكادة أن كل الهاربين من طبقة البروليتاريا عمال وفلاحين وصغار موظفين، شابات في عمر الورد، وشبان في قوة

تايسون، وكلهم تحت الثلاثين، أي أنهم ولدوا ونشأوا وتربوا وتعلموا في ظل النظام الثوري التقدمي الاشتراكي، وليس من بينهم أحد له علاقـة بالعهد "البائد" ولا أحد منهم من أصـحاب الطين أو من رجـال الأعمـال الذين أضيرت مصالحهم.

أين جنـة العمـال الـتي كـانوا يبشـرون بهـا؟ أين قطعـة الطبقـة العاملة؟ وأين شعار يـا عمـال العـالم اتحـدوا، وهـل كـان المقصـود أن يتحـــدوا للفـــرار من جنـــة العمـــال والهجـــرة إلى جهنم الرأســـمالية والإمبريالية والكمبورادوريـة! لقـد سـألت بعض السـادة المناضـلين في لندن وجينيف وباريس فأجابوا بأن ما يحدث الآن في العالم الاشـتراكي هي مؤامرة مـدبرة من جـانب المخـابرات الأمريكيـة. فهـل تسـتطيع (101) المخابرات الأمريكية أو المخابرات البلجيكية تجنيد الملايين؟ وإذا استطاعت فهل تنجح في حقنهم بكل هذه الطاقة من الحماس، وشحن قلوبهم بكل هذا الكم من الحقد؟ وهل في استطاعة أي مخابرات على وجـه الأرض تجنيـد شـعب بأكملـه؟ إن شـعب بولنـدا ثـار بأجمعـه ضـد الحزب الشيوعي واختار حكومة ليبراليـة، فهـل هـذا الاختيـار من تـدبير المخابرات الأمريكية المركزية؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فالمخابرات الأمريكية على حق لأن "أمتي لا تجمع على ضـلالة"، ولا يمكن أن تتحـد كلمة شعب نتيجـة تحـريض من مخـبر أمـريكي، أو رشـوة يـدفعها بنـك تشيس منهاتن. ولكن ما يحدث الآن هو بالتأكيد نتيجة خلـل في النظـام الاشتراكي. لأنـه من المسـتحيل أن يثـور شـعب على نظامـه بعـد نحـو نصف قرن خصوصا إذا كان النظام هو نظام العسل واللبن والسمن، لا بد أن الناس اكتشفت بعد نصف قرن إن المسألة كلها مجرد شـعارات، فإذا جاعوا قالوا لهم الخبر للجميع. وإذا صاعوا قـالوا لهم العمـل حـق، وإذا اشتاقوا إلى رحلـة خـارج الحـدود قـالوا لهم انتظـروا حـتى تنتصـر الطبقة العاملة في أنحاء الكرة الأرضية وعندئـذ تصـبح السـياحة فـرض على كل مواطن وبأقل التكاليف.

لقد كفر الناس بطوابير الخبز واللحم وطوابير السجائر، أما طابور السـيارات فهـو لا يقـاس بالأمتـار ولكن بـالأعوام وبعض المواطـنين ينتظرون للحصول على سيارة بعد قرون. والعبد لله لم يتشرف بزيارة أي دولة من الدول إياها عدا ألمانيا الشـرقية وقـد زرتهـا مـع المرحـوم الأسـتاذ حسـن فـؤاد والكـاتب الكبـير الأسـتاذ فيليب جلاب، وهمـا ماركسيان نادران ويؤمنان بأن الوطنيـة هي أعلى مراحـل الماركسـية. وكنا معا في سيارة رفيق مصري قـديم يقيم في بـرلين الشـرقية حين صرخت زوجته صرخة ولا صرخة هند زوجة أبي سفيان بعد معركة بدر. وضعط زوجها على الفرامل بطريقة كـادت تـؤدي إلى انقلاب السـيارة ثم فتحت زوجته البـاب وانطلقت بأقصـى سـرعة، وتصـورت أنهـا رأت طلفها يعبر الشارع وسط زحام السيارات ثم اكتشفت أن عينهـا وقعت على خيار في دكان الفكهاني وكان قد مضى عليهـا سـنوات طويلـة لم تر شكل الخيار حتى اقتنعت أنهـا لن تـراه إلا يـوم القيامـة على فـرض أنها ستكون من أهل الجنة!

وأذكر أن العبد لله روى القصة أمام رواد قهوة إيزافيتش القديمـة في ميدان التحرير، وكانوا شلة من الرفاق لهم جميعا شوارب، الخـالق النـاطق شـارب الرفيـق سـتالين وكـانت السياسـة مهنتهم والثقافـة هوايتهم والنضال هو لعبتهم في أوقات الفراغ! وقال أحدهم معلقا على ما رويته واصفا زوجة صديقي بأنها مجـرد امـرأة برجوازيـة تافهـة! ولم أدرك حتى هذه اللحظة علاقة التفاهة بالطماطم والخيار. أمـا إذا كـانت هناك علاقـة فمـا أتفـه الرفيـق إيـاه الـذي حكم بتفاهـة زوجـة الرفيـق المصـري، لأنـه هـو نفسـه كـان يبـدو كـالمجنون إذا اكتشـف أن طبقـه المفضل "عيش السرايا" قد اختفى من قهوة إيزافيتش.

(103) وما أتفه العبد لله أيضا لأنني كنت على استعداد وأنـا نزيـل سجن الواحات الخارجة أن أدفع خمس سنوات من عمري مقابل ثمـرة

واحدة من الجوافة، وأدفع نصف عمري مقابل طبق طرشي من معمل الحاج عبد النبي الجيزاوي يرحمه الله! ثم ما قيمة النظريات في هذه الحياة إذا لم تستطع توفير الخيار والجوافة والطرشي؟ وهل سيأكل الناس بيانات وتحليلات وعبارات من نوع المد الثوري والزخم الشعبي والالتحام الجماهيري والشحطبور الديناميكي لو أن هذه العبارات تطعم الناس لهاجر الجميع من أوطانهم إلى هناك ولكن الذي حدث هو هجرة الناس من هناك وفرارهم إلى غير وجهة وإلى غير مكان دليل على أن الشعب قد يخدع بالشعارات بعض الوقت. وقد تقتنع الجماهير بما يقال لهم في الندوات وفي الإذاعات بعض الوقت، ولكنها تنتفض ثائرة إذا اكتشفت أن الأمر مجرد رغي وهلفطة وكلام. والحمد لله لأن الرفاق العرب المخدوعين لم يشهدوا بأعينهم منظر المهاجرين وهم يرقصون طربا لحظة خروجهم إلى الحدود النمساوية الفرحة تغمرهم والسعادة تطفح من وجوه الجميع.

مساكين الرفاق العرب والرفاق المصريين المخدوعين فقد طلع نقبهم على شونة. وأقول الرفاق العرب المخدوعين لأن بعضهم لم ينخدع على الإطلاق. على رأس هؤلاء الدكتور إسماعيل صبري عبد الله. وهو أحد المصريين الاقتصاديين القلائل الذين يستطيعون حل مشاكل كثيرة في بلادنا لو منحوا الفرصة وتمكنوا من تطبيق عملهم على أرض الواقع. وهو مناضل ماركسي ثوري قديم عانى الأهوال وتعرض للتعذيب ولكنه لم يستسلم .. ووصل إلى مركز الوزارة ولكنه لم يتغير. ولو أراد الدكتور إسماعيل صبري عبد الله أن يصبح مليونيرا أو بنكيرا لكان له ما أراد. الدكتور إسماعيل صبري عبد الله تنبأ في ندوة مجلة "المصور" بأن الأحزاب الشيوعية ستسقط في دول أوروبا الشرقية، لأن الجيش الأحمر هو الذي فرضها على الناس ولم يلتف الناس حولها عن اقتناع.

وما تنبأ بـه الـدكتور إسـماعيل صـبري عبـد اللـه بـدأ يتحقـق الآن. وعلى حدود المجر في هذه اللحظة عشرات الألوف من المواطنين من ألمانيا الشرقية يستعدون للفـرار إلى النمسـا ومنهـا إلى دول الغـرب. البعض منهم تكمن من عبـور الحـدود بعـد أن حصـلوا على جـوازات السفر من ألمانيا الغربية، أما الذين ما زالوا ينتظرون عند الحـدود فهم سـعداء بـالرغم من أنهم يسـكنون الخيـام ويـأكلون الأطعمـة الجافـة ويعـانون من الـبرد الشـديد، ولكنهم مصـرون على اجتيـاز الحـدود أو الموت عندها، بينما يزحف على الطرق المؤدية إلى الحدود النمسـاوية مئات الألوف تركوا ورائهم كل شـيء وخرجـوا بهـدومهم يتطلعـون إلى حياة جديدة في أوروبا الغربية. وتليفزيونات العالم تذيع في أنحاء الدنيا صور المهاجرين في طوابير من جنة الدول الاشـتراكية إلى نـار الـدول الغربية. والجميع يصفون الهجرة الجديـدة بأنهـا أكـبر هجـرة في تـاريخ أوروبا من الحرب الأخيرة.

(104) والذي دفـع العبـد للـه إلى كتابـة هـذه السـطور هي حالـة الهستريا التي سيطرت على الذين تمكنـوا من الفـرار ووصـلوا بالفعـل إلى الأراضي النمساوية. لا أعتقد أن هناك فرحة تعادل فرحـة هـؤلاء إلا فرحـة مسـجون تمكن من الهـرب بسـلام من زنزانـة في ليمـان أبي زعبل.

شاب في حجم محمد علي كلاي وقـف أمـام الكـاميرا يبكي وبقـه مفتوح على طريقـة المرحـوم إسـماعيل يسـن. وراح يـردد كالمـذهول عبارة واحدة. أنا حر، أنا حر! وبنت في عمر الزهرة، بيضـاء كالقشـطة، حلـوة كالمهلبيـة، لم تسـتطع التعبـير عن فرحتهـا فخلعت ملابسـها وانطلقت تعـدو أمـام الكـاميرا في حالـة جنـون حقيقي خـرج بـالبنت الألمانيـة عن الشـعور وعن الـوعي. والآن، مـا الـذي سـوف تفعلـه التنظيمـات الماركسـية والأحـزاب الشـيوعية في البلاد العربيـة؟ هـل

ستستمر في النضال وتعرض كوادرها للسجن وللنفي وللإعـدام أيضـا؟ من أجل تجنيد الأنصـار لإقامـة النظـام الاشـتراكي الـذي سـيهرب منـه الناس بعد نصف قرن!

أعتقد أن التجربة فشلت، ولا بـد من إعـادة البنـاء وإعـادة النظـر، وعلى الرفاق الآن أن يعيدوا النظر، وأن يراجعوا الأوراق. بعــد أن ثبت بالدليل لاقاطع أنه لم تخلق بعد النظريـة الصـحيحة على طـول الخـط، وأن الاشتراكية الماركسية اللينينية – مثل غيرها الأفكار – حاولت بقــدر مـا اسـتطاعت، وأخـذت فرصـتها على الآخـر، حـتى جـاء جورباتشـوف فأعلن أن النظريـة تحتـاج إلى مراجعـة، والأسـلوب يحتـاج إلى تعـديل. وكانت الخاتمة هي حركة الشعب في ألمانيا الشرقية الذي انطلق منـه عشرات الألوف وبأقصى سرعة هاربين من الجنـة الموعـودة إلى أرض المشاكل والمعاناة!!

وعليـه العـوض ومنـه العـوض في عشـرات السـنين الـتي أنفقهـا الرفاق في النضال، تجرعوا المر خلالهـا بين السـجن والمنفى والـنزول تحت الأرض حيث الجوع والخوف والظلام ورحمة اللـه على روح عمنـا شـعبان حافـظ الـذي مـات في سـجن الواحـات وهـو في الخامسـة والسبعين من عمره، وكان حلمه الوحيد أن يمتـد بـه العمـر حـتى يـرى دولة الفلاحين والعمال. لقد كان الرجل طيبا بلا شك لأنه مـات قبـل أن يرى بعيني رأسـه تفكـك دولـة البروليتاريـا وهـروب الرفـاق منهـا، كمـا يهرب الأصحاء من مستعمرة للجذام!

أما شعار يا عمال العالم اتحدوا! فقد تحـول إلى يـا عمـال العـالم استعدوا للفرار، وليأخذ كل منكم ذيله في أسنانه ويـا فكيـك. وهـات يـا جري بأقصى سرعة هروبـا من الجنـة الموعـودة إلى حيث لا وجهـة ولا مكان. وعند الحدود ارفعوا أيديكم ويا جنة العمال .. باي باي!!

الكورة والعورة!

(106) انهالت على العبد لله خطابات القراء من كل صوب وحدب – وعلى رأي الشيخ طاهر – بسبب مقالي عن الشورت الشرعي. وقال فقهاء آخر الزمان (ألا تعرف أيها الجاهل والأمي – الذي هو حضرتنا – أن عورة الرجل من منتصف البطن حتى الركبة؟) والمسألة التي يجهلها حضرات الفضيلة إياهم أنني أعرف عورة الرجل ومن أين تبدأ إلى أين تنتهي، ولكن المشكلة هي أننا لا نتصدر إلا في الهايفة، ولا نتوقف إلا عند الفارغة، ولا نهتم إلا بالخرابيط!

وخطابات القراء التي نزلت ترف على العبد لله توحي بأن القيامة قامت، وأن الدنيا تبعثرت، وأن الجبال تناثرت. وأن العالم على شفا حفرة من النار، ليه؟ لأن العبد لله تجرأ وتجاسر وهاجم الشورت الشرعي! يا سخطة! أهذا هو الموضوع؟ ومن أجل هذا تحررت كل هذه الخطابات، وانشغل سعاة البريد، وازدحمت مكاتب البوستة من أسيوط وإلى أمبوط؟!

أكل الدين أن تحفوا شواربكم على رأي سيدي وتاج رأسي عمنا الشاعر المتنبي، وأول هام – على رأي ستي بهانة يرحمها الله – لا يوجد شيء اسمه الشورت الشرعي والشورت الآخر الذي لا تنطبق عليه تعاليم السماء. ولكن هناك شورت طويل وشورت قصير، واحتجاجي كان منصبا على وصف الحكم الدولي "محمد حسام الدين" للشورت الطويل بأنه الشورت الشرعي! خصوصا أنه كان يتحدث في التليفزيون وبلهجة ولا لهجة مفتي الديار المصري الذي من حقه فرز الشورتات الشرعية من الشورتات التي ليست على دين الإسلام!

هلم تعالوا تنفاهم معا، بدون شتائم ولا اتهامات، اللاعب الذي يرتدي أي شورت نتفرج عليه غالبا في التليفزيون بيننا وبينه أكثر من نصف كيلو متر. والعبد لله – سواء في التليفزيون أو في الملعب – يتفرج على الكورة، ولكن يبدو أن بعض المتفرجين يتفرجون على العورة!

وفي المباريات نحن نتابع الكورة في أقدام اللاعبين، وأحيانا نلعب معهم (107) فنرفس المقعد أو الترابيزة أو الحائط أما العورة (التي هي من السرة إلى الركبة) فلا أعتقد أنها موضع اهتمام أحد إلا السادة الذين اشتغلوا بالإفتاء في آخر الزمان.

الكارثة الكبرى أن أغلب الذين أرسلوا خطابات الاحتجاج دكاترة ومهندسين وطلبة في الجامعة، وطالبة أرسلت للعبد لله تعاتبني لأنني تركت الكتابة في أمور "الشقاوة"، وتفرغت لنقد الدين! نقد الدين حتة واحدة!؟ وما علاقة الدين بالشورت الذي يرتديه لاعب كرة القدم؟ وما علاقة الإسلام بكل هذه الخزعبلات التي انشغلنا بها وانشغل بها الشباب في هذه الأيام؟

رحم الله أيام زمان عندما كان الإسلام في عزه وفي مجده. بعد معركة القادسية أرسل "سعد بن أبي وقاص" غلى الخليفة في المدينة يسأله الرأي: من أحق الناس بالحصول على ما تبقى من الغنائم، هل هم حملة السيوف أم حفظة القرآن.

وجاء جواب الخليفة: وزعها على حملة السيوف! الله الله يا خليفة المسلمين ويا أكبر رأس في دولة الإسلام. ومن مثلك يعرف حقيقة الدين؟

هؤلاء – حملة السيوف – هم جنود الإسلام وهم مشاعله الحقيقية. وهؤلاء هم المجاهدون الحقيقيون. والجهاد الصحيح أن تكسر عدوا من

أعداء الإسلام، أو تكسب أرضا للإسلام، أو تضم مؤمنين جددا في صف الإسلام. هذا هو الجهاد الصحيح، أما طول الثوب وما يظهر من وجه المراة، وما ينكشف من شورت اللاعب، فلم يكن من اهتمامات المسلمين الاوائل. كانوا مشغولين براية يرفعونها من أجل الإسلام، أو سيفا يشهرونه باسم الإسلام ضد أعداء الإسلام، أو غزوة ينضمون إليها في سبيل الله. ولكن المسلمين في عصور الانحطاط ينشغلون – للأسف الشديد – بالتافه من الأمور والهابط من الخلاف.

وبعد كسرة سلطان مصر المعظم "قنصوة الغوري" في حلب، ثم كسرة السلطان "طومان باي" على أبواب القاهرة، وسقوط مصر في قبضة السلطان "سليم بن عثمان" وبعد أن تحولت مصر من إمبراطورية إلى نيابة سلطنة وخضعت لسلطان الأتراك، انشغل الناس وعلى مدى عامين في مسألة غاية في الهيافة والانحطاط، والذي حدث أن زوجا ضبط زوجته مع عشيقها في حالة زنا، واعترف الزاني والزانية فسيقا معا إلى قاضي القضاة. وأما كبير القضاة فقد أقر بوقوع جريمة الزنا، فأمر بتجريسهما في المدينة، فأركبوهما حمارين بالمقلوب وسار أمامهما رجل بجرس كبير ينادي في الأسواق ويسرد على الناس تفاصيل فعلتهما المهببة. وبعد أن انتهت الجرسة وعاد موكب الزانيين إلى دار القاضي، أعاد كبير القضاة استجوابهما للمرة الثالثة، فأنكرا ما نسب إليهما، فأمر بالإفراج عنهما على الفور، وتغريم كل منهما مائة دينار. أما الزاني فقد دفع المبلغ وعاد إلى بيته في المساء، أما الزانية فاعتذرت عن الدفع، فأمر القاضي بإحضار زوجها وطالبه (109) بتسديد قيمة الغرامة! ولكن الزوج رفض أن يدفع وصاح في وجه القاضي: زوجتي تزني وأنا أدفع الغرامة؟ وعندئذ أمر القاضي بإخلاء سبيل الزوجة، وحبس الزوج حتى يقوم بتسديد المائة دينار. ونجح ابن الزوج في الصعود إلى القلعة ومقابلة نائب السلطان، فاندهش النائب غاية الاندهاش وأمر بإحضار قاضي القضاة وعندما

سأله عن حقيقة الأمر أيد القاضي ما جاء في شكوى الابن! فسأله نائب السلطان: وكيف تفرج عن الزاني والزانية وتأمر بحبس الزوج؟ فأجابه القاضي: هذا هو الشرع!! وكان قاضي القضاة صادقا، لأن حد الزنا لا يقام إلا بعد استجواب يطرح خلاله السؤال ثلاث مرات على مرتكبي الجريمة. فإذا أنكر الفاعل في أي مرة من المرات الثلاث وجب إخلاء سبيله وعدم إقامة الحد! ولكن نائب السلطان كان روميا، ولم يكن محيطا بأحكام الشريعة، فأصدر أمره بالإفراج عن الزوج وإعادة القبض على الزوجة وعشيقها، واستدعى مشايخ المذاهب الأربعة بما فيهم قاضي القضاة وسألهم رأيهم فيما جرى، فأجابوه جميعا: هذا هو الشرع. فهاج النائب وصرخ في وجوههم: أي شرع هذا؟ ثم نظر إلى قاضي القضاة وقال له متهكما:

أرجو أن تعود إلى منزلك الآن فتجد زوجتك في أحضان رجل آخر. ورد الشيخ العجوز:

نسأل الله ألا يحيينا إلى هذا اليوم، وقبل أن يخرج المشايخ من حضرة النائب كان نائب السلطان قد أصدر أمره بطردهم من مناصبهم، وقام بتعيين غيرهم، ثم أصدر في اليوم التالي فرمانا بألا يدخل عليه أحد منهم، وأن يقبض على كل شيخ يشاهد في الطريق بعد المغرب. وانشغلت مصر كلها بالحادثة، وانقسم الناس حول القضية، بعضهم يؤيد المشايخ، وبعضهم يؤيد نائب السلطان. وتأسست في مصر جمعيات سرية، بعضها كان يهدف إلى اغتيال نائب السلطان، وبعد مرور عامين حسم نائب السلطان القضية، فأمر بشنق الزاني والزانية، وحكم بضرب المشايخ الأربعة علقة ساخنة بالفلقة، وخرج الأربعة من القلعة إلى المنفى. أحدهم إلى "نواج" والآخر إلى "البراري" والثالث إلى "دراو" أما قاضي القضاة فقد خرج من القلعة

منفيا إلى الواح "الواحات" وهكذا أسدل الستار على أهيف قصة في تاريخ مصر الوسيط، ولكن وقوعها في ذلك العصر كان ضروريا بعد أن تحولت مصر من إمبراطورية إلى نيابة سلطنة ولم يكن ممكنا ظهور مثلها أيام السلطان "قطز" وفي عصر الملك الظاهر بيبرس، وفي أيام السلطان برقوق وابنه السلطان فرج لأنه لا وجود لهذه القصص الهايفة في زمن الإنجازات العظيمة والانتصارات الباهرة. ولكن في أيام الانكسارات ينشغل الناس بطول الذقن، وعرض الزبيبة على الجبهة، وطول ثوب المرأة، ومواصفات شورت اللاعب، ويستغني الناس مشايخهم في أمور من عينة:

(110) هل الكلام في التليفون حلال أم حرام؟

وهل مشاهدة السينما من الكبائر؟

وهل يدخل النار من يأكل المربى في الصباح؟

وإذا كان الجزاء من جنس العمل، فالمشاكل أيضا من جنس الحال! عندما يكون المسلمون في خير يتساءلون: هل الغنائم لحملة السيوف أم لحفظة القرآن؟ وعندما يكون المسلمون في غم يساءلون: هل لحس التراب يؤدي إلى الإفطار؟ أيام مجد المسلمين طلب البعض محاكمة خالد بن الوليد لأنه قتل أسيرا لكي يتمكن من عقد قرانه على زوجته واستدعاه أبو بكر الصديق واستفسر منه عما حدث ونفى خالد ما نسب إليه. فأشار عليه بالسير على بركة الله بجيش المسلمين إلى الشام. وعندما احتج البعض على السماح لخالد بالسير إلى بر الشام على رأس الجيش. قال أبو بكر: والله ما أغمد سيفا سله الله على أعدائه!

الله أكبر يا خليفة رسول الله وصديقه، لو كنت معنا اليوم لطالبك السادة الذين اشتغلوا بالإفتاء في غفلة من الإسلام بنتف لحيته وتعليقه

على شجرة في ميدان التحريـر! ولكن لأنـك كنت على رأس خـير أمـه أخـرجت للنـاس، فقـد أمرتـه بالسـير على راس الجيش إلى الشـام، وبفضلك، وفضل خالد بن الوليـد، وفضـل رجـال من هـذا الطـراز صـار الإسلام أقـوى إمبراطوريـة عرفهـا تـاريخ الإنسـان. ولكن لا جنـاح على السادة الـذين اشـتغلوا بالإفتـاء في غفلـة من الزمـان، ولا بـأس عليهم باعتبار أن الحال من بعضه فجيوش المسلمين في هذا الزمـان أصـابها الإرهاق من قتال المسـلمين وديـار المسـلمين تعـاني الفاقـة والحاجـة والضياع، وقدس الأقداس سقط أسيرا في قبضة اليهود الأوساخ! وأكثر من شوال خطابات للعبد لله احتجاجـا على مقـال الشـورت الشـرعي. وكل "العلماء" يؤكـدون أن للرجـل عـورة، ولأنهم "علمـاء جـدا" فـإنهم يحددون مكـان العـورة من السـرة وحـتى الركبـة! هيـه دي المشـكلة؟ طيب والقدس؟ والحرب العراقية الإيراينة؟ والشعب الفلسطيني الـذي يعاني المحنة والموت الزؤام؟ والمجاعـة الـتي تضـرب المسـلمين في السودان وفي تشاد وبنجلاديش وفي الصومال؟ ومـا رأيكم في أحـوال المسلمين التي تـردت إلى الـدرك الأسـفل، بينمـا حـتى عبـدة الأوثـان يعيشون في بحبوحـة وانسـجام؟ أي المشـاكل أولى بالرعايـة والعنايـة والاهتمام؟

أفتوني يا أصحاب الفضيلة "علماء" آخر الزمان!!

أما بالنسبة للحكم الـدولي محمـد حسـام الـدين، وقـد احتج أغلب أصحاب الخطابات على وصفه بمفتي الديار الكروية. فالعبد لله يعتـذر، خصوصا بعد أن ثبت بالدليل القاطع أنه لا يشـغل منصـب مفـتي الـديار الكروية، ولكنه يمارس مهام شيخ مشايخ الطـرق الكرويـة، والشـرعية منها على وجه الخصوص!

(111)

توظيف الأقدام!

شكرا للسادة بتوع التليفزيون لأنهم رطبوا حياتنا بمباريات كأس أوروبا، حيث اللعب على طول، والشوط على ودنه، والعيال اللعيبة في الرمح كالأحصنة. في القوة كالثيران، في النفس كما قطار سكة حديد طوالي، وحيث الحكام هم ملوك الملاعب صحيح، وحيث الجمهور يستخدم حناجره في التشجيع ولا يستخدم عضلاته! ولكن واأسفاه على فريق ألمانيا بعد أن خلت قائمته من النجوم. اللعب عادي وإن كان بالنسبة إلى لعبنا غاية المراد من رب العباد. و ... واأسفاه على فريق إيطاليا بعد أن حصل له نفس الحصلان، اللعب مضبوط ولكنه غير مبهج، والعرض مش بطال ولكنه مش لذيذ، دليل على أن الكورة الحلوة هي كورة نجوم ولذلك كانت المباريات التي يشترك فيها عبد الكريم صقر تختلف عن المباريات التي لا يشارك فيها. وكان الضيظوي يضيف مذاقا خاصا إلى المباريات التي يلبعها، وكان المرحوم رضا يضفي على المباريات بهجة شديدة ومتعة لا حد لها، ونفس الشيء يصدق على المباريات التي كان يشترك فيها مصطفى رياض والشاذلي ورفعت الفناجيلي وعلى أبو جريشة. ونفس المتعة في ألف إذا شاهدة مباراة يلعب فيها بيليه أو مارادونا أو بلاتيني أما مباريات الصحة والعافية واللياقة، فهي مباريات حلوة أي نعم ولكنها ليست ممتعة، وهي أشبه بالطعام المسلوق، صحي ولكنه غير شهي! وهذا الوصف ينطبق على فرق أوروبا التي بلا نجوم، أما اللعب تبعنا فحدث ولا حرج، عندنا لا صحة ولا نجوم، لا فن ولا أحصنة، لا استعراض ولا خطة. ومنذ أن اعتزل محمود الخطيب وأنا لا أشعر برغبة في مشاهدة المباريات. واندهش أحيانا عندما يكون المعلق هو على زيور، وأسمعه يغني أمام الميكروفون "يا سلام ع الحلاوة" حلاوة!! فين هيه الحلاوة دي؟ هذا العك الأزلي، واللعب الهلس، وهذه الأنفاس المقطوعة، والسيقان المخلوعة، هل هذه هي الحلاوة؟ طيب أمال فين الوحاشة والدمامة؟ وأين يكون سوء الأداء وقلة الحيلة، وهوان اللعيبة على الشبكة وعلى

الأجـوان؟ ويصـدع أدمغتنـا بين الحين والحين بعض السـادة المحرراتيـة في الصـحف القوميـة والحزبيـة، وخصوصـا عقب كـل دورة أفريقيـة أو أولمبية، عن العـروض الـتي انهـالت على كبـاتن مصـر العظـام, وكيـف صرخ سمسار من فرنسـا، أرجـوكم أعطونـا جمـال عبـد الحميـد. أو يـا خرابي .. لا أبرح هـذا المكـان إلا وفي يـدي ربيـع ياسـين. ويكتبـون عن عروض بمئات الألوف للكـابتن حلبص، وعـرض آخـر بملايين الفرنكـات فرهود ثم ينتهي المولد ولا حس ولا خبر ويحترف عيال المغرب وعيـال تـونس وعيـال الجزائـر، ويلعب مائـة لعيب أفـريقي في نـوادي أوروبـا. ويبقى الكباتن تبعنا محلك سـر، لا احـتراف في الخـارج، ولا تواضـع في الداخل! أخبار لعيبتنا في الصحف عندنا كأخبـار بعض الفنانـات تعاقـدت على فيلم مصري هندي مشترك. (112) وقعت عقدا مع هوليـود لـدور البطولة أمام روبرت تايلور "تايلور مات منـذ عشـرين عامـا". سـتلعب الدور الثاني في فيلم بلجيكي أيرلندي مشترك!! وتمر السنون فلا تلمح أثـرا للسـت الفنانـة في أي فيلم، ولا حـتى فيلمـا تليفزيونيـا من إنتـاج عجمان! على العموم شكرا لتليفزيون مصر لأنه رطب حياتنا بمباريـات بطولة أوروبا. وإذا كانت النجوم غابت في فريق ألمانيا وفريق إيطاليـا، فـالنجوم على ودنـه في فـرق الاتحـاد السـوفيتي وإنجلـترا والـدانمارك وسنستمتع بـالفرق الـتي تضـم النجـوم، وسـننفعل بـالفرق الـتي تضـم الخيول. وحبذا لو أذاع التليفزيون أيضا مباريات دورة نيوزيلانـدا وشـكرا له لو أذاع مباريات دورة أستراليا، ويا سلام لو أذاع مباريات دورة جـزر الأرخبيل. فسيكون في كل هذه الـدورات كـورة ممتعـة، أو على الأقـل مقنعة. وستكون عوضا لنا عن مباريات "حلق يسـترك" الـتي نشـاهدها في ملاعبنا هذه الأيام.

واقتراح من العبد للـه لاتحـاد الكـورة أن يوقـف مباريـات الـدوري لمدة عام، وأن يضع قانونا لتنظيم أعمال النوادي إياهـا، كمـا فعلنـا مـع

شركات توظيف الأموال، وباعتبار أن هذه النوادي في حقيقة الأمر، هي شركات لتوظيف الأقدام.

اللهم لا نسألك إلغاء الدوري، ولكن نسألك التقليل من عدد المباريات!!

آخر خدمة الغز

(114) يبدو أن الصحافة ليست مهنة البحث عن المتاعب، ولكنها مهنة البحث عن المعاش، والدليل على ذلك أن العبد لله يعمل في بلاط صاحبة الجلالة منذ العام 1944، وكنت طالبا في مدرسة المعهد العلمي الثانوية، وهي مدرسة تخرج فيها عشرات من المشاهير الأعلام الذين تركوا بصماتهم على تاريخ مصر الحديث. وكان أبرز هؤلاء زميلي عبد السلام، جاري في تختة واحدة من سنة أولى إلى سنة ثالثة رابع، إذ كنا لحكمة لا يعلمها إلا علام الغيوب، تتدهور أحوالنا وتنخفض درجاتنا كلما توغلنا في بحر العلم. ويبدو أن عبد السلام قد اكتشفت مبكرا أن طريق العلم ليس لها نهاية، فآثر الانسحاب واحتل مكان الوالد. وصار بعد فترة أكبر حانوتي في القاهرة الكبرى، واشهرهم في العصر الحديث. ومن أعلام المدرسة أيضا زميلي "حنبلة" بتشديد اللام، الذي هجر الدراسة وشق طريقه في الحياة بمطواة قرن غزال، وأصبح فتوة الحبانية وسوق السلاح، ومات شهيدا في معركة تاريخية ضد فتوات حي بولاق.

أمـا العبـد للـه فقـد اتجـه إلى الصـحافة وأنـا مـا زلت طالبـا في المدرسة، عندما أصدر ناظرها مصطفى بك عبد الهادي مجلة أسـبوعية اسـمها نـداء الـوطن، واسـتعان بـرئيس تحريـر من أعضـاء النقابـة هـو المرحوم مختار الغمراوي، أما المحررون فقد اختـارهم النـاظر من بين التلاميذ الذي يقرضون الشعر، ويلقون الخطب العصماء في مظـاهرات الطلبة ضد الإنجليز، وكان العبد لله واحدا من هؤلاء. وكان حي الزمالك هي محـور أول موضـوع صـحفي دبجـه قلم العبـد للـه. واقـترحت على حكومـة مصـر وقتئـذ أن تقيم منافـذ جمركيـة ومكـاتب لإدارة الهجـرة والجنسـية على أبـواب حي الزمالـك، بعـد أن أصـبح الحي دولـة قائمـة بذاتها. حيث أن جميع اليفـط بـالحي مكتوبـة باللغـة الإنجليزيـة وتحمـل أسماء غريبة، بقالة لانكشاير، مكوجي ليفربول، جزارة كيتشز، فكهـاني هايدبارك، كما كان الحي نفسه محرما دخوله على أبناء البلـد، أصـحاب الجلابيب والطـرابيش والشباشـب الزحـافي. باعتبـار الحي المـذكور منطقة محرمة إلا للخواجات والبشوات والبكوات والستات الألماظيـات المتألقات المتبلطات بفرو الذئاب وجلود الثعابين.

(115) وبعد نشر الموضوع في المجلـة، وظهـور اسـمي بحـروف المطبعة، أصابت العبد لله لوثـة عقليـة لا أزال أعـاني منهـا حـتى الآن. قرأت الموضوع ألف مـرة، وفرضـت على جميـع أصـدقائي أن يقـرأوه وأن يعيدوا قراءته عـدة مـرات، وأوهمت البعض منهم أن امتحـان آخـر العام سيكون في هذا الموضوع بالذات، وان النجاح سيكون من نصـيب من يحفظ موضـوعي عن ظهـر قلب، ويجيـد شـرحه، ومعرفـة مـا بين السطور! وبالرغم من أن المجلة لم تطبع أكـثر من ثلاثـة آلاف نسـخة، وبالرغم من معرفتي بأن المجلة لم تجد مشتريا واحدا في السـوق، إلا أنني اعتبرت نفسي واحدا من كبار الكتاب، ليس في مصر فقـط ولكن في العالم العربي.

وبدأت أقارن نفسي بمحمد التابعي وأحمد الصاوي محمد. وبدأت أخطط لإصدار مجلات جديدة وإنشاء دور صحفية كبرى. ولكن مجلة نداء الوطن ماتت فجأة بالسكتة القلبية، ولم يترك سقوطها أي رد فعل على الإطلاق إلا عند أصحاب دكاكين اللب والفول السوداني! ولكن الفترة القصيرة التي صدرت فيها نداء الوطن كانت كافية لتجعل الصحافة تسري في دمي وفي عروقي. وتدخل مع أنفاسي في نخاشيشي! ومنذ تلك اللحظة حملت قلمي على كتفي وسرحت في مكاتب الصحف. ونشرت مقالات تكفي باعة اللب والفول السوداني في عموم قارة أفريقيا. وفي مجلات وصحف لم يقرأها أحد ولم يسمع بها أحد، مجلة الخميس، مجلة السحاب، وجريدة الخبر، ومجلة الأسبوع، ومجلة بلادي، ومجلة الرقيب، ومجلة الحقيقة، وجريدة الأزهار، وسر تسميتها بهذا الاسم، هو أن صاحبها ورئيس تحريرها كان من سكان ميدان الأزهار، الذي عرف فيما بعد باسم ميدان باب اللوق.

وكانت أغرب الجرائد التي عملت فيها هي جريدة النيل، وقد اشترك معي في تحريرها كوكبة من الزملاء الذين اشتهروا فيما بعد، من بينهم شيخ المصورين رشاد القوصي، ورسام الكاريكاتير طوغان, والكاتب الصحفي ضياء الدين بيبرس، وكان الشرط الوحيد لمن يريد أن يعمل في تلك الجريدة هو أن يشتري لنفسه مكتبا يجلس عليه. ولأن العين كانت بصيرة والإيد قصيرة، فقد اشتغل أغلبنا محررين ورسامين ومصورين ع الواقف.

وآخر مجلة اشتغلت فيها قبل الثورة هي مجلة الستار، وكان يرأس تحريرها مأمون الشناوي وإبراهيم الوردان ويعمل فيها ثلاثة آلاف محرر، ولكن على طريقة سيدنا عمر بن الخطاب حين أرسل مددا إلى عمرو بن العاص وهو في طريقه إلى فتح مصر وكتب إليه يقول: أبعث إليك بمدد منم أربعة آلاف رجل على رأسهم أربعة رجال

كل منهم بألف، كان جيش المحررين الذي يعمل في مجلة الستار يضم الأستاذ صلاح حافظ، الأستاذ يوسف فكري، والعبد لله. وفي هذه المجلة وعنها سمعت أجمل وأعمق وألذع نكتة قيلت في شأن المجلات البائرة والمجلات الميتة في كل الأزمان فقد تساءل صاحب المجلة في اجتماع التحرير الأسبوعي عن الوسيلة المثلى التي ترفع توزيع المجلة إلى مائة ألف نسخة كل أسبوع، ورد (117) مأمون الشناوي على الفور: نحط سندويتش فول في كل نسخة!

ولم تستقر أحوال العبد لله في بلاط صاحبة الجلالة إلا بعد قيام الثورة وتنقلت على مدى ستة وثلاثين عاما في ثلاث دور صحفية فقط لا غير، واشتغلت لمدة عام في جريدة القاهرة، وخمسة أعوام في جريدة الجمهورية، وقضيت ثلاثين عاما في مؤسسة روزاليوسف.

وبدأت محررا بالقطعة، وأول مرتب حصلت عليه كان عشرة جنيهات، وانتهيت بأعلى مرتب تسمح به قوانين الدولة.

وتوليت عدة مناصب في بلاط صاحبة الجلالة، رئيسا لقسم الشئون العربية، ورئيسا لقسم الأخبار الداخلية، ورئيسا للقسم الفني، وسكرتيرا للتحرير. ورئيسا للتحرير، وشرفني زملائي في السنوات الأخيرة من خدمتي باختياري لعضوية مجلس الإدارة. وفي يوم 20 نوفمبر الماضي آن للصحفي العجوز أن يسلم .. ليس القلم الذي يكتب به، ولكن الدوسيه الذي يضم أوراقه، فقد أحيل الولد الشقي أخيرا إلى المعاش، والمعاش في بلاط صاحبة الجلالة، لا يعني التوقف عن الكتابة أو الكف عن ممارسة المهنة، ولكن يعني فقط أن السيد المحال إلى المعاش ليس في مقدوره أن يتولى مناصب رسمية، ولا يحق له أن يجلس على مقعد في مجلس الإدارة، ولكنه يستطيع بعد ذلك أن يصنع أي شيء وكل شيء في بلاط صاحبة الجلالة.

وهكذا انضم صاحبكم إلى النادي الذي يضم جلال الحمامصي، ومصطفى أمين وموسى صبري ومحمد عودة وفتحي غانم ويوسف إدريس وأحمد بهاء الدين، وصلاح حافظ وكامل زهيري وأحمد الصاوي محمد، وحافظ محمود، وعشرات آخرين من الكتاب والفنانين والحق أقول أيها السادة أن العبد لله لم يذق طعم الاستقرار في بلاط صاحبة الجلالة الصحافة إلا بعد التأميم.

وقبل ثورة 23 يوليو عملت في صحف حزبية كبيرة، بعضها لم يصرف مرتبي حتى الآن في فترة من الفترات اشتغلت في مجلة حزبية كان صاحبها يحمل البكوية الرسمية، وينحدر من أصول شركسية، ويمتلك عدة قرى في ريف مصر، ويشترك مع الأنبياء في صفة واحدة هي الأمية، وكان مرتبي في هذه المجلة لا يزيد عن عشرة جنيهات، ولكني اكتشفت بعد عام كامل قضيته في مجلة البيك إياه بأنني لم أتقاض سوى ثلاثين جنيها، بواقع جنيهين ونصف جنيه شهريا، وكنت أدبر أمري بكتابة نصوص إذاعية لمحطة الشرق الأدنى، ولكني لم أنقطع يوما واحدا عن العمل في المجلة.

ولم أتوقف أسبوعا واحدا عن الكتابة ولكن بعد الثورة استقرت أمور الصحافة، وأصبح للصحفيين نقابة تدافع عن المحررين ولا تدافع عن أصحاب الأعمال.

(118) ورغم اتهامي مرة بمحاولة قلب نظام الحكم، ومرة بالخيانة العظمى (!) إلا أن السلطة لم تستطع فصلي من نقابة الصحفيين، وفصلني رئيس نقابة عمال المؤسسة التي كنت أعمل فيها بعد ثلاث ساعات فقط من إلقاء القبض علي، دليل على أن هذه النقابة ورئيسها من فصيلة العمال الملتزمين بميثاق الشرف العمالي، ومن المناضلين الذين يستشهدون في سبيل حقوق الأعضاء!!

والآن أصبح لنا مجلس أعلى للصحافة، وصار من حق الصحفيين أمثالي أن يحصلوا على شهر مكافأة عن كل عام يقضونه في خدمة الصحافة. وصار من حقهم أيضا أن يمدوا خدمتهم إذا شاءوا، وأن يقبضوا معاشهم من الدولة، ويحصلوا على الفرق بين المعاش والمرتب من الجريدة وها أنذا الحمد لله على المعاش منذ ثلاثة شهور ولكني لا أحصل إلا على الفرق فقط من المؤسسة التي أعمل فيها، أما المعاش نفسه فقد ضاع يا ولداه بين استمارة 6 وقسيمة بند 2 وملف 1/17 وصورة من القرار الوزاري رقم 9، والقرار الجمهوري رقم 685 لعام 1974 المعدل بالقرار رقم 912 لعام 1975 المتعلق بقانون تنظيم الصحافة رقم 16/12/53 ج، وهو القانون الخاص بالصحفيين أعضاء النقابة الذين بلغوا سن الستين، والذي يجوز لهم في حالة الخدمة، احتساب مدة الخدمة السابقة على معدل الخدمة القادمة، تأسيسا على ما جرى عليه العمل، بالقوانين المرعية، وبناء على ما استقر عليه رأي القضاة والقانون الإداري ومجلس الدولة، من أجل ربط المعاش بطبيعة العمل المترتبة على التأسيس الجبري، حسب نص القانون رقم 119 لسنة 650 هجرية بشأن تنظيم ديوان الإنشاء الذي صدر في عهد السلطان برقوق، مع مراعاة كل القوانين التي صدرت فيما بعد وآخرها الفرمان رقم 16 لعام 1748 بشأن إنشاء الوقائع المصرية، وما ترتب عليها من حقوق لجميع المحررين والقراء!!

أما مكافأة نهاية الخدمة فقد ضاعت هي الأخرى في بلاط المجلس الأعلى للصحافة، ولكن وعلى رأي إحسان عبد القدوس لا شيء يهم، فالحصيلة لا بأس بها والنتيجة خير على كل حال، وكتبنا والحمد لله على مدى أكثر من أربعين عاما مئات الأطنان من المقالات، استهلكت عشرات الأطنان من الورق، استفاد بها تحالف قوى الشعب العامل من باعة اللب وباعة البلح الأمهات، وربات البيوت

اللواتي استخدمن مقالاتي في مسح زجاج النوافذ، وحكمة الله أن مقالاتي تمسح أكثر بياضا، كما أن هناك فرق!! وثلاثون كتابا أولها "السماء السوداء" وآخرها "رحلات بن عطوطة". وخمس مسرحيات أولها فيضان النبع وآخرها بين النهدين وعشرات المسلسلات الإذاعية والتليفزيونية في مصر وفي العالم العربي وبلاد تركب الإيرباص، وتخلل هذا كله خمس مرات فصلا من الوظيفة، وخمس سنوات سجنا على ثلاث فترات وفي ثلاثة عهود مختلفة وعشر سنوات صياعة خارج بر مصر.

(119) ومع ذلك نحمد الله لأن حرفتنا كانت هي نفسها هوايتها، وبقدر ما تعذبنا بقدر ما سعدنا، وكانت روضتنا بقدر شهرتنا، وكانت حياتنا في بلاط صاحبة الجلالة بمثابة حرب عظمى خسرنا فيها معارك كثيرة ولكننا في النهاية كسبنا الحرب!

أما المعاش، وأما مكافأة نهاية الخدمة، فهي كلها مسائل مادية ودنيوية، ونحن والحمد لله من أبناء الطريق ومن أهل الله. والحمد لله لأن حياتنا لم تضع سدى وجهدنا لم يذهب هدرا، ويكفي أننا اكتشفنا في نهاية الأمر حكمة كانت غائبة عنا، ولو أننا متنا قبل أن ندركها لحصل لنا نفس الشيء الذي حصل لكلبة يزيد.

وتسألني وما الذي حدث لكلبة يزيد؟ أجيبك بأنني لا أعرف ولا يزيد أيضا! ولكن يكفي أننا اكتشفنا في نهاية الأمر، أن الصحافة ليست هي مهنة البحث عن المتاعب، وإنما هي مهنة البحث عن المكافأة، وفي قول آخر مهنة البحث عن المعاش.

وعاش المجلس الأعلى!!

مارادونا عبد اللطيف!

(122) إذا كان صحيحا دائما: يا ميت ندامة على اللي حب ولا طالش. فأحيانا يكون صحيحا: يا ميت ندامة على اللي حب وطال وأقرب مثال على صحة هذا المثل المقلوب، هو الفريق القومي المصري لكرة القدم ومديره الخواجة سميث ومدربة شحتة! فقد أثبت الجهاز الفني الحالي أن أعضاءه يحبون الكرة، وأثبت "لعيبة" الفريق القومي أنهم يحبون مصر، ومع ذلك لم يسلم "اللعيبة" ولا الجهاز الفني تبعهم من ألسنة وأقلام البعض، ولم يتورع بعض السادة إياهم عن وصفهم بأحط الصفات، والمطالبة بتسريح الكابتن شحتة، والقبض على الخواجة سميث وترحيله إلى لندن عن طريق الإنتربول. وذهب البعض إلى بعيد فطالبوا بمحاكمته في القاهرة أمام محكمة الثورة الكروية، باعتباره أتي أفعالا من شأنها الإضرار بالأمن الكروي المصري وذلك لأنه خلال النصف الأول من شهر أغسطس عام ألف وتسعمائة وسبعة وثمانين تآمر مع آخرين من بينهم مجدي عبد الغني ومحمد رمضان وعماد سليمان وشوقي غريب على إحراز بطولة دورة الألعاب الأوليمبية الأفريقية في غياب العبقري طارق يحيى، ومن وراء ظهر المايسترو علاء ميهوب!

وإذا كانت هذه الصورة الكاريكاتورية قد تعمدت رسمها لحضراتكم لكي أرسم ابتسامة على وجوهكم قبل أن تقرأوا ما هو قادم من السطور، وهي سطور ستجلب الغم والهم إلى نفوس حضراتكم، وستحل الكآبة على وجوهكم محل الابتسام.

والحق أقول يا سادة يا كرام أن الدورات الأولمبية ليست عبثا، ولا هي مهرجانات للتسلية عن النفس، كما أنها ليست مباريات رياضية بين

بعض الأفـراد الـذين يحملـون جنسـيات مختلفـة، ولكنهـا في الحقيقـة منافسة بين دول، وامتحان لمجتمعات، واختبـار عملي ومفيـد لمـوازين القوة في كل دولة، كما أنها مرآة تعكس حقيقة الأوضـاع في كـل بلـد، وهي أيضا كشف حساب تقدمه الدول في هذه المناسـبة عن أوضـاعها الراهنـة في التعليم وفي الصـحة وفي الـثراء. وهي في (123) النهايـة شهادة دولية معترف بها تحدد حكم كل دولة ووزنهـا الحقيقي، وتضـعها في مكانهـا الصـحيح والمناسـب على هـذا الكـوكب المـدهش المثـير. ولذلك ولهذا أيضا لم تصبني الدهشة لفوز مصر ببطولة الدورة الرابعـة الإفريقية، فهـذا مكـان مصـر الطـبيعي، وخلاف هـذا الوضـع يصـبح في الأمر حاجة غلط، ويكون هناك خلل لا شك.

فمصر هي أول دولة في الدنيا وبالتالي هي أول دولة في أفريقيـا، وفي العصر الحديث وعندما كنا نتنـافس مـع أوروبـا، كـانت أفريقيـا .. تعيش خلف ستار حديدي، ولم يكن مسموحا لأحد من سـكان الشـمال الأفريقي برؤية أفريقيا السوداء إلا من خلال أفلام هوليود وعلى شاشة سينما مترو! وهكذا ترون أيها السادة أن فوزنا ببطولة الدورة الأفريقية هو مجرد عمل عادي وروتيني كما أنه واجب وطني أيضا. وإن كان هـذا لا يمنع من شكر الـذين أشـرفوا على إعـداد الفـرق المصـرية، ورعايـة الأبطال الذين رفعوا اسم مصر عاليا، ودقوا طبولهـا في غابـات القـارة السمراء، خصوصا أبطال المصارعة والسـباحة والجـودو ورفـع الأثقـال الـذين أدوا واجبهم برجولـة واستبسـلوا بفدائيـة، وفـازوا عن جـدارة واسـتحقاق! ولكن المعجـزة الحقيقيـة هي النتيجـة الـتي حققهـا فريـق مصر القومي لكرة القدم، لأنه في خلال ثلاث دورات أوليمبيـة أفريقيـة خرج فريقنا الكـروي مـرة بالانسـحاب ومـرة بالفشـل، والمـرة الثالثـة حصل على الميدالية البرونزية بطلـوع الـروح. ولكنـه في هـذه الـدورة الأخيرة حصل على الذهبيـة وعلى البطولـة، وبـالرغم من ذلـك انهـالت

السكاكين على الخواجة سميث مدير الفريق وعلى الكابتن شحتة مدربه.

وهي مسألة غريبة ومريبة أيضا من جانب بعض السادة الذين لطموا الخدود وشقوا الجيوب لأن الخواجة الإنجليزي لم يستعن بالعبقري الأوحد طارق يحيى، وبعضهم طالب بفصل المدرب والمدير لأنهما تجاهلا عمدا ومع سبق الإصرار الكابتن حمادة عبد اللطيف الشقيق التوأم للكابتن مارادونا عبد اللطيف! وبعض الإداريين بالاشتراك مع بعض المطيباتية والهتيفة ارتكبوا عملا عدائيا ضد الفريق في نيروبي وينبغي مساءلتهم ومحاكمتهم أيضا، إذا صح ما حملته إلينا الأنباء من هناك. فقد قيل أن البعض هرول بعد إصابة شوقي غريب إلى اللجنة المنظمة للدورة، وإلى طبيب مصري يدير مستشفى نيروبي ونجح السادة المهرولون في الحصول على إذن باستدعاء لاعب من القاهرة، وتطوع السادة إياهم – مشكورين – بتحديد اسم اللاعب النابغة الذي حتما ولا بد وهلبت سيأتي بالديب من ديله، وكان اللاعب المختار هو الكابتن طاهر أبو زيد.

وعلى عيني ورأسي الكابتن طاهر أبو زيد ولا خلاف على نبوغه، ولكن ما جدوى وجود المدرب؟ وما هي وظيفة مدير الفريق؟ ثم ما هو شأن السادة الأفاضل بفريق كرة قدم له مدير خواجة ومدرب وطني؟ وهما وحدهما المسئولان عن الفريق. أفهم (124) أن ينتظر الجميع حتى تنتهي الدورة، ثم بعد ذلك يبدأ الحساب وتبدأ المساءلة. وتصوروا ماذا سيكون عليه حال لاعبي الفريق القومي إذا اكتشفوا فجأة والدورة في ذروتها أننا حكمنا عليهم بالفشل، واستعنا بمدد كروي من القاهرة وعلى طريقة عمرو بن العاص حين طلب مددا من المدينة وهو على أهبة فتح مصر، فأمده الخليفة بأربعة رجال كل رجل منهم بألف!

الغريب أن أحدا من السادة الأفاضل الذين ألحـوا في طلب المـدد لم يسأل نفسه مرة واحدة عن الأثر الذي كان سـيتركه هـذا المـدد في نفوس اللاعبين. ولقد تضاعف احترامي للمدرب شحتة والمدير سـميث لأنهما تجاهلا هذه الأعمال الصغيرة فلم يرفضا صراحة ولم يستجيبا لها، ومرا بها مـر الكـرام! ويبـدو أن البعض لا يـزال يعيش في أيـام زمـان، عندما كان التغيير والتبديل يجري عن طريق تليفون تم تركيبه خصيصـا في المقصورة، لمواجهة اللحظات العصـيبة والطارئـة والـتي تسـتدعي تدخل السادة الأكابر الذي لا علاقة لهم بكرة القدم إلا من خلال الفرجة عليها من جهاز التليفزيون. وكان هؤلاء البعض لا يستحي من ذكـر مثـل هـذه الوقـائع باعتبـار أن التغيـير الـذي أمـر بـه الأكـابر كـان ضـربا منم ضروب العبقرية والإلهام. كما أنه نصر من الله وفتح قريب.

البعض أيضـا ملأ الـدنيا صـراخا وصـياحا، ليـه؟ لأن الكـابتن علاء ميهـوب قلشـون من المنتخب، وقلشـه هـو السـر وراء كـل الهـزائم والنكبات. يا سلام!! طيب، فريقنا القومي خـرج من الـدورات السـابقة وقفاه "يقمر عيش" كما يقول المثل مع أنه في تلك الـدورات الفاشـلة كان يضم المايسترو والعازف والفلتة والمراوغ والسـاحر والفنـان. مـا الـذي فعلـه هـؤلاء في تلـك الـدورات؟ ومـا الـذي فعلـه هـذا الفريـق "السكة" في الدورة الأفريقية الأخـيرة؟ الفريـق "السـكة" حصـل على الميدالية الذهبيـة وعلى البطولـة، وفريـق المايسـترو والعـازف وعجين الفلاحة ونوم العـازب خـرج من كـل الـدورات برضـا الوالـدين. ثم نحن أحضرنا الخواجة لكي يختار، وليس واردا بالطبع أن يكـون الخواجـة هـو المـدير ثم نـترك الاختيـار للسـادة المشـجعين الـذين يجلسـون في المدرجات.

ثم تعالوا بنا نلقي نظرة على كشف الحسـاب. لقـد جـاء الخواجـة سميث إلى القاهرة وتسلم مهام منصبه مع شـحتة ومصـر على أبـواب

البطولة الأفريقية، ولأن الخواجة كان يتحسس طريقه، ولأن شحتة كان يتهيب المواقف، فقد لعبنا بمحمود الخطيب وطارق يحيى وعلاء ميهوب وانهزمنا في أول مباراة أمام السنغال، ولم يستطع العبقري طارق يحيى أن يمر مرة واحدة من الظهير السنغالي، ولم يسجل الخطيب شيئا ولا علاء ميهوب، في الوقت الذي كان فيه هداف مصر المرحوم حازم يجلس على الدكة يتفرج، ومحمد رمضان يجلس في بيته يشاهد المباراة في التليفزيون. وفي المباراة الثانية أمام ساحل العاج، ظلت النتيجة هي التعادل (125) حتى منتصف الشوط الثاني، وانخلعت قلوب المصريين في المدرجات وفي المنازل أمام أجهزة التليفزيون، وفتح الله على شحتة فأشرك شوقي غريب في المباراة، وبعد دقائق سجل هدف مصر الأول وكان أول استفتاح على طريق البطولة الأفريقية.

واشترك الفريق القومي بعد ذلك في مباراة مع تنزانيا وأحرز عشرة أهداف في القاهرة وفي دار السلام، ثم لعب الفريق مع كينيا، وسجل سبعة أهداف، ثم اشترك في دورة كوريا وتعادل مع كوريا التي اشتركت في كأس العالم، وهزم أمريكا التي تعادلنا معها في دورة لوس أنجلوس رغم اشتراك الخطير والمهيب والحبيب والعقيد والمختار. ولم تهزمنا أستراليا إلا بضربات الجزاء ثم كانت الدورة الأفريقية في نيروبي وفاز الفريق فيها بالميدالية الذهبية، بالرغم من أن الفريق فقد في أول مباراة شوقي غريب وعماد سليمان، وهزمنان السنغال التي هزمتنا في القاهرة، وهزمنا ساحل العاج، وهزمتنا مالاوي بهدف هو مسئولية حارس المرمى ولا أحد سواه. ومع ذلك فرب ضارة نافعة لأن هزيمة الفريق في الدور التمهيدي أفضل من هزيمته في دور الأربعة. وتغلبنا على الكاميرون بضربات الجزاء، وهي نفس النتيجة التي انتهت إليها مباراتنا معه في القاهرة وأمام مائة ألف متفرج مصري احتشدوا في الاستاد، ثم كانت المباراة النهائية وفزنا فيها على

كينيا صاحبة الأرض وأمام ستين ألف متفرج كيني احتشدوا في الملعب وهم يزأرون كأسود الغاب.

ما هي الجريمة إذن التي ارتكبها الخواجة سميث والكابتن شحتة؟ وما هو المجد الذي كان يمكن أن يحققه العبقري طارق يحيى أو اللوذعي علاء ميهوب؟ لكنها عقدة الأهلي والزمالك، والهزيمة بكابتن الأهلي والزمالك خير من النصر على يد كباتن الترسانة والإسماعيلي، تماما كما أن الاستعمار على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلي.

ولكني أقول للسادة إياهم إن هذا كان زمانا ومضى، ولا بد لنا الآن من إعطاء العيش لخبازينه ولو أكلوا نصفه. وهذا الفريق الذي صنعه شحتة والخواجة سميث هو أعظم فريق قومي شهدته مصر في تاريخها الطويل، لأنه فريق بلا كوسة وبلا خواطر وبلا ضغوط. وميزة الخواجة سميث أنه لا يعرف الأهلي ولا يعرف الزمالك، وهو لا يعرف غير الكورة، ولا يقدر غير الجهد الذي يبذله اللاعب أثناء المباراة. وهذا الفريق القومي الحالي هو أول فريق مصري يلعب كرة جماعية ولا يعتمد على اللاعب الفرد الذي يلعب بالكعوب وطراطيف الأصابع والأهداب، والذي لا يعنيه إلا تأوهات الجماهير في المدرجات، أما إحراز الأهداف أو الحصول على الميداليات فهذه إرادة السماء، وليس للبني آدم اللعيب أن يتدخل فيها بأي حال من الأحوال!!

(126) وبعد أيها السادة لقد انتهى عصر اللاعب الأوحد والدليل على ذلك ما حدث أخيرا في دورة أمريكا اللاتينية، فقد انهزمت الأرجنتين على أرضها وخرجت من الأدوار التمهيدية، والنجم الأوحد مارادونا على رأسها، وانهزمت البرازيل أيضا في الأدوار التمهيدية، وكان يلعب ضمن صفوفها سقراط وأفلاطون وسارتر وزكي نجيب محمود. ولعب المباراة النهائية فريقا شيلي وأوروجواي وليس في الفريقين لاعب واحد مشهور خارج بلاده، وفاز أوروجواي بكأس أمريكا

اللاتينية رغم أنف العبقري مارادونا الذي يلعب غالبا لمارادونا ولا يلعب للأرجنتين.

وصدقوني أيها السادة إذا قلت لحضراتكم أن هذا الفريق القومي بتشكيله الحالي تحت إدارة الخواجة سميث وشريكه شحتة، هو الفريق الذي سيكون له شرف تمثيل مصر في مسابقة كأس العالم المقبلة في روما، وأراهنكم بكل ما يملك سلطان برونو وعدنا خاشقجي وأشرف قاسم .. أقصد أشرف مروان .. هل من مراهن؟

اللهم فاشهد ..

اللهم قد راهنت!

ابن الدايرة!

(138) زمان .. انخبطت في عقلي ورشحت نفسي في انتخابات الاتحاد الاشتراكي في دائرة قسم الجيزة. وكان عدد المرشحين في الدائرة يكفي لإنشاء فرقة تستطيع تحرير فلسطين بسهولة، واكتشفت أن جميع المرشحين اشتراكيون قبل ظهور الاشتراكية، وثوار قبل قيام الثورة، وكلهم مع الكفاية والعدل وتذويب الفوارق بين الطبقات، كلهم بحمد الله وبلا استثناء، وكان من بينهم مهرب العملة وتاجر السوق السوداء، وأغلبهم كان مرشحا عاما في جميع الانتخابات التي شهدتها مصر منذ ثورة أحمد عرابي وحتى الثورة الخضراء! وكان من بينهم مرشح يحتفظ في بيته بمئات المنشورات الكبيرة الحجم، وكلها تحمل صورته فقط، وكان يطل فيها على الجماهير وقد أسند ذقنه على كفه على طريقة الشاعر شوقي، وفتح فمه عن ابتسامة ساحرة على

طريقة الفنان محمد العربي. وكانت هوايته الوحيدة هي خوض جميع معارك الانتخابات التي تجري في الجيزة، من أول انتخابات مجلس الشعب إلى انتخابات مجلس إدارة جمعية دفن الموتى، وكان يكتفي بلصق صورة بالحجم الطبيعي على الحوائط وجذوع الشجر وأعمدة النور، وكان يطوف بسيارته آخر الليل يستعرض صوره وهو يطل على الجماهير وقد أسند رأسه على كفه وابتسم، وكان يخسر التأمين دائما في كل انتخابات يخوضها، وكان يحصل على أقل من مائة صوت في دائرة تعدد أصواتها ثلاثون ألفا.

ولكنه لم ييأس قط ولم يكف عن خوض المعارك الانتخابية، ولم يتردد في ترشيح نفسه مرة واحدة واكتشفت في أول أيام الحملة الانتخابية أن على العبد لله أن يطوف بجميع المقاهي في الجيزة، وأن يصافح جميع المارة في الشارع، الذين من أهل الجيزة والذين من غيرها، وأن يرفع شعارا واحدا يواجه به الجماهير .. هو السلام عليكم، فترد الجماهير وعليكم السلام.

وأدركت حكمة فيلسوف الشعب المرحوم عمر الجيزاوي في مونولوجه الشهير اتفضل شاي .. لأ أنا متشكر، وساعدني إلمامي بالتراث في الخارج من مأزق (129) اتفضل شاي "الناخبون هم الذين يعزمون على العبد لله" وكنت أرد لأ أنا متشكر، فإذا أعادوها كنت أقتبس رد عمر الجيزاوي أيضا مع فارق بسيط فأقول أنا عندي جولة بينما المرحوم الجيزاوي كان يقول أنا عندي قضية! وهكذا صارت الجولات التي من هذا النوع، هي قضيتي الأولى والأخيرة، وفي يوم الانتخابات اكتسحت الدائرة اكتساحا رهيبا، وقد أصابتني الدهشة الشديدة لهذا الاكتساح الذي لم أعرف سببه حتى الآن. فأنا يشهد الله لم تتح لي فرصة الحديث مع أحد أو شرح برنامجي لأحد، أو استعراض وجهة نظري في مشاكل الجيزة، أو وسيلتي لحل مشاكل الجيزة، لأن

أحدا لم يسأل كمـا أن الظـروف لم تتح لي فرصـة للشـرح والتفسـير، كانت المعركة هي السلام عليكم وعليكم السلام، واتفضل شاي ... أنـا متشكر، واتفضل شاي .. أنا عندي جولة! ويبدو أن الناخبين اقتنعوا بهذا البرنامج، فما دمت أبـدأ النـاس بالسـلام، فأنـا إذن رجـل سـلام ورجـل حـرب إذا اقتضـت الظـروف، لان الـذي يسـلم في البدايـة ممكن أن يتعارك في النهاية، وأيضا ربمـا تصـوروا أن شـعاري هـو يـد تسـلم ويـد ترفع السلاح، وبما أنني لا أقبل عزومات الشاي، فأنا إذن رجـل عفيـف ونظيف وشريف، كما أنني لا بد وأن أكون من الرجـال الـذين يسـيرون على خط مستقيم، فلا شاي ولا قهوة، ولا سهر الليـالي من أجـل بلـوغ المعالي، ولكنه النوم البدري والصحيان المبكر من أجـل زيـادة الإنتـاج، ورفعة الأوطان، وتيسير الإجراءات أمام المصدرين! وأيضـا لأنـني أصـر عند تكرار العزومة على الرفض بحجة أن عندي جولة، فهـذا دليـل آخـر على أنني رجل مهام عظيمـة فالجولـة هي سـفر قصـير، وفي الأسـفار سبع فوائد، لم أعرف منها إلا فائدة واحدة حتى الآن، هي الفرجــة على مخاليق الله في بلاد الله. ولكن في تلك الانتخابات التي تـورطت فيهـا، كان لا بد من التصـعيد من القاعـدة إلى لجنـة القسـم، ثم التصـعيد من لجنة القسـم إلى لجنـة المحافظـة ومن لجنـة المحافظـة إلى المـؤتمر العــام، وخــرجت من بحــر الجمــاهير إلى لجنــة العشــرة الــتي تنتخب منــدوبيها إلى لجنــة القســم، وكــانت معركــة ولا معركــة الباســوس، واكتشـفت أن الانتخابـات وسـط القاعـدة أسـهل بكثـير من الانتخابـات وسـط عشـرة منـدوبين ولكنـني اسـتطعت اجتيـاز هـذه العقبـة بفضـل الترتيبات والتربيطات والكومبينات وشـغل الثلاث ورقـات الـذي فـرض نفسه على مجتمع المرشحين، واكتشفت لحظة الاقـتراع أن كـل واحـد من العشرة قد عقد اتفاقـا مـع العشـرة، وأن الكـل سـينتخب الجميـع! وعند التصعيد إلى لجنة المحافظة، تساوت أصواتي مع أصـوات مرشـح آخر، فتقرر إجراء قرعة، واختارت القرعة الأكثر نضالا والأكثر اشتراكية

والأكثر تضحية، وفاز منافسي بالمقعد، وذهب العبد لله في البـاي بـاي! وثبت أن القرعة كانت على حق، فقـد ظـل منافسـي اشـتراكيا ملتزمـا إلى آخر يوم في عمر الاشتراكية، ثم انفتح مع الانفتاح، فصـار مليونـيرا وبنكيرا ورجل أعمال يشار إليه بالشيكات! ولفت نظري خلال المعركـة مئات الوعود بذلها عشـرات المسـئولين، من أول المحافـظ إلى رئيس قسم النظافة، وعد بشق طرق وإقامة مبان وغرس ثلاثين ألف شـجرة في حواري الجيزة، وإقامة (131) ناطحات سحاب داخل حـارة رابعـة، وإنشاء بلاجـات على الشـاطئ الشـمالي لبحـيرة النشـع الـتي يقصـدها وفود السياح الذين يأتون إليها خصيصـا من بـولاق الـدكرور وعزبـة أبـو قتادة! وبعضهم تبحبح أكثر فوعـد بإرسـال بعصـان تعليميـة من الجـيزة إلى الخارج .. أقصد إلى بنهـا وديـروط الشـريف! وإنشـاء مفاعـل ذري لإنتاج قنبلة ذرية الجهود الذاتية، وهي متوفرة والحمد لله بسبب نشـاط الأمعاء بعد وجبة كوراع وبصل مخلل! ولكنهم جمعيا والحق أقول كـانوا في غاية الواقعية.

فلم يعد أحـدهم بتبليـط حـواري الجـيزة المفحـرة، ولا ردم الـبرك والمستنقعات، وإن كان البعض قـد وعـد بجـذب السـياح إلى شـواطئها الجميلة، أقول لم يعد أحد من المسئولين الصغار بإنجـاز هـذه الأعمـال التافهة، باعتبارها أشياء مستحيلة!

وكان بين المرشحين في ذلك الزمان معارضة رغم وقوف الجميع تحت مظلـة الاتحـاد الاشـتراكي. كـان من بين المرشـحين فلـول من أحزاب العهد الملكي السابق، وكان هناك يساريون من بقايـا تنظيمـات قديمة انفرط عقدها بسبب المطـاردة والتنكيـل، أمـا الفلـول القديمـة، فأغرب شيء أنها وعدت الجمـاهير بجلاء المسـتعمر البريطـاني مـع أن المستعمر البريطاني كان قد حمل عصاه على كاهله ورحـل منـذ اثـني عشر عاما طويلة. أحد هؤلاء وكان يقترب من السبعين كان يحمـل في

يده دائما نسخة من صحيفة البلاغ التي أغلقت أبوابها منذ عشرين عاما، وكان يتهم منافسيه بأنهم على علاقة بالمندوب السامي، وكان عندما ينفعل يصرخ متشنجا، فليسقط قصر الدوبارة وكان يشيع بين الناس أن بريطانيا العظمى أرسلت بالقرب من شواطئنا فرقاطة للضغط على الحكومة من أجل إسقاطه! أما فلول التنظيمات السرية القديمة فقد أعلنوا أن هدفهم من الترشيح ليس النجاح في الانتخابات ولكن مخاطبة القاعدة العريضة، ومن أجل هذا الهدف اكتفوا بعقد ندوة مسائية في قهوة كتكوت في ميدان سوق الأحد بالجيزة وتعاقبوا في الحديث مع الجماهير عن الشواطئ العيا للبرجوازية، وعن بطولة الزمن الغابر والتفسيرات المرضية التي صاحبت ظهور البطل، والوضع السالب في النظرة للحياة، وهي نظرة مستعادة ومستردة من هذا الزمن السرمدي، مع توهج الوعي وتأججه من خلال الشرور المحيطة والآثار المدمرة لتحركات الأسطول السادس وحلف بغداد ومؤامرات حلف الأطلنطي واستغلال العائلات الخمس لعرق الكادحين من أجل شروق شمس الحرية على وادي العرقانين من أجل ثراء لا نظير له وسعادة لا حد لها، حيث يستطيع أن يغترف الجميع من مخازن لا ينفد ما فيها وعلى طول المدى! ويبدو أن رواد الندوة قد طالتهم هذه السعادة الأبدية بالفعل، لأنهم انسجموا واندمجوا إلى حد أنهم لم يستطيعوا مغادرة أماكنهم للاشتراك في التصويت، حتى المرشحون الذين كانوا يتعاقبون على الحديث في الندوة، لم يظهر لهم أي أثر في مراكز الاقتراع ولم أكتشف السر إلا بعد ذلك بسنوات طويلة.

(132) فقد علمت أن المعلم كتكوت انتهز فرصة عقد الندوة السياسية في المقهى كل مساء فأقام ندوته الخاصة داخل المقهى واهتم بالرص والتكريس من أجل تعاظم انسجام طبقة الشغيلة وتعمير أمخاخ الشقيانين والذين على باب الله! وكان المعلم كتكوت ذكيا ولماحا، فقد قدر أن المباحث لن تهجم على القهوة أثناء الندوة

السياسية لأن معنى ذلك أن الديمقراطية في خطر، والحرية في مهب الريح، ومستقبل الوطن على كف عفريت. وسيهرع ألف محام ليرفعوا ألف قضية ضد ممارسات الحكومة القمعية وأجهزتها الدكتاتورية! وكان من بين المعارضين نوع ثالث مختلف، وكان يرى أن الناس نوعان .. نوع يطلق لحيته ونوع يطلق غرائزه. نوع يستجيب للسلف الصالح، ونوع يسير على خطى الخلف الطالح. وكانوا يعدون الناس في حالة نجاحهم بتحرير القدس وتحرير الأندلس، فقط بشرط العودة إلى نهج القعقاع واتباع سلوك عبد الله بن شمروخ، وبارتداء القصير من الثياب وأكل الخشن من الطعام والحرص على صلاة الجماعة، لأن صلاة الجماعة يضاعف الله حسناتها يوم القيامة. أما التليفزيون وبطولة الأمم الأفريقية وكأس العالم ومعرض القاهرة الدولي للكباب وفندق شبت ووادي عبقر ومسرح خفاجي فكلها بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار! أما الجيزة وبلاويها والناس ومشاكلهم أما الغذاء والكساء ونقص البيوت وقلة الأجور فهذه أشياء يمكن كلها على طريقة المرجئة، أي إرجاء النظر فيها إلى يوم الموقف العظيم، باعتبارها أشياء دنيوية، والدنيا فانية ودار غرور وطوبى لمن يصبر، ومن يصبر ينول!

وانتهت الانتخابات وفاز من فاز وإن كان الجميع قد حرصوا على الاحتفاظ بلقب ابن الدايرة مع أن بعضهم لم يكن له سابق علاقة بالدايرة غلا ورق الترشيخ. وخلت شوراع الجيزة من الجولات والقعدات، ولم يعد أحد يسير في شوارع الجيزة رافعا شعار السلام عليكم، واختفى هتاف اتفضل شاي، وحل محله هتاف اتفضل فقط! لأن الشاي للمرشح فقط، أما عابر السبيل، فليس هناك مناسبة لشرب الشاي ... والدعوة هنا مجرد سد خانة، لأنه لن يتفضل، وإذا تفضل فلن يجد ترحيبا من أحد! وتوالت الانتخابات بعد ذلك وجاء أكثر من مجلس أمه وأكثر من مجلس شعب وأكثر من مجلس شورى وجاء

مجلس محلي ومجلس محافظة ومجلس أنس، وتغـيرت أشـياء كثـيرة، حتى الزمن نفسه تغير، ولكن لم يتغير شيء في الجـيزة على الإطلاق. صـحيح حـدث بعض التغيـيرـ ولكن إلى الأسـوأ، بـرك المجـاري ازدادت اتسـاعا، وحفـر الطريـق ازدادت عمقـا، وتلال الزبالـة ازدادت ارتفاعـا وصار الحصول على تصريح بناء أصعب من الحصول على مفتاح لدخول الجنة، وانقرض عهد الإدارة في الجيزة فلم يعد هناك ضـابط ولا رابـط، ملاهي تفتح أبوابها حتى الصباح مع أن موعد الإغلاق الرسمي هو الثانية صباحا، وكل من لديه مخلفات بناء يلقي بهـا في عـرض الشـارع، حـتى صار عدد الشوارع السالكة أقل من عدد الشوارع المسدودة.

ولأن الجـيزة في مهرجـان دائم، فقـد تبـارت (133) ميكروفونـات المآتم مع ميكروفونات الأفراح مع ميكروفونات الباحث عن عيل تايه .. يا ولاد الحلال!

وندوة قهوة المعلم كتكـوتـ البعيـدة عن الثوريـة وغـير السياسـية اتسعت وامتدت، والأشـجار القليلـة الـتي كـانت موجـودة في الشـوارع اقتلعت وانتزعت ولكن الحياة تسير سيرها المعتاد المحافظـة موجـودة والناس موجودة الزحام زاد والخير قل، والدولار أصـابه سـعار والجنيـه المصري انكمش من شدة البرد، ومشاكل المصدرين في طريقها لحل، وبعض الناس زعلانة لأن أسمائهم لم تظهر في القائمة وبعضهم زعلان لأن اسمه جاء في ذيل القائمة فكل المرشحين، والذين كـان في نيتهم الترشيح، كلهم مجندون من أجل مصر وخدمة مصر ورخاء مصر وكلهم مسـتعدون للبـذل والتضـحية والفـداء، وكلهم على مسـتوى المرحلـة، وكلهم يرفـع شـعار السـلام عليكم، وكلهم ممتنـون إذا ردت الجمـاهير وعليكم السـلام، أمـا الشـاي فلا حاجـة لـه الآن، فقـد يكـون من النـوع الملوث، وقد يقضي على المرشح قبل أن يحقق أمنيته ويصل إلى باب البرلمان، إنها صورة من دفاتري القديمة عن انتخابات جرت زمان.

أحلام العبد لله

محمود السعدني

ولقد كان في نية العبد لله أن يكتب عن الانتخابات الحالية، لولا أنني على سفر .. وأيضا لأنني مطمئن إلى صلاحية المرشحين وطيبة الناخبين .. ولذلك أستأذنكم في السفر وأقول للجميع السلام عليكم فيرد الجميع وعليكم السلام، واتفضل شاي لأ متشكر، اتفضل شاي .. أنا على سفر .. ومن كان منكم على سفر، ففي ألف سلامة، والمركب اللي تودي، وعند الانتخابات يستكرد الناخب أو يهان! و .. السلام عليكم .. وعليكم السلام.

عفوا مولانا الشيخ!

(136) أكاد – أستغفر الله – أشق الجيوب وألطم الجيوب وألطم الخدود كما كانت تفعل النساء في الجاهلية الأولى!

وليس سبب حزني وبلائي إلا القحط الشديد الذي أصاب دولة التلاوة بعد أن كانت أخصب بقعة في غيط الفن العظيم في الثلاثينات وحتى الخمسينات من هذا القرن، كانت مائدة التلاوة دسمة ومترامية الأطراف وعليها من كل بستان زهرة.

كان الشيخ محمد رفعت هو قيثارة السماء. كان صوته أشبه بخلطة ربانية من مزامير داود وهديل الحمام، وصوت الكروان الشارد في سماء الله في الليل الحزين.

وكانت خامة صوته من معدن نفيس قراراته ناعمة كالحرير وجواباته سليمة ومتقنة ومقتدرة وشامخة كأعلام فرقة من الجند في طريقها إلى غزوة في سبيل الله. وكان مع الشيخ محمد رفعت عدد

من المشـايخ الموهـوبين، على رأسـهم الشـيخ مصـطفى إسـماعيل صاحب أعذب وأجمل وأرق صوت أنجبته أمة محمد وكان هنـاك الشـيخ عبد الفتاح الشعشاعي صاحب الصوت القوي والنبرات الواضحة والفن العظيم، وكان هناك الشيخ عبد العظيم زاهر، وصوته الذي كـان علامـة رمضـان المميزة وفاكهـة رمضـان المحببـة إلى النفـوس، وكـان هنـاك عبقري النغم والتلاوة الشيخ علي محمود، أعظم صوت رفـع الأذان في تاريخ الأمة بعد صوت مؤذن الرسول سيدنا بلال وإلى جانب هؤلاء كـان هناك عشرات من "المقرئين" المبدعين، الذين تجاوزت شهرتهم حدود مصـر إلى الخـارج، في وقت لم يكن العـالم قـد عـرف من وسـائل الاتصـالات إلا التلغـراف. الشـيخ الفيشـاوي والشـيخ القهـاوي والشـيخ منصور بدار، الذي اختاره الخليفة العثماني ليكون قارئ الخلافة، وشـهد فترة من بزوغها وعاش حـتى شـهد سـقوطها، وعـاد إلى مصـر، وكـان مأتم الزعيم سعد زغلول هو آخر مناسبة شعبية تربع فيهـا الشـيخ بـدار على دكة "المقرئين" ولكن كان هذا زمان ومضى، وخلت السـاحة الآن إلا من قلة قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وهذه القلة الموهوبة هي التي حفظت دولة التلاوة (137) من الزوال، الشيخ عبـد الباسـط عبـد الصمد والشيخ الطبلاوي والشيخ مصطفى غلـوش، وسيصـيبك الإجهـاد لو حاولت البحث عن آخرين لتضمهم إلى قائمة الموهـوبين وسـط هـذا الكم الهائـل من "المقـرئين" الـذين تـزدحم بهم مصـر هـذه الأيـام. والصوت الجميل في دولة التلاوة ليس ترفا، ولكنه شرط أساسي لا بد أن يتوافر في كـل من يتصـدى لهـذا الفن الجليـل. وحـتى رسـول اللـه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سمع موسى الأشعري وكـان حسـن الصوت يقرأ القرآن، فأعجبه، فقال له: لقـد أوتيت مزمـارا من مزامـير آل داود، لو رأيتني وأنا أسمع قراءتك البارحة!! وعن رسول الله أيضـا، أن رجلا من الصحابة جاء إليه بعد الانتهاء من بناء المسجد، وقال لـه يـا رسول الله، لقد رأيت فيما يرى النائم أنني أصعد على ظهـر المسـجد،

فأدعو الناس إلى الصلاة قائلا الله أكبر، أشهد أن لا إلـه إلا اللـه، أشـهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة حي على الفلاح، لا إله إلا اللـه، فقال له رسـول اللـه نعم مـا رأيت، فهـرول الرجـل يريـد الصـعود إلى سطح المسجد ليـؤذن للصـلاة، فاسـتوقفه الرسـول وقـال لـه: دع بلالا يؤذن، فإنه أندى منـك صـوتا. يـا للقيـادة الحكيمـة الجليلـة، الـتي تضـع الرجل المناسب في المكان المناسب. لقد انتهت مهمة الرجـل، فـرأى فيما يرى النائم حلما. ولكن دوره توقف عند هذا الحد. أما تنفيــذ الحلم في الواقع، فسيعهد به إلى رجل آخر أصلح في تنفيذه من الرجل الـذي رأى في المنام. ليه؟ ليس لأنه صاحب سـلطة أو صـاحب نفـوذ، أو من الأنصار المقربين، ولكنه لأنه أندى صوتا. الصلاحية هنا للموهبة والعمــل لمن يستطيع القيام به، والشرف لمن يستحقه. وهكذا صار سـيدنا بلال هو مؤذن الرسول، لا لشيء ولا لسبب إلا أنه كان أنـدى صـوتا. لم يعـد الآن في الساحة من هذا الصنف العظيم الذي هو أندى صـوتا، إلا عمنـا الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، نسأل الله أن يخفف عنه وطـأة مـرض السكر، والشيخ الطبلاوي الذي لم تشهد دولة التلاوة مثيلا له من قبــل، والشـيخ مصـطفى غلـوش الـذي اسـتطاع أن يتخلص تمامـا من تـأثير الشيخ مصطفى إسماعيل، واتخذ لنفسه مدارا خاصا، وصار بذلك واحدا من أقمار دولة التلاوة وحجز لنفسه مكانا مع عباقرة المقرئين.

ولكن الصورة بعد ذلـك لا تسـر عـدوا ولا حبيبـا. مقرئـون أخطـأوا طريقهم إلى حلبات الملاكمة واشـتغلوا بالترتيـل، باعتبـاره أحسـن من كافة شيء يغضب الرحمن الرحيم ومقرئـون لا يعرفـون ألـف بـاء علم القـراءات أحـدهم – وقـد تـدخل الأزهـر فمنعـه من القـراءة – مـع أنـه صاحب صوت جميل ولو كان الشيخ إياه على دراية بفن القراءة، لكــان لـه الآن شـأن آخـر. الشـيخ إيـاه – ولا داعي لـذكر الاسـم – تصـور أن القراءة بالسبعة هي تكرار الآية سبع مـرات، وكـل مـرة بلـون مختلـف ولأنـه فهم السـبعة على هـذا النحـو، فقـد خـرج بقراءتـه عن الشـكل

السليم، وتصرف في كلام الله بما لا يتفق مع الأصول ... ولا يليق!! استمعت أخيرا إلى شريط من أشرطته التي يتداولها الناس في السوق سرا وبلا رقيب كان حريصا على قراءة الآية سبع مرات، باعتبار أن هذه هي القراءات السبع حسب فهمه لها وليس حسب القواعد والأصول وقد (138) أرعش حاجبي صوته الجميل وهو يقول: "إذ قال إبراهيم ربي اجعل هذا البلد آمنا" كررها سبع مرات. مرة إذ قال إبراهيم، ومرة إذ قال إبراهام، ومرة إذ قال برهيم، ومرة إذ قال برهوم. ولا داعي لذكر الباقي، لأن ناقل الكفر كافر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، والقراءات السبع لفضيلة الشيخ إياه ولغيره من المشايخ الذين اشتغلوا بالقراءة من باب أكل العيش، وباعتبار أن الحنجرة البطالة نجسة، واعمل بخمسة وحاسب البطال! أقول لهؤلاء جميعا أن القراءات السبع علم يجب على المقرئين أن يتعلمون. وكتاب القراءات السبع لمؤلفه أبي بكر أحمد بن موسى بن العباسي بن مجاهد التميمي البغدادي المتوفى سنة 324 هجرية. وقد اعتمد القواعد التي قرأ بها سبعة من كبار القراء، وهم أبو عمرو من أهل البصرة، وحمزة وعاصم من أهل الكوفة وسوادها والكسائي من أهل العراق. وابن كثير من أهل مكة، وابن عامر من أهل الشام، ونافع من أهل المدنية وكل منهم كما وصفه ابن مجاهد في مقدمة الكتاب المعرب العالم بوجوه الإعراب والقراءات العارف باللغات ومعاني الكلام، البصير بعيب القراءات المنتقد للآثار وفي تعريف الدمياطي البنا لعلم القراءات علم يعلم منه اتفاق الناقلين لكتاب الله تعالي واختلافهم في الحذف والإثبات، والتحريك والتسكين والفصل والوصل، وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال وغيره من حيث السماع. وببساطة وبدون حلقة سأحاول أن أشرح للقارئ باختصار وعلى قدر الطاقة نماذج من التعديل والتبديل والحذف وكما يسمح علم القراءات ..

خذ مثلا بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين تقرأ (مالك يوم الدين) ويجوز أيضا (ملك يوم الدين) ومثلا (ويضيق صدري) يجوز قراءتها برفع يضيق ويجوز بنصبها أيضا. ومثلا (انظر إلى اعظام كيف ننشزها) وتقرأ (ننشزها) بالزاي المعجمة، وتقرأ أيضا ننشرها بالراء المهلمة، ومثل (وزادكم في الخلق بسطة) بالسين المهملة وتقرأ أيضا (بصطة) بالصاد المهلمة .. و(طلع منضود) وتقرأ أيضا (وطلح) بالحاء المهملة و(جاءت سكرة الموت بالحق) وتقرأ أيضا (وجاءت سكرة الحق بالموت) و(ما عملت أيديهم) وتقرأ أيضا (وما عملته أيديهم) و(إن الله هو الغني الحميد) وتقرأ أيضا (إن الله الغني الحميد).

ومن معالم القراءات أيضا الإظهار والإدغام والإشمام والتفخيم والترقيق والمد والقصر والإمالة والفتح والتحقيق والتسهيل والإبدال والنقل، هذه كلها أوجه اختلاف في علم القراءات وليس من بينها طبعا بدعة تغيير أسماء الأعلام فننطق مرة إبراهيم ومرة أبراهام، ومرة برهيم، ومرة برهوم. كما في قراءة الشيخ إياه! ولكن مصيبة هذا الشيخ أرحم من مصيبة غيره، لأن هذا الشيخ لو تعلم أصول القراءات لكسبنا به نجما ساطعا في دولة التلاوة فصوته جميل وقوي، وهو يشبه قيثارة في يد عازف مبسوط! أما مصيبة الآخرين، فهي (139) مصيبة نسأل الله أن يرفعها عن كاهلنا وأن ينجينا من شرها فكلها بلا صوت، وبعضهم بلا دراسة. أستمع إلى أحدهم أحيانا فأدرك فوائد أن يصاب الإنسان بالصمم والغريب أن أغلبهم مواهب تفتحت بعد الأوان! فبعضهم يدور حول الستين أو فوقها، وأسماؤهم عجيبة كأصواتهم .. الكرداسي والباسوسي والسويسي والجاموسي والبرقاشي والإسماعيلي. ولعلنا نسمع قريبا عن الأوليمبي أعوذ بالله! وهناك بين المقرئين في الساحة من كنت أتوقع له خيرا في قادم الأيام، ولكنهم

توقفوا عند الحد الذي وصلوا إليه ولم يتقدموا خطوة واحدة بعـد ذلـك، كالشيخ أحمد الزريقي.

وهنـاك من درس علم القـراءات ولكن إمكانياتـه الصـوتية ليسـت على مسـتوى علمـه، فتفـرغ في نقـد أصـحاب المـواهب على طريقـة مدرس النحو العربي عنـدما يتفـرغ لنقـد الموهـوبين من الشـعراء كمـا الأستاذ الشيخ أحمد شعبان! ثم لا شـيء بعـد ذلـك في دولـة التلاوة إلا حناجر مبحوحة وأصوات مشروخة، وأفتح أذني على كثير ولكن لا أسمع أحدا.

والسؤال الآن هل عقمت مصر؟ هـل جفت ينـابيع المـواهب؟ هـل ذبلت شـجرة التلاوة؟ الجـواب لا بـالطبع لأن مصـر ولادة والأرض الـتي أنجبت محمـد رفعت وأنجبت من قبـل أحمـد نـدا، ومنصـور بـدار وعلي محمود وأنجبت بعدهم الشعشاعي وشعيشع وأحمد سـليمان السـعدني وهريـدي الشـوربجي والسـنديوني والبنـا والمنشـاوي والـدروي وعبـد العزيز علي فرج والطوخي والفيومي والبهتيمي والنقشبندي والفشـني وعبد السميع بيومي.

هذه الأرض الطيبة قادرة على العطاء والإنجاب في كل وقت. وإذا كانت بعض العواصم العربية قد أغراها فترة القحط التي أصـابت دولـة التلاوة، فخرجت على النـاس بمـزاعم عن مـدارس بغداديـة في التلاوة ومدارس دمشقية، فهي كلها مزاعم ولا أساس لها من الصحة. وأحيانـا أسـتمع إلى بعض المقـرئين في تلـك البلاد فـيزداد إيمـاني بالحكمـة الشـعبية (تشـوف بلاوي النـاس، تهـون عليـك بلوتـك) . والعبـد للـه – والحمد لله – سميع قرآن قديم، وتشرفت بمعرفة الشيخ محمـد رفعت قبل موته، وسعدت بصداقة الشيخ الصيفي والشـيخ الشعشـاعي والبنـا والشيخ محمد سلامة والشيخ مصطفى إسماعيل.

وللعبد لله دراسة عن فن تلاوة القرآن صدرت منذ ثلاثين عاما في كتاب بعنوان "ألحان السماء" ولكن هؤلاء الذين كتبت عنهم في ألحـان السماء مضى أغلبهم إلى رحـاب اللـه. ولكن من نعم الـدهر علينـا أننـا فقدناهم بأجسامهم بينما أصواتهم لا تزال بين أيدينا في أشرطة بعضـها صـالح وبعضـها لا بـأس بـه وفي هـذا الشـهر الفضـيل شـهر رمضـان المبارك، أرجو أن تستعين أجهزة الإعلام بأصوات العباقرة الذين انتقلوا إلى رحمة الله، فهذا أجدر وأنفع عند الله والناس.

أما البقري والجاموسـي والبـني سـويفي والدهشـوري والإطفيحي فاتركوهم يحلون عن قفانا ويسرحون في بلاد الله وخلـق اللـه ورحم (140) الشيخ محمد رفعت عمدة المقرئين في زمانه وفي كل الأزمان، والذي عاش حياتـه كلهـا في حي البغالـة والـذي كـان يسـتخدم الـترام والأتـوبيس والتاكسـي أحيانـا في مواصـلاته، والـذي لم يحـدد تسـعيرة لنفسه كما يفعل كل مشايخ هذه الأيام، والذي جمع في حياته كلهـا من قراءة القرآن أقل مما يحصل عليه الشيخ الدهشوري – أي دهشوري – في ليلة واحدة!

ويا عمنا الكبير الشيخ محمد رفعت في هذا الشـهر الفضـيل شـهر رمضان المبارك اقرأ الفاتحة على روحك وبالنيابة عن جميـع المقـرئين اعتذر لك!

والحساب يجمع

(142) هـل أنت مـديون؟ هـل يطـاردك البـواب والبقـال والجـزار وموظفو الضرائب والعساكر والمحضـرون؟ هـل تعـاني الهم في الليـل

والذل في النهار والقلق في كل الأوقات؟ إذا كنت كذلك فأنت غلطـان وعبيط وجاهل بأصول علم الاقتصاد الجديد ولا تعرف قواعد المـال في العصر الحديث. ونصيحتي لك الآن أن تنسـى همـك وتتخلص من قلقـك وتمضي في طريقك منشرح الصدر، مرتاح الفؤاد!!

فالمديون الآن هو سيد الموقف وكلما غرقت في الـديون أصـبحت في أحسـن حـال .. أمـا الهم والـذل والقلـق والغضـب والتفكـير في الانتحار فهو من نصيب الدائن، الـذي أراد أن يسـتثمر أموالـه للحصـول على مزيد من الأموال فأقرضها لأمثالك من المفلسين!!

ومن الآن فصـاعدا .. اقـترض ولا تهتم .. وأنفـق مـا تقترضـه ولا تعمل حساب الغد، الغد في علم الغيب، ومهمـا يكن حـال الغـد، فـأنت الأقـوى وأنت في الوضـع الأفضـل، وأنت السـيد، وأنت صـاحب الأمـر والنهي، بينما الدائن هو الذي يبكي ويلطم ويصرخ، لأنه هو الذي تعرض للنصب، وتعرضـت فلوسـه "للهـبر" ومـا عليـك الآن إلا أن تنـام، وعلى الدائن أن يبقى ساهرا يضرب أخماسا في أسداس، وإذا كان هذا الحال بين المديون والدائن في دنيا الناس، فالحال أسوأ بين المديون والدائن في دنيا الدول والحكومات فالدول الدائنة تعد على أصابع الكفين بينمـا الدول المديونة هي بقية دول الأرض.

وأصل الحككاية أن الدول الغنية إياها كانت تستعمر الدول الفقيرة إياها وخلال فترة استعمارها نزحت خيراتها ومصمصت عظامها وقضـت على الأخضر واليابس، وعندما رحلت الدول الغنيـة لم تـترك على أرض الدول الفقـيرة إلا عـدة كيلومـترات من الأسـلاك الشـائكة، وعـددا من العملاء ومجموعـة من مقـابر الشـهداء! ولكن لأن الـدول الغنيـة إياهـا قلبها كبير ونفسها حلوة ونواياها طيبة، فقد مدت يـدها للـدول الفقـيرة فأقرضتها على النوتة، والحساب يجمع. وعام بعـد عـام رحبت الـدول (143) الفقيرة بالديون فأقبلت عليها، وهات يا اقتراض وهات يا فلوس،

بفوائـد كـانت ضـئيلة في البدايـة فلمـا تـأخرت في السـداد تضـاعفت الفوائد، فلما تلكأت في السـداد تضـاعفت الفوائـد، ثم ظلت بعـد ذلـك والدول الفقيرة تقترض، والفوائد تتضاعف والفقراء يأخـذون، والأغنيـاء يدفعون وكله على النوتة .. والحساب يجمع!

ولأن الدول المقترضة كانت في الأصـل مظلومـة ومحرومـة، آخـر فقـر، وآخـر غلب، فقـد اهتمت بالمظـاهر والمبـاهج، وأنفقت القـروض على شوراع وكبـاري ومطـارات ومحطـات إذاعـة ومحطـات تليفزيـون وشبكات تليفون، وصـارت مثـل الأقـرع الـنزهي، لا ثـروات حققت، ولا مصانع أقامت، ولا عائد استفادت وخرجت في نهاية الأمر بديون كثـيرة وفوائد أكثر، وعجز كامل عن السداد.

وكان هذا هـو الموقـف بالضـبط في بدايـة الثمانينـات. دول دائنـة ودول مديونة، وبنك دولي يقوم بين الاثـنين بمهمـة الحكم في مباريـات كرة القدم. والحكام – خصوصا في كـرة القـدم – أشـكال على ألـوان. هناك حكم موالي، وهناك حكم مدالس وهناك حكم بهواه مع فريق ضد فريق، وهناك حكم قـابض ومتفـق، ونتيجـة المبـاراة في جيبـه قبـل أن يطلق صفارة البداية، أمـا البنـك الـدولي فقـد كـان من النـوع المـوالي والمدالس والذي يميل مع هواه ومتنفق وقابض ويضـع في جيبـه نتيجـة المبــاراة. وعنــدما شــعرت الــدول المديونــة بــالغبن من ظلم الحكم تململت ثم شــكت ثم هتفت ضــد الحكم، ثم ضــد الحكم والفريــق الخصــم، ثم زعقت وصــرخت، ثم تــركت مقاعــدها واقتحمت أســوار الملعب وهات يـا تحطيم في المقاعـد ويـا تكسـير في المـدرجات، ويـا ضرب في المتفرجين واللاعبين والحكام.

وفي البداية اهتـدت الـدول المديونـة إلى حـل هـو في الأصـل من اختراع الدول صاحبة الديون، وصار جدولة الـديون هـو شـعار المرحلـة وأنت تجدول الديون، أي أنت تؤجل سدادها، وأنت تؤجل سدادها، وأنت

تؤجل سدادها فـأنت تـدفع مزيـدا من الفوائـد ليس على الـديون فقـط هذه المرة، ولكن عليك أن تدفع علي الديون وعلى الفوائد أيضــا. وهي نظريـة اقتصـادية من اخـتراع الخواجـة شـلهوب. وهي أشـبه بالنظريـة المصرية الشهيرة الـتي وضـعتها عالمـة الاقتصـاد زوبـة الكلوباتيـة في القرن الماضي خشبة حبشي. حبشي مين؟ صاحب الخشبة!!

فأنت تقترض وتظل تقـترض، وتـدفع الفوائـد فقـط ثم تقـترض ثم تظـل تقـترض فـإذا عجـزت عن دفـع الفوائـد فلا مـانع من أن تقـترض وتظل تقترض وتستطيع جدولة الديون فتؤجل الدفع ثم تقـترض وتظـل تقترض ثم تقترض وتظـل تقـترض ثم تظـل تقـترض .. على رأي فـؤاد المهندس حتى تعجز تماما عن الدفع وعن الاقتراض وعن الحياة.

وكان هذا هو الذي حدث بالضبط والعالم على أبواب العـام 1985 واتضح للدول (145) المديونة أن الجدولة هي شيء مثل "الكروتة"، لا تحل ولا تربط، ولا تشبع ولا تسمن ولا تغـني من جـوع. وكـان لا بـد من حل آخر واهتدت دولـة من كبـار المـديونين إلى الحـل الأمثـل والممكن الوحيد: أشهرت البرازيل إفلاسها وأعلنت العصيان فلا تسديد ولا جدولة ولا يحزنون... وكانت قنبلة أقوى ألف مرة من قنبلـة هيروشـيما وأفتـك ألـف مـرة من قنبلـة ناجـازاكي ووقعت الـدول الدائنـة في حيص بيص. هددت في البداية واستعرضت عضلاتها في البر والبحر وفي الجو أيضـا وعقـدت الـدول الغنيـة الكـبرى في كنـدا اجتماعـا خاصـا وهـددت فيهـا بالويل والثبور وعظائم الأمور، وصـرح واحـد من أقطـابهم نظـام النقـد العالمي في خطر وأن النظـام المصـرفي الحـالي على وشـك الانهيـار، وأن العالم كله ذاهب إلى كارثـة .. وردت الأرجنـتين ومـال لـه .. ومـاذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟

وكانت تصـريحات عبيطـة في الواقـع، كـانت أشـبه بصـرخة رجـل مقتدر أكول يلتهم خروفا في كل وجبـة .. ويحلي بتكعيبـة عنب ويحبس

بجـردل شـاي ثم يضـجع ليـدخن صـندوق سـيجار هافانـا من صـنف المونتكريستو، وقف يخاطب قطيعـا من المسـئولين والجيـاع ويهـددهم بأن اللحوم ستختفي والفواكه ستصبح شـحيحة في الأسـواق، وسـيجار "المونت كريستو" لن يسمح باستيراده من خارج الحدود.

وتمخض الجبل فولد فأرا، وأعلنت الدول الدائنـة عن فـترة سـماح للدول المديونة لكي تدبر أمورهـا، وتطـور شـئونها، وتتقشـف من أجـل دفع ديونها، وهي على كل حال تسـتطيع أن تسـتدين وكلـه على النوتـة والحساب يجمع!!

وعادت ريما لعادتها القديمة الفقراء يستدينون والأغنيـاء يـدفعون، وخيم صمت مريب على الجميـع، انتقلت المسـألة من عصـر الجدولـة، ومن عصر السماح إلى عصر السـكوت عن الكلام المبـاح، فلا حس ولا خبر، ولكن الطريقة البرازيلية وجـدت لهـا مريـدين ودراويش وأنصـارا، الأرجنتين صارت على الطريـق، والمكسـيك أصـبحت عضـوا في حلقـة الذكر، وانتظمت دول أمريكا اللاتينية كلها في باقة واحـدة، وغطرسـت وصهينت عن دفع الديون، ومنين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه!

آسيا هي الأخرى ضربت بومبة وهددت دولها بـإعلان إفلاسـها علنـا وعلى مشـهد من الجميـع. أمـا أفريقيـا الغلبانـة المسـورة فلم تسـتطع حتى أن ترفع صوتها بالاحتجاج، فالمجاعـة تخيم على القـارة السـمراء، والإيدز يأكل أحشاءها والديون تضغط على رقبتها وهي ديون لا تحتملها أفريقيا، ولا تستطيع سدادها ولا في ألف عام.

في المقابل بدأت ردود الفعل في الجانب الـدائن .. اسـتبد القلـق بالـدول الغنيـة، وسـيطر الخـوف على البنـوك العالميـة، وانبعثت أول إشارة من بنك "ميدلاند" (146) البريطـاني. أعلن أن ديونـه لـدى دول العالم الثالث بلغت ألفي مليون جنيه إسترليني وقال أن الأمـل ضـعيف في استرداد هذه الملايين بسـبب الأحـوال الاقتصـادية المترديـة وعجـز

الحكومات المدينة وقام بخطوة عملية فباع كل فروع البنك في إسكتلندا وأضاف أنه في سبيل اتخاذ خطوات أخرى مماثلة.

البنوك الأخرى اتخذت تدابير أخرى وإن كانت لم تعلن عن ذلك ولكن العليمون ببواطن الفلوس يؤكدون أن سوق المال يقف الآنب على أبواب أزمة لا يعلم مداها إلا الله .. ولقد بدأت المشاكل تهل على سوق المال خلال هذا العام، البورصة تنهار في يوم وليلة، السندات تفقد تسعة أعشار قيمتها في لحظة، الأسهم ذهبت مع الريح وتطايرت في الفضاء والدولار راح يهوي ثم يهوي، ما عدا في مصر المحروسة فقد راح يعلو ثم يعلو بدون منطق وبلا أسباب.

والموقف الآن في سوق المال العالمي مضحك للغاية. الناس اللي تحت – المديونون – ينامون براحتهم ويأكلون أرزا مع الملائكة ويحلمون أحلاما وردية. والناس اللي فوق الدائنون يمشون على الشوك وينامون على المسامير، ويلطمون الخدود ويشقون الجيوب، كما كانت تفعل ستي بهانة في أيام الجاهلية.

ويقول الخبراء – وأنا لست منهم – أن العالم الغني على أبواب كارثة حقيقية، وأنه ليس أمامه إلا طريقان، طريق السلامة وطريق الندامة، ومفتاح الحل في يده وعليه أن يختار فإما يركب رأسه ويطالب بديونه ويقاضي الدول المديونة أو يحارب من أجلها. والنتيجة في هذه الحالة هي انهيار سوق النقد العالمي وانهيار النظام الرأسمالي كله .. أو بمعنى آخر انهيار الدول الغنية وحدها، وخراب الدول الغنية ليس إلا .. لأن الدول الفقيرة تفتقر والدول الخربانة لن يطولها الخراب .. وإيش ياخد الريح من البلاط؟

الحل الثاني هو أن تتنازل الدول الكبرى عن ديونها وتستطيع أن تكذب وتدعي أنها تقدم الديون مجرد هدية متواضعة إلى الدول التعبانة والدول الغلبانة وتبدأ من جديد في فتح النوتة وتسجيل القروض ..

والحساب يجمع! ويقف العالم الآن في مفترق الطـرق فإمـا إلى سـكة الندامـة بالنسـبة إلى الـدول الغنيـة وإمـا إلى سـكة السـلامة بالنسـبة للجميع ولا أحد يعرف على وجه التحديد، في أي اتجاه ستمضـي الـدول الغنية.

ولكن يبدو للعبد لله أن هذه الدول لأنهـا غنيـة فهي أيضـا مفتريـة، ولذلك فكل الـدلائل تشـير إلى أنهـا سـتركب الطريـق الصـعب وتحفـر قبرها بيدها فدول السوق الأوروبية مثلا تخلصت من ملايين الأطنان من القمح والزبـد بإلقائهـا في البحـر حـتى تحافـظ على اسـتقرار الأسـعار تصـوروا مئـات الملايين من القمح والزبـد تـذهب إلى البحـر ومئـات الألوف من أبناء أفريقيا يذهبون ضحية المجاعة إلى القبر والأكادة أن (147) أجهزة الإعلام في أوروبا تقيم كلة ليلة سرادقا للعـزاء في مـأتم أفريقيا وتدعو الموطنين إلى التبرع لإنقاذ ضحايا أفريقيا.

هل رأيتم مثل هذا من قبـل؟ يتـبرعون بـالقروض لضـحايا أفريقيـا ويلقـون إلى البحـر بملايين الأطنـان من القمح والزبـد .. وملعـون أبـو أفريقيا وعلى رأي الشاعر .. ليتها لم تزن ولم تتصدق.

ومهما يكن الأمر وسـواء اختـارت الـدول الغنيـة سـكة السـلامة أو سكة الندامة فلا خوف على من استلف ولا جناح على من بـات مـديونا فما الذي سيخسره الـذين خسـروا كـل شـيء؟ سيخسـر فقـط الـذين احتكروا خيرات العالم والذين نهبوا كنوز الآخرين والذين امتصـوا عـرق جميـع الأجنـاس من أجـل أن يصـبح جنسـهم هـو سـيد العـالم، الآن آن للسيد أن يتنازل عن ديونه أو يتنازل عن وجوده .. وأن للمديون أن ينام ويتمطـع ويتثـاءت وأن ينهض وينطلـق خفيفـا لطيفـا آخـر رواقـة وآخـر انسجام.

وهذا المقال ليس بقلم العبد لله، ولكنه بأسلوب العبد لله فانا في علم الاقتصاد كخالتي نفيسة في علم الفضاء. والمعلومات الـتي وردت

هنا هي ترجمة أمينة لمناقشات دارت بين العبد لله وبعض العالمين ببواطن الفلوس في لندن. خلاصة القول أن المعلومات من عند الخبراء .. والأسلوب من عندي وكله على النوتة .. والحساب يجمع!

إنشالله مهندس!

(150) لا أعرف ما الذي جرى أخيرا للمصريين لم نعد نحتمل الحر، وبيوتنا صارت مأوى لأجهزة التكييف وأجهزة التبريد. والعبد لله شخصيا أصبح يصيبه الدوار في الحر، ووقتي كله أقضيه إلى جانب جهاز التكييف، وأحيانا أتمنى لو أنني كسرت الجهاز ودخلت فيه. ولا أعتقد أن الجو اختلف الآن عن زمان، ولكننا أيام زمان كنا نحتمل الحر، ونعاني الفقر، دون شكوى أو احتجاج.

في حقبة الأربعينات كنت لا أتصور وجود ملابس صيفية وأخرى للشتاء .. كانت البدلة واحدة لكل الفصول. وكان الحذاء الذي يصنعه الأسطى أمين الجب لا ينخلع من قدمي على مدار العام ... وكان المصيف المختار للعبد لله في قريتي على شاطئ النيل في الدلتا. وكانت ترعة سبك هي حمام السباحة المفضل للبلبطة والغوص في الأعماق. ولم أذهب إلى الإسكندرية في صباي المبكر إلا مرة واحدة وفي ظروف رهيبة، ووقفت عند الشاطئ أحدق في الأفق البعيد على أمل أن أشاهد أوروبا. وعدت من هناك بقصص كثيرة عن اليونان التي رأيتها من شاطئ الإسكندرية، والعجيب أنهم جميعا صدقوني، لأن أحدا منهم لم يكن قد رأي الإسكندرية بعد!

وفي تلك الأيام البعيدة كـان أسـتاذنا زكريـا الحجـاوي يملـك بدلـة واحدة، وكان نوع قماشها كفيل بجلب السخونة لطابور عسكري يقاتـل في صـحراء سـيبيريا! وكـانت هـذه البدلـة هي عـدة زكريـا الحجـاوي لمواجهة الحر في شـهور الصـيف. وكـان يحلم دائمـا بظـل شـجرة في الريـف وقلـة قنـاوي ليرتشـف منهـا المـاء البـارد على مهلـه وبصـوت مسموع، وبطريقة تسمح لقطـرات المـاء بالتسـلل إلى وجهـه ورقبتـه. وكان يبدو أسـعد من الملـك فـاروق وهـو يجلس في أمسـيات الصـيف على رصيف قهوة عبد الله وقد ارتدى الطقم كاملا – البدلـة والكرافتـة والطربوش – بينما نسمة هواء صايعة متسكعة تضـرب رصـيف القهـوة بين الحين والحين!

ولم أشاهد زكريـا الحجـاوي في غـير القـاهرة في أي صـيف خلال تلك الأيام. وكان صديقي وصديقنا الشيخ عبد الحميد قطامش المحامي الشرعي يرتدي جبة من الصوف الثقيل، وقفطانـا من التيـل المصـري، ويضع على رأسه عمامة من النـوع الملفـوف بعنايـة على طريقـة أبنـاء طائفة السيخ!

(150) وكان الشيخ قطامش زعيما لحركة المشائين، وكان يعتقـد أن وسائل المواصلات هي رجس من عمل الشـيطان، ووسـيلة لعفرتـة الحياة لا تليق بالبني آدمين! وكـان يحضـر إلى القهـوة سـاعة المغربيـة عرقه مرقـه كمـا يقولـون، ثم يطلب لنفسـه واحـد شـاي سـاخن جـدا، وكانت هذه هي طريقتـه في التكيـف مـع الحـر، والحصـول على درجـة عالية من التبريد! وكان صديقي المرحـوم أحمـد العبـادي المنجـد "أبـو حسن" يرتـدي في شـهر أغسـطس الجلبـاب البلـدي الصـوف وبـالطو كشـمير من أيـام العـز القـديم، وسـروال صـوف يصـل حـتى الكعـبين، وفانلة صوف بأكمام طويلة، ويضع على رأسه "طربوش" ماركـة نسـر، ولكنه كان حريصا على وضـع منـديل محلاوي تحت الطربـوش! وكـانت

كلمته الأبدية "اللي يمنع البرد يمنع الحر يا أستاذ"! ويبدو أنها حقيقة علمية، وهذه الملابس الثقيلة توفر للجسم درجة حرارة لطيفة تجعله يحس بأنه على شاطئ كان! وكان صديقي الحاج إبراهيم نافع فلاح الجيزة يذهب نيابة عن عائلته لتشييع جنازات المعارف والأصدقاء، ويسير على قدميه خلف الجنازة حتى مقابر الإمام الشافعي، بينما هو يرتدي في شهر يوليو جلبابه الصوف، وعليه عباءة صوف، وبالرغم من ذلك لم يكن يشعر بأي ضيق، ولم يكن يدرك أنه في نفس اللحظة يوجد ناس آخرون ينامون عرايا زلط ملط على شواطئ البحار! وزمان أيضا كنتن أسعى مع الرسام الفنان طوغان لنشر إنتاجنا على صفحات الصحف، وكنا نخرج من الجيزة في الصباح فلا نعود إليها إلا بعد منتصف الليل، وأحيانا كثيرة كنا نعود مشيا على الأقدام، أحيانا قليلة لعدم وجود مواصلات، وأحيانا كثيرة لعدم وجود فلوس .. وكنا في أوقات كثيرة نقطع الوقت من العتبة الخضراء للجيزة في استعراض مشاكلنا، ولم يكن من بينها أبدا الضيق من حرارة الجو، أو الشكوى من قسوة المناخ!

ما الذي حدث للمصريين إذن؟ وما الذي جرى لهم هذه الأيام؟ والله يرحم زمان وأيام زمان، عندما كان الصعيدي البطل يتولى وضع أساس العمارات الضخمة قبل اختراع الآلات الحديثة. وكان يلف جسده بشوال، ويلف قدميه بعدة خرق، ويمسك في يده "بأزمة" يدق بها الأرض، ويستغرق العمل في هذه العملية عدة أسابيع، وربما عدة شهور! وكان الصعيدي البطل هو الذي يرفع عشرات الأطنان من الزلط والطوب والأسمنت ويصعد بها على السقالة إلى الدور العاشر، في حركة دائبة مستمرة من الصباح الباكر وحتى مغيب الشمس. أين هذه النماذج الآن؟ وأين ضاعت الهمة والمروة والقدرة على الاحتمال؟ ...

محمود السعدني

والله يرحم زمان وأيام زمان، كنت أكتب أحيانا خمس مقالات في أسبوع واحد، وأكتب سلسلة كاملة لإذاعة صوت العرب في خمسة أيام! ومع ذلك لم أتخلف ليلة واحدة عن السهر مع شلة الأصدقاء في كازينو الكوبري، ولم أتخلف مرة واحدة عن الحضور إلى الجريدة في الميعادَ! وعندما توليت رئاسة تحرير مجلة أسبوعية في الخليج طلبت من محرر شاب أن يكتب لي موضوعا معينا على (153) وجه السرعة، فوعدني بأن يبذل كل جهده وحدد موعدا لكتابة الموضوع بعد أسبوع! ..

هل يا ترى، ما هو السبب فيما جرى للمصريين في هذا الزمان؟ هل هو ارتفاع مستوى المعيشة؟ لا شك أن مستوى المعيشة ارتفع بشكل ملحوظ هذه الأيام. وبعض المصريين الذين كان ركوب الترام بالنسبة لهم ترفا شديدا، أصبحوا يملكون سيارات خاصة الآن! وبعض الناس الذين كانوا يعرفون شكل اللحم من النظر إليها في معرض الجزار، صاروا يأكلون اللحم الآن بانتظام. ومصريون كثيرون كان السفر إلى بنها بالنسبة لهم مغامرة تستحق الدراسة، سافروا إلى بلاد شتى في العالم العربي وفي أوروبا، وبعضهم سافر إلى أمريكا نفسها، ورأيت بعضهم في العالم الماضي في مؤتمر "المستثمرين"! ولكن من قال أن ارتفاع مستوى المعيشة يفقد الإنسان الهمة والمروة والقدرة على الاحتمال؟ الألماني ارتفع مستواه بعد الحرب مباشرة من الحضيض إلى الفضاء ومع ذلك يشتغل كالنملة، وينتج كالنحلة، وبضاعته حاضرة وضاربة السوق في كل مكان! والياباني ارتفع مستواه من تحت الحضيض إلى كوكب الزهرة، ومع ذلك يعرق الياباني بشدة، ويكدح بذمة، وبضاعته هي الأولى وتزاحم في داخل أمريكا نفسها بضاعة الأمريكان! ونفس الشيء ينطبق على الصيني وعلى الكوري وعلى شعب تايلاند الذي كان أغلب من الغلب، وأفقر من الفقر، واشقى من الشقاء. والعبد لله زار تايلاند في عام 1967، وكانت

الشـوارع بطيئـة والسـياح كثـيرون، ولكن المتسـولين كـانوا أكـثر من السـياح .. وزرتهـا في العـام الماضـي، فـإذا بهـا دولـة أخـرى مختلفـة، السياح تضاعفوا والمتسولون اختفوا، الشـوارع صـارت كشـوارع لنـدن والعمارات كعمـارات بـاريس، والفنـادق كفنـادق أسـبانيا، والإنتـاج على ودنه وفي كـل مجـال، لدرجـة أن تايلانـد صـارت تصـدر الأرز والسـمك لليابان وللصين، وأصبحت الدولة رقم 7 في تصدير الغذاء على مستوى العالم كله! ..

أنا أرجو مخلصا إنشاء مجلس قومي بعيدا عن المجـالس القوميـة المتخصصة، لدراسة هذه الظاهرة الغريبـة. وليكن هـدف المجلس إيـاه معرفـة الأسـباب الـتي أدت بالمصـريين إلى هـذه الحالـة الغريبـة نريـد بضائع حاضرة وجاهزة ولكننا نـرفض الاشـتراك في أي إنتـاج نستسـهل الاســتيراد ونحجم عن أي إنتــاج بأيــدينا .. نريــد ســيارات ركــوب وتليفزيونات ملونـة وثلاجـات عشـرة أبـواب، وبعضـنا يعمـل في اليـوم سـاعة واحـدة، وبعضـنا لا يعمـل على الإطلاق! نريـد عقـد عمـل في الخارج، بشرك أن يكون المرتب مجزيا، والسكن مريحا، والسـيارة مـع البـنزين، ثم لا يهم بعـد ذلـك أن نجيـد هـذا العمـل أو لا نجيـده! واحـد بلدياتي زارني منذ أسـبوعين، ومعـه شـحط – اللهم صـلي على سـيدنا النـبي – وتوسـل إلى العبـد للـه أن يجـد لهـذا الشـحط ابنـه عملا في الكويت (عند أحمد الجار الله أو عنـد غـيره هـوه انت يعـني هتغلب)؟ (154) وعندما سألت بلدياتي عن نوع العمل الذي يمكن للمحــروس أن يؤديـه، أجـابني بثقـة شـديدة (أي حاجـة إنشـالله مهنـدس أو دكتـور) واكتشـفت من خلال المناقشـة أنـه يفـك الخـط بصـعوبة، وأنـه يقـرأ الجريـدة اليوميـة بالقـدرة، وأنـه لم يمـارس أي عمـل في حياتـه على الإطلاق. وعندما سألت الوالد: ولا الزراعة؟ قال: هي العيال بتوع الأيام دي لهم تقل ع الزراعة؟ ما شاء الله. إنشالله مهندس أو دكتور. ومالــه ياخويا على رأي الدكتور شديد بتاع زمان. وليس هناك أي سبب للبحث

عن عمل للمحروس إياه إلا أنه يريد الزواج، ويطمع في الحصـول على شقة، وشراء سيارة، وماله؟ ماه كل اللي راحوا الكويت انعـدل حـالهم وبقوا تمام!!

وأخشى مـا أخشـاه أن يـبرز لي واحـد من إيـاهم، فيخطب خطبـة عصماء في وجه العبد لله، وقد يرجـع أسـباب خيبتنـا إلى ابتعـاد النـاس عن طريق الدين، وقد يعيد على مسامعي الحديث إياه بتاع "وأن يـزني الرجل بأمه في حجر الكعبة أهون عند الله من فوائـد البنـوك". وأنصـح الأخ إياه بأن يوفر على نفسه عناء مثل هذه الخطبة، لأنني موافق علي أن البعد عن طريق الدين سيء للغاية، ولكنه ليس السبب في وكسـتنا العريضة وخيبتنا التي ليس لها مثيل. وأيضا لأن اليابان والصـين وكوريـا وتايلاند ليس لها أي دين، فالصـين شـيوعية كمـا نعلم، والـدول الأخـرى تدين بالبوذيـة، والبوذيـة ليسـت من الأديـان وبـوذا نفسـه لم يكن نبيـا، ولكنه كان رجلا طيبا وابن حلال وعلى باب الكريم. هناك سبب آخر في رأي العبد لله وقـد لا يكـون السـبب هـو السـبب الوحيـد. هـذا السـبب أفرزته مرحلة الانفتاح التهليبي، حيث صار من المألوف ظهور عشـرات من "رجال الأعمال وسيدات الأعمال" كانوا في الأصل مجرد أرقام في دنيا الناس، وارتفعوا بطرق ليس ما بينها العمـل أو الإنتـاج أو العبقريـة في أي فـرع من فـروع الحيـاة .. والأمثلـة كثـيرة من أول عصـمت السادات إلى توفيق عبج الحي إلى رشاد عثمـان إلى السـت الفولاذيـة إلى الحاج محمد لطفي إلى نصاب الإسكندرية. وأعرف أشخاصا كـانت كل مهنتهم بيع الكوارع ولحمة الرأس، فإذا بهم فجأة يملكـون الملايين، وبعضهم ينفق عشرات الألـوف كـل ليلـة في شـم الكوكـايين. وأعـرف واحدا من إياهم يتاجر في الملابس المهربة، ويستأجر شاليه في فنـدق كبير على حمام السباحة ويـدعو كـل ليلـة عشـرات من أبنـاء المجتمـع المنحل، وينفق في الليلة مبـالغ تـتراوح بين عشـرين ألفـا وثلاثين ألـف جنيـه. وأعـرف وأعـرف حكايـات مثـل حكـاوي ألـف ليلـة وليلـة، عن

مليونيرات ومليارديرات لم ينتج أحد منهم سلعة، ولم ينشئ أحد منهم مصنعا، ولم يشيد أحد منهم جسرا، ومع ذلك يعيشون عيشة الملوك وملك الملوك إذا وهب، لا تسألن عن السبب، فالله يعطي ما يشاء، فقف على حد الأدب!! وهي كلمة يؤمن بها مليونيرات هذا الزمن الغريب العجيب. وإذا كانت هذه هي النماذج وهؤلاء هم القدوة فكيف ندعو الناس إلى العمل؟ ولماذا العمل؟ والثراء وقف على مثل هؤلاء (155) الناس!

وإذا كان هذا هو السبب في رأي العبد لله، فأنا لا أدعي أنه هو السبب الوحيد، هناك أسباب كثيرة، سياسية واقتصادية واجتماعية أيضا، على المجلس القومي الذي اقترحه أن يبحث عن أصول المشكلة وعن جذورها أيضا. فالناس لم يعد لديها جهد على العمل، وأغلبنا لم يعد يحتمل حر الصيف، ونحن لا نصنع إلا القليل ونريد الحصول على كل شيء. نريد العيش في مستوى الياباني وإنتاجنا في مستوى بوركينا فاسو. نطمع في بحبوحة الألماني وأيدينا في العمل أقصر من أيادي مواطني تشاد. نحلم بحياة فرنسية وسوق العمل عندنا وخمان كسوق العمل في بنها. معادلة صعبة للغاية ولا بد أن نجد لها حلا. وإلا .. فإننا إذا أهملناها أو تركناها، فالحل سيأتي وحده. ولكنه سيكون حلا عسيرا على رأي بيرم التونسي. في الربط نربط بسهولة والحل عسيرا!! عسير .. عسير .. عسير .. يا ولدي!

(158) كـل عصـر ولـه موضـة، وموضـة هـذا العصـر هي كتابـة المـذكرات، وحكمـة اللـه أن كـل المـذكرات عاصـرت 23 يوليـو! ومن الصـدف العجيبـة، أن كـل الـذين كتبـوا المـذكرات، هم الـذين أشـعلوا شرارتها وصلبوا عودها، وسندوها حتى وقفت على الأقدام! كلهم كـانوا ذلك الرجل، ومهما كانت مواقعهم، سواء في مجلس قيـادة الثـورة، أو كانوا من سـكان الـبيت الـذي يقـع مباشـرة في مواجهـة مجلس قيـادة الثورة، أو كانوا من رواد القهوة التي على يسار مجلس قيـادة الثـورة! وكل منهم حريص على شرح كفاحه وجهـاده، ودائمـا في سـبيل مصـر، وفي خدمة شعبها! وبعضهم تأخذه الجلالة فيحكي كيف وقـف في وجـه محمـد نجيب؟ وكيـف صـفع عبـد الناصـر على وجهـه؟ وكيـف وضـع المسدس في ظهـر أنـور السـادات؟ وكيـف خطـف الملـك فـاروق من قصره؟ وكيف كان هو الوحيـد الـذي يختلي بـه عبـد الناصـر ويـثرثر لـه بأخطر الأسرار!

فلا أحد غيره يعرف أن طائرة الرئيس كينيـدي هبطت ذات مسـاء في مطـار الجـيزة، وكيـف اجتمـع كينيـدي مـع عبـد الناصـر على قهـوة المعلم كتكوت خلف مستشفى أم المصريين، وحتى لا يلفت اجتماعهما نظر المراسلين الأجانب! ولم يكن عبد الناصر وكينيدي وحـدهما، ولكن كان معهما السيدة كعبورة كاتب المذكرات!

ويتبجح السـيد كعبـورة أكـثر، فيحكي كيـف بـدا الغم على وجـه كينيدي عندما انهزم في الطاولة، وحدق في عبد الناصـر طـويلا، وقـال بلهجة لا تخفي على اللبيب: أنت كسبت في الطاولة يا سيادة الـرئيس، ولكن أنا سأكسب الحـرب! ولم يبلـع عبـد الناصـر الإهانـة، ولكنـه قفـز كالنمر، وضرب المائـدة بقبضـة يـده، فـدلق الشـاي على بدلـة كينيـدي الصوت المقلمة .. وقال لكينيدي في ثبات: إذن هيا إلى الحـرب. وعلى الفور نشبت حـرب اليمن الـتي قادهـا السـيد كعبـورة، بينمـا كـان عبـد

الحكيم عامر يتلقى أخبارها وهو قابع في منزله بالجيزة، في الوقت الذي كان فيه عبد الناصر يختبئ خلف مكتبه في منشية البكري. وعندما وقع الجنرال دولار في قبضة السيد كعبورة بعد معركة حامية على جبال اليمن، قام بتكتيفه ونقله على (159) طائرته الخاصة، ونزل به في مطار حلوان ولم يكن في انتظاره بالمطار إلا جمال عبد الناصر، وكم فوجئ السيد كعبورة بأن عبد الناصر يرتعش من عواقب هذا العمل، وكيف توسل للسيد كعبورة أن يطلق سراح الجنرال دولار، وكفي الله المتحاربين شر البنك الدولي، ولكن السيد كعبورة لم يصغ لعبد الناصر، ولم يلن أمام كل الشفاعات والتوسلات، وأطلق النار على الجنرال دولار، وقطع رأسه، وأرسلها في خطاب إلى كينيدي المغرور في بيته الأبيض! حكايات كثيرة من هذا النوع، رواها السادة أصحاب المذكرات، وفي أسلوبه أشبه بأسلوب الحكايات الرخيصة التي ابتدعها بعض الناشرين السكة خلال فترة الحرب العالمية الأخيرة، عن المرأة التي أكلت دراع جوزها، واللحمة التي تكلمت في الحلة! وكانت تجد رواجا شديدا في ذلك الزمان. ولقد أعجبني مقالا كتبه الأستاذ حمد السعيدان ونشره في جريدة السياسة الكويتية، وأراد أن يسخر به من جميع الأبطال الذين كتبوا المذكرات عن دورهم في ثورة 23 يوليو فكتب هو الآخر عن دوره في الثورة المصرية، مع أنه وقت قيام الثورة كان يقيم في الكويت، وكان في العاشرة من عمره، ولكن ماذا يهم؟ ما دام باب الاجتهاد مفتوحا، وباب النشر مضمونا أيضا.

كتب حمد السعيدان (في يوم الثورة أمرت عبد الناصر المذعور بالبقاء في المكتب، وأمرت محمد نجيب المنهار بالذهاب إلى القشلاق، وأرسلت أنور السادات الخنوع لشراء خضار ولحمة من المذبح، أما الطماطم فقد كلفت بها عبد اللطيف البغدادي. وبعد أن تغديت ونمت في البيت، ركبت الدبابة واقتحمت بها مبنى القيادة، وألقيت القبض على الملك فاروق وضيفه الملك زوغو، ثم أرسلت جميع الحاشية إلى

مستشفى قصر العيني، ثم قمت بتأمين القاهرة، ثم أعلنت الجمهورية، ثم أقمت الوحـدة، ثم أممت قنـاة السـويس، وقمت باختطـاف مسـتر إيدن من منزله في "قلب لندن"، وما كتبه الأستاذ حمـد السـعيدان من باب التريقة لا يفترق كثيرا عما يكتبه بعض الأبطال من شهود ثـورة 23 يوليو و24 مارس و25 يونيو و27 أغسطس. فالعالم العربي الحمد للـه عامر بالثورات والمذكرات أحد هؤلاء الأبطال كتب في مذكراته أنه قام بتقييد جمال عبد الناصر وصفعه بالقلم، ولم يطلـق سـراحه إلا بعـد أن استعطفه عبد الناصر وكتب له استرحاما ليعفـوا عن سـوأته ويغفـر لـه خطاياه! وهـو قـول لا يصـدر إلا من كـاتب مـذكرات طيب، ويعتقـد في الـوقت نفسـه أن القـراء من صـنف الحمـير الحصـاوي .. آخـر لياقـة واحتمال! لأن عبد الناصر كما أجمع أعداءه قبل أصدقاؤه كان حاكما له هيبة وصاحب حضور، وكان مجرد ظهروه في أي مجـال وفي أي مكـان كفيل بإسكات كل الألسنة، وربما ارتعاش كل الجلود، وربما انحنـاء كـل الظهـور! والأدهى أيهـا السـادة القـراء أن في الطريـق إلينـا مـذكرات السيد حسـن التهـامي، وهـو قطب من أقطـاب ثـورة 23 يوليـو بـدون شك، فقد كان عضوا في الخلية الأولى التي أسسها جمال عبـد الناصـر في تنظيم الضباط الأحرار، وكان أمينا لرئاسة الجمهورية في آخر أيــام عبد الناصر (160) التي عاشها معنا في الحياة. وهي مذكرات ينتظرهـا الجميع على نار، لأن السيد حسن التهامي سبق أن أفصح عن رأيـه في جمال عبد الناصر وكيف أنه كـان جاسوسـاً لإسـرائيل وعميلا من عملاء المخابرات الأمريكية.

وقد تـرددت كثـيرا في التعـرض من بعيـد أو قـريب للسـيد حسـن التهامي، خصوصا بعد تهديده الذي تضمنه رده على الأسـتاذ أحمـد بهـاء الدين وهدد فيه جميـع الكتـاب وجميـع الصـحفيين الـذين يتعرضـون لـه بالمطارق والمناجل والكرابيج السوداني المنقوعـة في الخـل والـزيت! ولكني عدلت عن ترددي، عندما أكد في رده .. على أن مطارقـه أدبيـة

ومناجله كلامية وكرابيجة لغوية ومن فصيلة سيبويه. ولأن العبد لله يتمتع بجلد سميك، ومن النوع الذي يتحمل ألف جلدة كلايمة، وألف مطرقة لغوية، ولكنه لا يتحمل أي لسعة من خرزانة لهلوبة، أو أي طرقعة من كرباج سوداني أصيل! وعجبي العسكري المجند الذي كان يحرس باب القيادة ليلة قيام الثورة، والذي رأى كل شيء ووقف على كل شيء، لماذا لم يكتب مذكراته حتى هذه اللحظة؟ وأين مذكرات عامل التليفون الذي كان ساهرا في مجلس قيادة الثورة في تلك الليلة؟ والذي قام بالدور الأكبر في الاتصال بالقادة واستدعاء رجال القيادة، لماذا لم يكتب مذكراته هو الآخر حتى الآن؟ وهو أمر ليس غريبا على كل حال، فقد سبق أن كتبت بديعة مصابني مذكراتها عن الحرب العالمية الأخيرة، شأنها شأن روميل ومونتجمري وفون ورنشتيد وجنرال ديجول! ولكن بديعة مصابني كانت أمينة في مذكراتها، فلم تكتب إلا تجربتها الخاصة مع عساكر الحلفاء في غرف النوم وفي البارات! أما عسكري المرور ومنادي السيارات وباعة البطاطا والطعمية الذين كانوا ينتشرون حول القيادة العامة ليلة قيام الثورة، فسيكتبون مذكراتهم عن ثورة 23 يوليو، وعند دورهم التاريخي في إشعالها! وعن الحوار الذي دار بينهم وبين الملك فاروق قبل أن يوقع باسمه على وثيقة تنازله عن العرش!

ولقد كان للعبد لله تجربة شخصية. فقد اشتركت ذات يوم في مشروع كبير، واشترك معي أساتذة لهم شأن، ورجال أفاضل لهم تأثير، ولكن الذي كتب مذكراته عن "دوره" في هذا العمل، كان – لسوء الحظ – يتولى أخطر الأعمال في المشروع إياه فقد كان يتولى إعدادا القهوة والشاي بالنهار، وكنس الغرف وترتيب المكاتب وتنظيف دورات المياه بالليل! ولو أنه كتب معاناته وشقائه وعرقه أثناء قيامه بهذا العمل الشريف، لأنجز عملا كبيرا، ولكنه – ويا للغرابة – كتب عن دوره في قيادة المشروع، وتحدث عن نفسه كزعيم صاحب رسالة،

وكسياسـيي صـاحب رأي، وكفيلسـوف صـاحب فكـر! ونشـر المناضـل الفراش عشرات الصحفات، ولم يتوقف قط، وهي حالة مشروعة على أيـة حـال، وهي تنتـاب بعض الـذين قـاموا بـأدوار هامشـية في أعمـال كبيرة، ويتصورون أنهم يصبحون كبارا إذا قلدوا الكبار! ويصبح لهم وزن إذا ما تعرضوا لأصحاب الأوزان! ولا يـدري هـؤلاء بـأنهم بأعمـالهم هـذه يؤدون خدمة جليلة للكبار. لأن التقليد – كما يقول أوسـكار وايلـد – هـو تحية (160) العوام للعبقرية، الشيء الوحيد الذي شعرت به بعد قراءة مذكرات الأبطال إياهم، والزعماء إياهم، هؤلاء الذين كتبوا عن ثورة 23 يوليو وما قبلها وما بعدها وما بينها هو أنني وددت لو أقذف من الشـباك كل كتب الجـبرتي وتـاريخ ابن إيـاس وخطـط المقريـزي وأعيـان مصـر ووفيات الأعيان لعمنا ابن خل كان. فما الذي يمنع أن يكـون كـل هـؤلاء قـد كتبـوا مـذكراتهم على نفس الوتـيرة وبنفس القيـاس؟ ومـا الـذي يضمن للعبد لله أن الحاكم بأمر الله كان مجنونا أو معتوها؟ وما أدراني أن الملك المظفر بيبرس كان خائنا قتل صديقه السلطان قطز، ورشق سيفه في ظهره أثناء رحلة صيد في الصحراء؟ وما الذي يثبت أن خـابر بـك خـان معلمـه وأسـتاذه قنصـوة الغـوري في معركتـه الحاسـمة مـع سلطان بني عثمان؟ ومن يضمن أن أحمد باشـا الجـزار والي عكـا هـو الـذي انتصـر على نـابليون؟ ومن يسـتطيع أن يحكم أن محمـد بـك أبـو الدهب هو الذي دس السم في جراح أستاذه علي بك الكبير؟ ولمـاذا لا يكـون أحـد الخـدم أو الحـراس؟ ومن الـذي يقـدر على التأكيـد بـأن القرامطة هم الذين اعتدوا والذين خربوا في البلاد؟ ولماذا لا يكونوا هم الذين تعرضوا للهجوم والعدوان؟ من الذي يستطيع أن يحسـم أو يحـدد حقيقة الأمور في حوادث جرت والعدوان؟ من الذي يستطيع أن يحسم أو يحدد حقيقة الأمور في حوادث جرت وقائعها منذ نحو ألف عـام؟ إذا كنا لا نستطيع أن نعرف ما الـذي جـرى على وجـه التحديـد في أحـداث وقعت في زماننا؟ وشاهدنا بأعيننا، واشتركنا في بعض فصولها بالفرجة

والمشاهدة والاتصال! ما الذي حدث في ثورة 23 بالضبط من قائد الثورة على وجه التحديد؟ وهل هو جمال عبد الناصر؟ أم محمد نجيب؟ أم أنور السادات؟ أم السيد حسن التهامي؟ أم حسن إبراهيم؟ ومن يدري من كثرة الخلط والمزع الذي حفلت به مذكرات هؤلاء الأبطال. ربما كان كل هؤلاء مجرد أقنعه، وربما كان القائد الحقيقي هو حضرة الصول أبو سريع، الذي عهدوا إليه في ليلة ثورة 23 يوليو بتشحيم جنازيز الدبابات ونفخ عجلات السيارات. ربما كان هذا هو البطل الحقيقي لثورة 23 يوليو، وربما حياء منه وتواضعا أيضا آثر الصمت والانزواء، وربما رأى أن المذكرات قد هانت، وأن أصحابها قد تبحبحوا كثيرا، وأنهم ذهبوا إلى أبعد مدى، فلم يعد هناك مزيد! ربما، وربما، فأي شيء جائز، وكل شيء أيضا، لكن الأكيد والمفيد أن الأجيال التي ستأتي من بعدنا، ستدوخ دوخة الأرملة الغلبانة، إذا أرادوا دراسة ثورة 23 يوليو وتحديد هويتها على وجه اليقين! وقد تنشأ مدراس متناقضة، وفرق متعارضة، وتنظيمات متحاربة، وقد يرفع بعضها مذكرات عبد الناصر ويستشهد بها على أنها التاريخ الوحيد والأكيد، وقد يرفع بعضها مذكرات حضرة الصول عبد الرشيد على أنها الوثيقة الوحيدة والفريدة وما عداها باطل وقبض الريح، وقد تقوم الحرب الأهلية بين الفرق المتحاربة حول من الذي أشعل الشرارة الأولى في الثورة؟ وهل هو عبد الرشيد؟ أم عبد المجيد؟ أم عبد الحميد؟ وقد يقيم المتحاربون حواجز على امتداد الشوارع العربية، وقد يصير القتل على الهوية، قد نسمع قريبا عن منظمة سالم وعامر (162) وبغدادي والشافعي وعلي صبري والسادات وصبري الخولي وحمروش ومحمد نجيب والصول هريدي عبد العال أبو حديد! وقد ترفع كل فئة من هذه الفئات صورة زعيمها، فلا زعيم غيره، ولا قائد سواه. أما المأزق الوحيد، هو أن منظمة الصول هريدي عبد العال أبو حديد لن تجد صورته، لأن حضرة الصول لم يكن من هواة التصوير! وقد تلجأ المنظمة عندئذ إلى وسام

فترسم أي شكل وفي أي صورة، وقد تكون هـذه الصـورة من عوامـل نصرها على الجميع، باعتبار أن الصول هريدي هو القائد الغـائب والثـائر المختفي! وأنه رفع إلى دور 4 في ليمان طـره، ولكنـه حتمـا وفي آخـر الزمان سيعود!

حكاية علي سحلول!

(164) العبد لله له في ذمة وزيـر خارجيـة السـودان الجديـد علي سـحلول مبلغـا وقـدره عشـرون جنيهـا سـودانيا فقـط لا غـير. وأصـل الحكاية أنني تعرفت على الوزير سحلول وهو ملحق بالخارجية، والحـق أقول أنه كان شديد اللماحية عميق الذكاء واسع المعرفة بأحوال العالم وخصوصا المنطقة العربية. وتوطدت أواصر الصـداقة بيننـا خلال الأيـام الأولى لانتفاضة الشعب السوداني الكريم ضد الفريق عبود.

كنا تلك الأيام في شـبابنا الـذي ولى .. لا أقـول قبـل الأوان ولكنـه ولى والسلام، وتنبـأت للسـيد علي سـحلول بأنـه – يومـا مـا – سيصـبح وزيرا للخارجية. وبدت الدهشة على وجه الشـاب علي سـحلول، وقـال وهـو يضـحك ضـحكة صـافية من الأعمـاق. طيب مـا تقـولش الكلام ده قدام الوزير محجوب خلينا عايشين في حالنا.

وكـان الشـاعر الكبـير والدبلوماسـي الشـهير والسياسـي الخبـير السيد محمد أحمد محجوب هو وزير خارجيـة السـودان في تلـك الأيـام وقلت للسـيد علي سـحلول: طيب تراهـني ولم ينطـق الأخ سـحلول فاستطردت قائلا: عشرين جنيه لعشرين جنيه. ومضت سـنوات طويلـة

بعد ذلك التقيت فيها بـالأخ علي سـحلول مـرات قليلـة، وفي كـل مـرة كنت أكتشف أنه قطع خطوات واسعة على الطريق إلى المركـز الـذي راهنته عليه. ثم علمت من صديق مشترك هو الدكتور عبد الحميـد عبـد الـرحمن أن علي سـحلول صـار رئيسـا لوفـد بلاده إلى الأمم المتحـدة. وقلت في نفسي لم يبق إلا زقة واحدة وأحصل على قيمة الرهان الذي راهنت عليـه. ولكن .. ليس كـل مـا تـأتي بـه الريـاح من الصـنف الـذي تشتهيه السـفن على رأي المثـل فقـد وقـع حـادث غـريب ومـريب راح ضحيته علي سحلول. موقـف لا يحـدث مثلـه غالبـا إلا في أفلام سـمير عبد العليم ومسلسلات عبد العليم سمير.

وأصل الحكاية أن قضية أفغانستان كانت مطروحة للتصـويت على الجمعية العمومية. واحتشدت الـدول الإسـلامية والعربيـة للوقـوف مـع حق الشعب الأفغاني ضد الحكومة التي استأثرت بالسـلطة في كـابول تحت حماية الجيش السوفيتي. ولكن مندوب حكومة السـودان العربيـة لم (165) يحضر الجلسة، ونشرت بعض وكـالات الأنبـاء أنـه لم يحضـر متعمدا، ولم يكن هذا صـحيحا على الإطلاق. أمـا السـبب الحقيقي وراء غياب مندوب السـودان، فهـو الفسـاد الإداري في عهـد النمـيري، وهـو العهد الذي شغل نفسه بعناوين ليست لهـا أيـة مضـامين على الإطلاق، وتنقل كالطائر الضال من الاشتراكية إلى الرأسمالية إلى الشـريعة في نهاية المطاف، كانت الحقيقة المرة الـتي منعت منـدوب السـودان من حضور الجلسة هـو عـدم تسـديد اشـتراك الأمم المتحـدة ولأن حكومـة السودان لم تسدد الاشتراك فقد سقط حقها في التصويت!

ولم يكن علي سحلول مسئولا عن شـيء ممـا حـدث فقـد أرسـل إلى الوزارة خطابات وتلكسات وبرقيات بطـول المسـافة بين نيويـورك والخرطـوم، ثم لفت نظرهـا أكـثر من مـرة، وحـذرها من أن الموعـد المحدد سينتهي بعد أيـام. ولكن الـوزارة لم تـرد ولم تسـدد. وربمـا لم

يهتم أحد بقراءة الخطابات والتلكسات والبرقيات الواردة من رئيس البعثة السودانية في الأمم المتحدة. ولأن النميري كان رئيس حكومة من النوع الذي لا يخطئ على الإطلاق، وإذا أخطأت فلا بد أن المسئول أحدا من خارج الحكومة. لذلك أصدر النميري قرارا بسحب رئيس البعثة من نيويورك، وطلب من علي سحلول ضرورة العودة بسرعة إلى الخرطوم، ولكن علي سحلول رفض العودة، وركب أول طائرة واتجه رأسا إلى الكويت.

فخاف النميري الفضيحة إذا فتح علي سحلول فمه وكشف عن الأسباب التي أدت إلى عدم اشتراك السودان في التصويت خصوصا وأن المبلغ الذي كان مطلوبا "دفعه" يساوي ثمن الشاي والقهوة والسجاير التي تقدم لضيوف مكتب الوزير خلال ثلاثة أيام ومعنى ذلك أن عدم تسديد الاشتراك لم يكن نتيجة عجز، ولكن نتيجة سوء الإدارة وانهيار الإدارة الحكومية في عهد النميري وكما لم يحدث في تاريخ السودان من قبل. وكان الخوف من الفضيحة هو الذي دفع النميري إلى تعيين علي سحلول سفيرا للسودان في الكويت. ليس هذا هو السبب فقط بالطبع، ولكنها كانت حيلة ذكية أيضا لإدخال الطمأنينة في نفس علي، ولكي يضع في بطنه بطيخة صيفي تمكنهم من استدراجه إلى الخرطوم. ويبدو أن علي سحلول حصل له اطمئنان، فقد حدث أن التقيت به في الخرطوم وسهرت في شقته مع عدد من الأصدقاء، وقضينا الليلة كلها نستمع إلى تفاصيل القصة التي أدت إلى ما جرى من تطورات، ثم سمعت بعد ذلك بأسابيع أنهم استدعوا السفير إلى الخرطوم لأمر هام، ثم سمعت أنهم اعتقلوه فور نزوله أرض المطار. ولا أعرف على وجه التحديد ما الذي جرى لعلي سحلول بعد ذلك. فقد انقطعت أخباره فلم أسمع عنه شيئا أخيرا سمعت خبرا وشرح صدري وطمأنني على مسيرة الثورة الجديدة في السودان. لقد اختاروا علي سحلول وزيرا للخارجية في النظام الجديد، وتحقق ما تنبأ به العبد لله

منذ خمسة وعشرين عاما على وجه التحديد وأمـام شـاهدين أحـدهما (166) هو الشيخ مهدي رحمة الله عليه والآخر هو الدكتور عبـد الحميـد عبد الرحمن وهو بالتأكيد حي، وإن كنت لا أستطيع أن أقطع إذا ما كان حيا يرزق، أم حيا فقط بسـبب الأزمـة الاقتصـادية الـتي خلقهـا النظـام الاقتصـادي الهمـايوني في عهـد الصـادق شـهوي، والـذي كـان أعظم منجزاته هي الرفض وأهم صادراته هي بيانات الشجب والاستنكار.

على العمـوم، مـبروك للثـورة السـودانية وزيـر خارجيتهـا علي سحلول. فهو في محله، وهي تطبيق عملي بشـريعة الرجـل المناسـب في المكـان المناسـب، وليس الرجـل اللي مناسـب، وهي النظريـة السـائدة في أغلب بلاد العـالم العـربي. بقي أن يسـدد الـوزير علي سحلول ما في ذمته للعبد لله. وهو مبلغ عشرون جنيها سودانيا فقط لا غير، طبعا الفوائد والحلوان!

وبالمناسبة، عنوان حضرتنا هو: محمود السـعدني، الكـرة الأرضـية وشكرا لساعي البريد.

ملحوظة:

استخدمت حكومة الإمام الترابي الذي هو آية من آيات اللـه حجـة الله أستغفر الله، أخونا الطيب علي سحلول عـدة أشـهر، ثم ألقت بـه من حالق وكشفت عن وجهها القبيح!

أدعو له بالنصر!

(168) لو أن العبد لله كسب البريمو في يانصيب روما، لـو ضـربة حظ صادفتني وظهـر لي عم ثـري أمثـل مـات فجـأة في البرازيـل عن ثروة تقدر بمائة مليون دولار أمريكي لـو كـانت وصـلتني دعـوة لزيـارة

القمر على متن مركبة الفضاء العربية التي ستنطلق من مركـز أبحـاث الفضاء العربي بإمارة الفجيرة لو حدث لي شـيء من هـذا مـا شـعرت بالفرحة التي غمرتني عندما سمعت أنباء زيادة فيضان النيل هذا العـام خصوصا وأنها جـاءت بعـد ثمانيـة أعـوام من الجفـاف، كـانت أسـوأ من السنوات السبع العجاف التي مرت على مصر في زمن سيدنا يوســف. ولكن رحمة الله هي التي خففت المأساة وهي التي حالت دون حدوث الكارثـة. والفضـل للـه أولا وللسـد العـالي الـذي طـالبت بعض أحـزاب المعارضة بهدمه، ولبحيرة ناصر التي سدت النقص على مدى السنوات العجاف الماضية. ولولا ذلك .. فمن يدري؟ ربما كنا نواجه الآن كارثـة لا يعلم مـداها إلا اللـه. وعنـدما أقـول كارثـة لا يعلم مـداها إلا اللـه فهي ليست عبارة إنشائية فخيمـة هـدفها التـأثير على القـارئ ليهتـف بحيـاة السد العالي، ولكنها حالة رهيبة سبق لمصر أن عانت منهـا في العصـر الوسيط عندما كان النيل يجـري بلا ضـابط ولا رابـط إذا جـاء الفيضـان أغرق البلاد وإذا تأخر الفيضان أهلك العباد.

ولمجـرد الـذكرى وعلى سـبيل الإيضـاح أسـوق لحضـراتكم عـدة سطور كتبها عمنا ابن إياس في كتابه الممتع "بـدائع الزهـور في وقـائع الدهور" عن الأحوال التي سادت بر مصر بعـد نقص الفيضـان وانتشـار المجاعة في زمن الخليفـة الفـاطمي المنتصـر باللـه. يقـول ابن إيـاس بالحرف الواحد:

"ثم انهبط النيل فجأة فشرقت البلاد وحصل على الناس ما لا خير فيــه، ووقــف الغلاء العظيم. فكــان يعــادل الغلاء الــذي وقــع في زمن يوسف عليـه السـلام. واسـتمر هـذا الغلاء سـبع سـنين متواليـة، فأكـل الناس بعضها بعضا حتى بلغ سعر أردب القمح 80 دينارا كــل أردب. ثم اشتد الأمر حـتى وصـل سـعر الأردب إلى 120 دينـارا (169) ثم اشـتد الأمـر حـتى بلـغ الرغيـف في زقـاق القناديـل 15 دينـارا وأكلت النـاس

الميتة والكلاب والقطط حتى قيل أن سعر الكلب بلغ 5 دنـانير، وسـعر القط 3 دنانير وقيل أن الكلب كان يدخل الدار فيأكل الطفـل وهـو في المهد، وأمه وأبوه ينظران إليه فلا يستطيعان أن ينهضا لدفع الكلب عن ولدهما من شدة الجوع. ثم اشتد الأمر حتى صار الرجل يأخذ ابن جاره فيذبحه ويأكله ولا ينكر عليه ذلك بين الناس. ثم اشتد الأمـر حـتى صـار الناس إذا مروا في الطرقات يتعـرض القـوي للضـعيف فيذبحـه ويأكلـه جهـارا وصـارت طائفـة من العـوام يجلسـون على السـقائف، وبأيـديهم حبـال فيهـا كلاليب. فـإذا مـر بهم أحـد من النـاس ألقـوا عليـه الحبـال، ونشلوه بالكلاليب في أسرع وقت، فإذا صار عنـدهم ذبحـوه في الحـال وأكلوه بعظامه، وقيـل أن الـوزير ركب يومـا على بغلـة وتوجـه إلى دار الخلافة، فلما نزل عن البغلة، أخذت وأكلت في الحال فأمسـكوا الـذين فعلوا ذلك وشنقوهم. وعلقـوهم على الخشـب فلمـا بـاتوا أصـبحوا فلم يجدوا أحد من المشانيق. فقد أخذوا وأكلوا من على الخشب.

وكان بمدينة الفسطاط حارة تسمى حارة الطبق، وكان فيهـا نحـو عشرين دارا كل دار تساوي في الثمن ألـف دينـار فـبيعت الحـارة كلهـا بطبق خبز فسميت من يومئذ حارة الطبق".

وعن ابن الجـوزي أنـه قـال بلغـني أن امـرأة خـرجت من مدينـة الفسطاط ومعها عقد من اللؤلؤ وقالت من يأخـذ مـني هـذا العقـد من اللؤلؤ ويعطيني عوضه قمحا؟ فلم تجد من يأخذه منهـا فلمـا أعيت من الطلب ألقته على الأرض وقالت إن لم تنفعـني وقت الحاجـة فلا حاجـة إلي بك وتركته ومضت فأقام مرميا على الأرض ثلاثة أيام ولم يجـد من يلتقطه من الناس وقـال الشـيخ تـاج الـدين ابن المتـوج: أن امـرأة من ذوي البيوت أخذت عقـدا من الجـوهر قيمتـه ألـف دينـار فعرضـته على جماعة من الناس بـأن يعطوهـا عوضـه دقيقـا فلم تجـد من يعطيهـا بـه دقيقا ثم أن بعض الناس عطف عليها. وأعطاها بـذلك العقـد دقيقـا في

جراب ومشت به من مدينة الفسطاط إلى باب زويلة. فلما علم الناس أن معها دقيقا تكاثروا عليها وانتهبوه منها. فلم يبق إلا ملء يديها. فلما وصلت به إلى بيتها عجنته وخبزته رغيفا. ثم أخذته على جريدة وتوجهت به إلى قصر الزمرد. ونادت بأعلى صوتها يا أهل القاهرة ومصر. ادعوا للخليفة المستنصر بالنصر، الذي أكلنا الرغيف في أيامه بألف دينار!

فلما سمع المستنصر بالله ذلك تأثر منه، وأحضر الوزير والحاجب وهددهما بالشنق إذا لم يظهر الخبز في الأسواق ثم أعقب ذلك الغلاء فناء عظيم. حتى فنى من أهل مصر نحو الثلث. فكان الأمير يتوجه بنفسه وينزل بلده ويزرع الأرض وذلك لعدم وجود فلاحين واستمر هذا الفناء يعمل في الناس نحو عشرة أشهر. حتى قيل أن الرجل كان يمشي من جامع ابن طولون إلى باب زويلة فلم ير في وجهه إنسانا يمشي في الطرقات. فلما تعطلت البلاد من عدم وجود فلاحين تعذر (171) صرف جوامك الجند. فكان المستنصر بالله الخليفة يخرج من الخزائن السلاح والقماش والتحف ويقيمها على الجند من جوامكهم بقدر معلوم. واضطرته الظروف فباع قطعة من الجوهر والياقوت وباع خمسة وسبعين ألف شقة حرير مرقومة بالذهب. وباع عشرين ألف سيف مسقطة بالذهب. وباع إحدى وعشرين دارا وعزبة. حتى باع رخام قبور أجداده ولم يبق عنده من آثار النعمة سوى سجادة رومي يقعد عليها وقبقاب في رجله، وكانت أخته ترسل إليه كل يوم زبدية فيها طعام. وكان يأكل مرة واحدة في اليوم ولم يبق عنده خدم ولا عيال ثم بعد ذلك تراجع الأمر قليلا، قليلا وارتفع النيل، وانصلحت الأحوال، وانحط سعر القمح، ووقع الرخاء ورجع الماء إلى مجاريه، وحسمت الأوقات، أو كما قيل في المعنى:

الدهر لا يبقى على حاله   لا بد أن يقبل أو يدبرا

فـإن تلقـاك بمكروهـه فاصـبر فـإن الـدهر لن يصبرا

والحمد للـه لأننـا لم نحضـر عصـر المستنصـر باللـه. ولم نكن من ضحايا عصر المجاعة ونقص النيل. الحمد لله لأن العبد لله كـان سـينفذ صبره قبل أن ينفذ صبر الدهر وحتى ولـو كـان صـبري أقـوى من صـبر الدهر، فـإن مصـير العبـد للـه كـان سـينتهي حتمـا إلى حبـل من حبـال الكلاليب. وأغلب الظن أن جثة العبد لله سـتكون هي الطبـق المفضـل على مائدة فتوة من فتوات حي باب زويلة أو حي ابن طولـون! الحمـد لله الذي كتب علينا الحياة في هذا العصر الذي لا يزال فيه رغيف الخبز بقرشين رغم ثماني سنوات عجاف، نقص فيها النيـل إلى حـد المجاعـة والجفـاف ولـو أنـا من وزيـر الثقافـة لـدعوت الشـعب المصـري إلى الاحتفال هذا العـام بعيـد وفـاء النيـل، وليكن الاحتفـال لائقـا بالمناسـبة ولنفتح أبواب الحـدائق والمسـارح ودور السـينمام بالمجـان للجمـاهير، وليقيم الناس صلاة الشـكر في المسـاجد والكنـائس، ولـيرقص النـاس طربا على شواطئ النهر وفي الشوارع، وليكن يوما مشهودا في تـاريخ مصر، فقد جاء النيل والبحر زاد، فاض ع البلاد، عوف الليل.

وكما قال المتنبي!

(174) انشرح قلب العبد لله على الآخر، واطمأنت نفسي وارتـاح بالي، بعد أن قرأت تصريحات قائد إحدى الميليشيات التي تخوض حربا طاحنة في جنوب لبنان، وإصراره على مواصلة القتال حتى آخر طلقة، وتأكيده على أنه لن يكون هناك وقـف لإطلاق النـار. وزاد من سـروري وحبـوري اكتشـافي أن الحـرب الـدائرة هي بين ميليشـيات عربيـة

وميليشيات أخرى عربية، وأن إسرائيل – الحمد لله – ليست طرفا في الموضوع. وتضاعف سروري وحبوري بعد اطلاعي على كشف الخسائر، فإذا بعدد القتلى في معركة واحدة زاد عددهم عن ستين قتيلا. والجرحى جاوزا الخمسمائة، والأسرى نحو الألف. وكدت أطير فرحا عندما تأكدت أن الجميع عربا من صلب أعراب والحمد لله!

وسبب انشراح قلب العبد لله بسيط للغاية، هو أن هذه الحرب العربية العربية هي التدريب العملي الوحيد تمهيدا لخوض المعركة الكبرى ضد إسرائيل. تماما كما يحدث في الكورة، عندما تجري تقسيمة بين الفريق القومي، فينقسم الفريق إلى فريقين .. أحمر وأبيض وتجري المباراة بينهما حامية وسريعة وخشنة أيضا وبالرغم من أنها مباراة حبية إلا أنه يحدث أحيانا لفرط الحماس أن يصاب بعض اللاعبين بكسور، وقد ينتقل بعضهم بسيارة الإسعاف إلى مستشفى قصر العيني. ولكن كل شيء يهون في سبيل الاستعداد للمعركة الفاصلة مع الفريق المنافس. وكل ما يرجوه العبد لله أن يستمر التدريب العملي الجاد بين الميليشيات العربية، ولا تتوقف الحرب لأي سبب من الأسباب. حتى لو تدخلت الأمم المتحدة، وصدر قرار من مؤتمر للقمة. فكفانا هؤلاء طوال السنين الماضية وكفانا استرخاء، ولا بد من مواجهة الأمر الواقع بجدية أكثر وحزم أشد. وحتى على فرض أن الإبادة هي مصير الميليشيات العربية المتحاربة، فلا شيء – يهم – على رأي عمنا إحسان عبد القدوس – شفاه الله – فالبركة في الميليشيات العربية في الأخرى – وما أكثرها – وهي قطعا ستستفيد من معارك التدريب الدائرة في الوقت الحاضر. كما أنها – بالقطع – ستخرج بدروس مستفادة، وسيصبح لديها خبرة تستخدمها (175) في معارك المستقبل. المهم أن تستمر حرب التدريب بين الميليشيات العربية حتى تستوعب الأسلحة الحديثة، ولكي ندخل الحرب ضد

إسرائيل – في المشمش – ونحن جاهزين ومستعدين وفي "الفورمة" كما يقول بتوع الكورة!

هناك شيء آخر أكدته هذه الحرب بين الميليشيات العربية هو الأصالة، أصالة هذه الميليشيات وعراقتها، وأنها لا تزال متمسكة بتقاليدنا الأصيلة المنبثقة من ترابنا، والنابعة من أرضنا لأنه من مأثوراتنا المتوارثة (الأقربون أولى بالمعروف) ومن أمثالنا الشعبية الجديدة (اللي يحتاجه البيت يحرم على الجامع) وهذه الميليشيات العربية المتحاربة تمشي على هدي السلف الصالح، وتتعايش مع واقعنا. فما دام لدينا سلاح وذخيرة، فالأقربون أولى بالمعروف، وصدور العرب أولى برصاص العربَ

ولدى الميليشيات العربية دبابات – والحمد لله – وأرض العرب أولى بالحرث. وبيوت العرب أولى بالهدم. وحقول العرب أولى بالحرق، باعتبار أنه .. ما هدم بيتك مثل دبابتك. وأحسن ما يحرقها عدو غاضب، أو تحترق خلال عدوان غادر لئيم! على الأقل عدوان العرب على العرب، عدوان سخي كريم، وحرق العرب لديار العرب، هو بالضبط وبالتمام والكمال مثل ... ضرب الحبيب زي أكل الزبيب!

ثم إن هذه الحرب العربية العربية تنفي عن العرب صفة الخمول والتواكل كما أنها ترد بشكل عملي وفعال على الإحصائية الاستعمارية المريبة التي صدرت أخيرا في الغرب، والتي تزعم كذبا أن العربي يعمل ساعة واحدة في اليوم بينما الأوروبي عمل سبع ساعات والياباني يعمل ثماني ساعات والأمريكي يعمل تسع ساعات متواصلة .. وهي مقولة استعمارية غربية هدفها الوحيد الحط من شأن العرب وإظهارهم أمام العالم آخر وخم وآخر كسل. والحقيقة أننا – نحن العرب – إذا كنا لا نعمل إلا ساعة واحدة. فنحن نحارب عشر ساعات. والحرب جزء من العمل. وليس أكثر دليلا على حبنا للعمل.

أننا إذا لم نجد من نحاربه حاربنا أنفسنا، وحاربنا بعضنا البعض. المهم أن نحارب وأن نستمر في الحرب. ولدينا في الأمة العربية شعار! يد تبني ويد تحمل السلاح! ولكنه أحيانا ومن شدة غيرتنا وشدة حماسنا، ننسى الشطر الأول فلا نعمل شيئا ونتفرغ للضرب، ونواصل الضرب، ونستمر في الضري، ونظل نضرب ونضرب، حتى نتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وأحيانا عندما تحين اللحظة المناسبة التي ينبغي علينا فيها أن نتوقف لنتبين الخيوط بعضها من بعض، نفاجأ بأن العمى الحيسي قد أصابنا سبب الشظايا المتناثرة والزخات المتبادلة، والنتيجة أننا نواصل الضرب عمياني إلى ما شاء الله!

وبعد .. ماذا أقول؟ هل هذه مناسبة تصلح للسخرية أو الهزل؟ ولكن – صدقوني – لم أجد إلا السخرية لمعالجة موقف مثل هذا هو أكثر مسخرة من أي (176) سخرية على ظهر الأرض. وعلى مدى أسبوع كامل والجرائد العربية تصف لنا بالتفصيل أنباء المعارك الضارية بين ميليشيات أمل وميليشيات حزب الله. والمعركة على ودنه، والقتلى بالعشرات، والجرحى بالمئات والأسرى بالألوف، والحرب بينهما بكل أنواع الأسلحة، مدافع ميدان ومدافع شوارع، ومدافع حواري، دبابات ومصفحات ومجنزرات. ولا أعرف لماذا لم تستخدم الطائرات حتى الآن؟ لعل المانع خير بإذن الله! وقاذفات لهب وباصقات نار وديناميت وقنابل يدوية وألغام.

والأكادة أن كل فريق يحارب باسم العروبة ويهتف باسم الله وليس في العالم كله هزل على هذا النحو، وليس في التاريخ كله مسخرة على هذا المستوى ولكنها مسخرة مفيدة وهزل طيب على كل حال. ما دام الهدف الوحيد والأكيد والشديد هو تحرير فلسطين من النهر إلى البحر، ومن البر إلى الور. أما ما هو الور فأرجو إلا تسألني .. أولا لأنني لا أعرف، وثانيا لأن معارك الهول بين العرب والعرب، جعلت

مخي يسبح ورأسي تطيح، فلم أعد أدري يميني من يساري، ولا دماغي من حذائي.

ويا أمة ضحكت .. على رأي عمنا المتنبي!

وحش الجبال!

(178) مـأمون وحش الجبـال كـان فتـوة شـارع البحـر الأعظم بالجيزة، وكان مصريا صميما وسنيا مؤمنا باللـه وبرسـوله، ولم يكن لـه علاقة من أي نوع بالدولة الإيرانية، كما أنه مات قبـل أن تنشـب حـرب الخليج بسنوات طويلة. وبالرغم من ذلك تذكرت مـأمون وحش الجبـال فجأة في نفس اللحظة التي أعلن فيها حجة الإسلام رافسنجاني قبـول وقف إطلاق النار وأعلن رافسنجاني في نفس الوقت أن إيران سـتوقع أشـد أنـواع الانتقـام بالسـعودية ودول الخليج ليـه؟ لا أحـد يعـرف. هـل اشـتركت السـعودية ودول الخليج في القتـال الـدائر في الخليج؟ هـل شاركت السـعودية في تحريـر الفـاو؟ هـل اشـتركت جيـوش الإمـارات العربية المتحدة في تحرير جزر مجنـون؟ لا شـيء حـدث من هـذا على الإطلاق، ولكنه أسلوب عمنا مأمون وحش الجبال طيب الله ثراه.

فقد كان مأمون وحش الجبال دائم العراك مع غـيره من الفتـوات في الجيزة، إبراهيم عبد البر ومصطفى لطفي وعبده الإنجلـيزي ونصـر الجزار، وأحيانا كان ينتصر في المارك، وأحيانا كان يلقى الهـزائم وكـان من عـادة مـأمون وحش الجبـال إذا انهـزم في معركـة ضـد فتـوة من

الفتوات، النهوض على قدميه، ثم نفض التراب عن هدومه. ثم الاعتـداء بضراوة على أول عابر سبيل!

وكـان أهـل الجـيزة يهرعـون عندئـذ لنجـدة عـابر السـبيل الطيب. ومعلهش يا معلم مأمون، إنت برضه الكبير يا حـاج مـأمون. والمسـامح كـريم يـا سـي مـأمون. وكـان مـأمون وحش الجبـال يعفـو عن الرجـل الطيب استجابة لوساطة الجماهير وتوسلاتهم. وكان الجميـع يتسـابقون لتقبيل رأس المعلم مأمون والبعض ينافقه بمعسول الكلام قبل أن تهدأ نفسـه وينصـرف، ويـا بخت من قـدر وسـامح! وكـانت هـذه هي خطـة المعلم مأمون وحش الجبال. كلما تلقى الهزيمـة في معركـة ضـد أحـد الفتوات. افتعل خناقة لا أصل لها مع عابر سبيل طيب وفي حاله وليس له علاقة بالمعركة التي كانت ناشبة بينه وبين الفتوة الذي ضـربه أمـام الناس ومرمغ به التراب، ولكن هـذه المعركـة الهزليـة المفتعلـة كـانت تكفي لتغيـير الصـورة في عيـون (178) أهـل الجـيزة الـذي حضـروا المعركة الأولى وشاهدوا المعلم مأمون وحش الجبال وهو يتـدحرج بين الحجارة والتراب وكانت العادة أن ينصـرف بعـد المعركـة الثانيـة وبعـد سيل من الشفاعات والتوسلات. وكان مأمون وحش الجبال يقبلهـا في تواضع مزيف وفي سماحة هو منها بريء براءة الذئب من دم يوسف.

وبالرغم من وفاة مأمون وحش الجبال وبقية السادة الفتوات منـذ أكثر من ربع قـرن، إلا أنـني تـذكرت لحظـة إعلان إيـران قبولهـا وقـف إطلاق النار. لقد انتهت معركة الفتوة إيران مع العراق وستبدأ المعركـة الثانية مع عابري السبيل من الناس الطيبين لعل الفتوة المهزوم يخـرج في النهاية منتصرا! ولكن يخطئ عمنا الفتوة رافنسنجاني إذا تصور أنه الفتـوة مـأمون وحش الجبـال ويخطئ أكـثر لـو تصـور أن دول الخليج ستكون لقمة سـائغة. أو أنهـا سـتكون وحـدها في المعركـة وخـيرا للأخ رافسنجاني أن يقبل قرار مجلس الأمن وأن يضعه فورا موضـع التنفيـذ

وخيرا له وللجميع أن يضع حدا لهـذه الحـرب المجنونـة الـتي أكلت من الرجال حتى شبعت وشربت من الدماء حـتى ارتـوت. ولم يسـتفد أحـد منهـا إلا أعـداء العروبـة وأعـداء الإسـلام ومن مصـلحة إيـران والعـرب والمنطقة كلها أيضـا أن ينسـى الملالي حلمهم القـدمي الـذي راودهم يومـا مـا بإقامـة الإمبراطوريـة الإسـلامية تحت عبـاة الإمـام. فـزمن السـلطان سـليم ابن عثمـان مضـى إلى غـير رجعـة. وتركيبـة العصـر الحديث لا تسمح بتكرار التجربة كما أن الدولـة العربيـة ليسـت كيانـات هشـة يمكن اجتياحهـا ببسـاطة وطريـق القـدس لا يمـر من بغـداد إل بموافقة بغداد ورضاها. وما كان أسهل علينا اسـترجاع القـدس وتحريـر عكا وحيفا. لو تضافرت كل الجهود وزحفت كل الجيوش عربية وإيرانية إلى حدود فلسطين ولكن المؤامرة استغلت الحلم الإيراني واسـتثمرته لمصـلحة إسـرائيل وعلى الملالي أن يـدركوا هـذه الحقيقـة الآن وأن يطفئوا نار الحرب قبل فوات الأوان.

والله يرحمه ويحسن إليه عمنا مأمون وحش الجبـال فتـوة شـارع البحـر الأعظم بـالجيزة، الـذي تذكرتـه فجـأة في أحـد أيـام الأٍسـبوع الماضي. الله يرحم أسـلوبه في فن العـراك. لقـد مـات أسـلوبه ودفن معه .. ولم يعـد هـذا الأسـلوب يشـفع الآن في تغطيـة هزيمـة أو تغيـير نتيجـة حسـمتها دمـاء المتحـاربين في ميـدان القتـال. وعلى العـرب والإيرانيين الآن أن ينهضوا على أقدامهم وقوفا من تحت الأنقـاض. وأن يعوضوا ما تناقص من جهـدهم وثـروتهم وأن يحـاول العيش في كرامـة جنبا إلى جنب في عالم القرن الواحـد والعشـرين، حيث البشـرية على أبواب دنيا جديدة ومختلفة وإما أن نلحق بهـا، أو نبقى في أماكننـا نـرى ذكريات معركة الجبـل. وقـد ننتهي إلى نفس المصـير الـذي انتهى إليـه خوارج معركة صفين.

والله يرحمه ويحسن إليه عمنا مأمون وحش الجبـال فتـوة شـارع البحر الأعظم بـالجيزة. فلـو كـان حيـا بيننـا اليـوم، لطـالب بحـق الأداء العلني، لأن ما فعله (180) رافسنجاني عنـدما هـدد السـعودية والخليج بأشد أنواع الانتقام هو سرقة فينـة، وهـو اقتبـاس غـير مشـروع لأغنيـة قديمة وشائعة. وسبق تسجيلها في الشهر العقاري باسم مأمون وحش الجبال. وحق التأليف والتلحين – كمـا هـو معـروف – للمؤلـف الأصـلي مأمون وحش الجبال. أم المعلم رافسنجاني فهو مجـرد مؤلـف مبتـدئ وغير موهوب ويعتمد على السرقة الأدبية والاقتباس، ولذلك لن يصدقه أحد، ولن يستمع إليه أحـد ولن يخـاف منـه أحـد! والفتـوة الحقيقي هـو الذي يحسـم المعركـة في الميـدان، أو ينصـرف بعـدها – ومهمـا كـانت النتيجة – ويمضي في سلام.

أحلام العبد لله!

(182) كنت أتمنى أن أصبح بحارا أجوب وأطوف حول العالم عدة مـرات. مـرة خـرجت منهـا وكنت أقضـي السـاعات أفكـر في صـديقي وأحيانا أقع في غـرام الخادمـة الـتي تنتظـرني تحت السـلم وأنظـر في عيون البنت هي الأخرى تتلفت حولها أنا خايفة يا محسن وكان محسـن سرحان!

وكان قلبي يسقط في كعوب قدمي إذ كنت أتصور أنها خائفـة لأن أحدا فاجأنا ونحن معا تحت السلم وعندما كنت أسالها عن سبب خوفها كانت تجيب في دلع شديد، أنا خايفة على حبي!!

وبين الخامسة عشرة والعشرين حلمت بأن أكون كابتن كرة قدم، وكان مثلي الأعلى هو الضيظوي كابتن مصر وواحدا من ألمع نجومها وكنت أقلده إذا مشيت، وأقلده إذا لعبت الكرة، وأقلده عندما أحرز هدفا في مرمى فريق الأسد المرعب! ولكن حدث أنني التقيت بالضيظوي شخصيا في أحد مقاهي بورسعيد وكان يشكو الحاجة من الزمان ومن الناس وبدا شديد الغلب والفلس خايب الأمل والرجاء، فأقلعت عن تقليد الضيظوي وتبخرت أحلامي التي راودتني يوما ما أن أصبح ضيظوي جديدا!!

وعندما بدأت الكتابة في الصحف، وظهر أول توقيع لي في جريدة "السحاب" لصاحبها كامل بريقع، تصورت نفسي واحدا من كتاب هذا الزمان، وحلمت أن أكون مثل محمد التابعي، مقالاتي تسقط الوزارات وتسير المظاهرات، وتقلب نظام الكون! ويبدو أن أحلام اليقظة اختلطت عندي بأحلام النوم، فذهبت إلى محمد التابعي في منزله بالزمالك وكان أشهر وأكبر كاتب صحفي في ذلك الزمان وعندما طرقت بابه، برز لي رجل نوبي في حجم حارس مرمى الكاميرون وسألني عما أريد فأجبته ببساطة محمد التابعي. وهكذا حاف وبلا رتب ولا ألقاب، فسألني عمن أكون فأجبته بثقة زائدة محمود السعدني هكذا ايضا بلا إحم ولا دستور، وكأن اسمي ماركة مسجلة، أو كأنني زعيم حزب المحافظين ولا أحتاج إلى تعريف وغاب (183) الرجل لحظات في الداخل ثم عاد ليقول لي ... "البيه مش موجود"!!

وشعرت بالغيظ وبالضآلة في نفس الوقت، وأخرجت من جيبي ورقا وقلما وكتبت رسالة للكاتب الكبير قلت فيها بالحرف الواحد "يا تابعي إن لي قلما كقلمك ولكنه أرفع وأنفع، وعندما يحين الوقت المناسب سأكتب للناس قصة الذين يسكنون الزمالك ويكتبون عن سكان حوش بردق وعشش الترجمان!!".

وطارت أحلامي في أصبح "تابعي" جديد وعندما صدر لي أول كتاب وهو "السماء السوداء" يضم مجموعة قصص قصيرة تصورت نفسي جي دي موباسان، أو تشيكوف، وبالقليل تصورت نفسي محمود كامل المحامي، وهو رجل ابن ذوات كان يشتغل أحيانا بكتابة القصص القصيرة، وينشر صورته معها وهو يشرب فنجان القهوة ويدخن سيجارا فاخرا في طول المزمار. لكن إهمال السادة النقاد "التقدميين" لقصصي واهتمامهم الشديد بكاتب قصة يدعى علي برعي نشروا وترجموا قصصه للروسية والصينية والماتوسيانية جعلني أكف عن كتابة القصة وأتجه إلى الشعر قانعا بالقليل الذي أكتبه.

وخلال حرب 1951 علموني كيف أضغط على الزناد تصورت نفسي أحارب ضد التتار وأقف مع الجزار والي عكا، وأنني مبعوث العناية الإلهية لتحرير الأوطان ولكن انتشلني من أحلامي انطلاق مدفع ثقيل بالقرب مني جعل قلبي ينزل في ركبي، وبعدها آمنت أنني لا أصلح لميدان القتال!

وعندما عرضت لي أول مسرحية تصورت أنني إبسن العرب أن أنني شكسبير المسلمين، ثم ألفت خمس مسرحيات أخرى حقق بعضها نجاحا كبيرا بالرغم من عدم رضاء الدكتور علي الراعي لأنها لم تكن متفقة مع الخط الواقعي الاشتراكي المندراكي المشكحوري والمندكورو ماتوا سنبله آك سوري أكواني!! وهي لغة يفهمها الدكاترة وحدهم ولا يعرفها السادة الجهال أمثالنا. المهم أن حماسي فتر بالنسبة للمسرح وخبت جذور الدراما في أعماقي! وعندما كتبت رواية طويلة بعنوان "حتى يعود القمر" تصورت أنني ديستويفسكي وحلمت بمكان في التاريخ على الأقل مثل مكان شتاينبك أو تينيسي وليامز أو حتى مثل أمين يوسف غراب!! ولكني صدمت عندما اكتشفت أن

موهبـة العلاقـات العامـة أهم من موهبـة التـأليف وانـه يجب ان تعـرف كيف توطد صلتك بالنقاد جيدا، وعندئذ فتر حماسي للروايات.

وضاعت أحلامي في الفوز بمقعد تولستوي في التاريخ!!

وعندما قمت بأول رحلة لى إلى أوروبا وكتبت "الموكوس في بلاد الفلوس" تصورت أنني سأكون جـون جنـتر العـرب أو لـودفيج مصـر أو بالميت خالص سأكون الرحالة محمد ثابت الذي فرضوا علينـا كتبـه في المدارس. رحلة داخل أفريقيا، رحلة داخل آسيا رحلة داخل مش عارف ايه والـذي وصـف كنافـة نـابلس في كتابـه (185) داخـل دكـان حلاوة، آسف، أقصد داخل المشرق العربي!! وأصدرت بعـد ذلـك خمسـة كتب رحلات ثم تبخـر حماسـي وحلمي في أن أصـبح أي شـيء فكففت عن كتابة الرحلات، وتفرغت لكتابة المقـالات وقلت لعـل وعسـى أن أصـبح محمد زكي عبد القادر الذي كتب عمـوده "نحـو النـور" لمـدة خمسـين عاما متصلة لم يتخلف يوما ولم ينقطـع عن الكتابـة يومـا، حـتى توفـاه الله وقلت إذا لم أصبح مثل زكي عبد القادر فبالميت أكـون مثـل سـيد عبده وقد تسألني ومن يكون سيد عبده؟ أقول لـك لقـد أصـبح عـددهم كبيرا كتاب المقالات هذه الأيام، لدرجة أن سـيد عبـده صـار واحـدا من هؤلاء ولكن يبدو أن أحلامي في هذا المجال أخذت تتبخر أيضا.

فأنـا مشـغول هـذه الأيـام بـآلام المعـدة ووجـع المفاصـل وآلام الروماتيزم المزمن، وأوجاع الكلى، ومشاكل الجهاز التنفسـي وانطفـاء النور في العيون التي كانت مبحلقة وطقطقة عظام الظهـر الـذي كـان مسـتويا كلـوح خشـب لطـزان. تضـاءلت أحلامي الشخصـية وأحلامي العامة أيضا.

وبدلا من الوحدة اللي ما يغلبها غلاب وعوضـا عن الدولـة الواحـدة من المحيط إلى الخليج، أصبحت أسأل الله لتبقى الأحوال على مـا هي عليـه فلا ينقسـم لبنـان إلى أربـع دويلات ولا تتمـزق سـوريا إلى جبـل

للعلويين وجبل للدروز وجبل للسياح، وأن يحفظ الله علينا سيناء بالقوة المتعـددة الجنسـيات وأن يحمي اللـه عراقنـا من أخطبـوط إيـران وأن تظل أحوالنا كما هي مترديـة ولا تـزداد انهيـارا على راي عمنـا الشـاعر المتنبي وحسب المنايا أن يكون أمانيا! أي حسـب الكـوارث والـدواهي والمصائب أن يكون أمنيات!!

ويبـدو أن عصـر المتنـبي هـو بالضـبط مثـل عصـرنا، خيبـة بالويبـة وحوادث وكوارث ومصائب ونوائب ربما الفرق الوحيد أن عصر المتنبي كان يواجه الروم، ونحن هنا نواجه اليهود، تغـيرت الأجنـاس الـتي ضـدنا ولكن بقي الهـدف واحـدا، وهـو القضـاء علينـا وعلى صـنفنا بينمـا نحن مشـغولون بإصـدار القـوانين وتوعيـة الجمـاهير وتـأجير الأقلام وتجنيـد الأنصار، وتأليف أحزاب الكهرباء أما أحلامي الشخصـية فقـد أصـابها مـا أصـاب أحلامي العامـة هـل تعرفـون مـا هي أحلامي الخاصـة الآن؟ أن تسـكن أوضـاع ضروسـي، وأن تنجح أمعـائي في طحن الطعـام، وأن تتيسر أحوالي في الحمام!

وسبحان مغير الأحوال!

النهاية